"القرآن والمرأة" لأمينة ودود

مع ست دراسات عن النسوية الإسلامية



د. إبراهيم عوض

"القرآن والمرأة" لأمينة ودود

مع ست دراسات عن النسوية الإسلامية

"القرآن والمرأة" لأمينة ودود
مع ست دراسات عن النسوية الإسلامية

د. إبراهيم عوض

دار الفردوس
١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

أولاً...

فى الخامس من أبريل ٢٠١٠م وصلتنى الرسالة المشباكية التالية:

"جناب د. إبراهيم عوض المحترم:

يسعدنا أن ندعوك للمشاركة في حلقة تلفزيونية ضمن برنامج "هُنَّ"، الذي تقدمه أربع إعلاميات من مصر والسعودية وتونس ولبنان، ويعرض على قناة الحرة الفضائية.

البرنامج يُصَوَّر في بيروت.

موعد التصوير: الثلاثاء ٢٦ نيسان/ أبريل الجاري.

موضوع الحلقة: تذكير اللغة.

سنناقش هذا الموضوع على ضوء النتاج اللغوي العربي وأئمة اللغة من ابن جني والسجستاني إلى اليوم. طبعًا النقاش لن يكون لغويًّا فقط، بل سنذهب إلى تشريح البِنَى الثقافية والاجتماعية لهذا الأمر.

من نافل القول إنك تقف على الطرف النقيض للقائلين بذكورية اللغة. لهذا فإن حضورك سيكون من هذا الباب لأن هناك باحثتين كتبتا دراسات وكتبًا عن تذكير اللغة.

آمل أن ترسل إليَّ رقم تلفونك لوضعك في التفاصيل كافة وترتيب السفر إذا كانت لديك الرغبة والوقت طبعا .

تقديري

ناظم السيد" .

ولم أكن أعرف أ . ناظم السيد ولا سمعتُ باسمه من قبل، ولا أظنه هو أيضا كان يعرفنى أو سمع باسمى قبل أن يقرأ مقالى الذى كتبته قبل ذلك ردا على من يزعمون أن اللغة مؤسسة ذكورية تظلم المرأة لصالح الرجال، فخطر له أن يستضيفنى مشكورا فى برنامجه المذكور . وقد رددتُ على رسالته بأنى، من الناحية المبدئية، موافق على الاشتراك فى الحلقة المذكورة . ثم سألته عن الضيفتين الأُخْرَيَيْن اللتين سوف تواجهانى، فذكر أنهما الأستاذة فاطمة أزرويل من المغرب، والأستاذة سلوى مقدم من لبنان، فشرعت أبحث فى المشباك عن معلومات عنهما وعن كتاباتهما ، ووصلت إلى بعض الأشياء المفيدة، إلا أنه للأسف قد وقع أوانذاك ما جعلنى أعتذر عن المشاركة، فاعتذرتُ، وقبل الرجل الاعتذار بكرم نفس .

ومع ذلك فلست أستطيع أن أجد مناصا من شكر أ . ناظم السيد لأنه، بهذا العرض الذى لم تَقْضِ الأقدارُ بوَضْعه موضع التنفيذ ، قد وفّر لى فرصة رائعة للمزيد من القراءة فى موضوع الذكورية والنسوية طفت فيها بعدد من النسويين والنسويات المنتسبين إلى الإسلام، واستمتعت أيما استمتاع بهذه التطوافة التى كان من ثمرتها كتابة بعض الدراسات عن بعض هؤلاء . فى البدء اكتفيت بالقراءة وتسجيل بعض النقاط التى عَنَّتْ لى أثناء المطالعة، ثم تركتُ كل شىء إلى حين ميسرةٍ نَشْرِيّةٍ . وفى الأسابيع الأخيرة تجدد اهتمامى بالموضوع، وعَرَّجْتُ على د . أمينة ودود، السيدة الأمريكية التى خرجت منذ عدة سنين على المسلمين بشىء لم يحدث قط فى تاريخهم، إذ خطبتْ وصَلّت الجمعة بالرجال والنساء، واستطعتُ تأمين نسخة من كتابها : " Qur'an and Woman: Rereading the Sacred Text from a Woman's Perspective"، فقرأتُه وكتبتُ عنه دراسة أشعلتْ ما كان قد خبا من اهتمامى السابق كرة أخرى، فعدتُ إلى ما كنتُ قد سجلتُه من نقاط وقتية عن بعض من كنتُ قرأتُ لهم من ذوى الاتجاه النسوى إثر رسالة أ . ناظم السيد وحولتُه إلى دراسات كاملة، ثم ضممتُ هذا كله، وأصدرتُه فى الكتاب الذى بين يدى القارئ، ما عدا دراسة طويلة عن د . أسما بارلس أصدرتُها قبل ذلك فى كتاب مستقل مع نص كتابها الإنجليزى الخاص

بهذا الموضوع، وهو: "Believing Women in Islam: Unreading Patriarchal Interpretations of the Qur'an".

ولا شك أن القارئ الكريم يشاركني الرأى فى أن الله سبحانه وتعالى قد وضع أ. ناظم السيد فى طريقى قبل سنتين ليكون سببا فى خروج هذين الكتابين إلى نور التأليف أولا، ثم نور النشر ثانيا. ومن هنا أرى من الواجب التوجه بالتحية إلى أ. ناظم السيد، الذى جعلت منه الأقدار السبب فى تأليف هذا الكتاب. والحمد لله رب العالمين.

دعوى ذكورية اللغة!

من بين ما انتشر فى ساحة الكتابة فى العقود الأخيرة من أفكار ومقولاتٍ القولُ بذكورية اللغة. ويهمنا من ذلك اللغة العربية. ولا أظن أن من يروجون ذلك عن لغتنا يعتقدون فى صحته أبدا، بل يرددون ذلك القول المتهافت عن وعى وسبق إصرار لغاية فى نفس يعقوب. ذلك أن فهاهة هذه الدعوى ظاهرة لمن لديه أى نصيب من العِيَان. والأمر أبسط مما قد يُظَنّ، وكل ما علينا أن نفعله هو أن ننظر فى أوضاع اللغة ونظامها وإبداعاتها لنرى مدى صدق أو كذب هذه الدعوى.

وَلْنَنْظُرْ أولا فى المفردات لنرى هل ثَمَّ ما يشير إلى أن فيها انحيازا للرجل على حساب المرأة. فهل هناك أشياء أو أمور تتصل بالمرأة قد تجاهلتها اللغة على حين اهتمت بنظيراتها عند الرجل؟ لا بكل يقين، فإن اللغة لم تترك شيئًا يتعلق بالمرأة إلا وذَكَرَتْه، كالأعضاء والأحوال التى تختص بها دون الرجل أو تغلب عليها مثلا، كـ"السِّوَار والعِقْد والقُرْط والضفيرة والجارية والضَّرّة والرَّحِم والحيض والنّفَاس والخُلْع والعِدّة والحمل والولادة والرضاعة". كما خَصَّصَتِ اللغةُ مفردات وصيغا وتصريفات للمؤنث مثلما فعلت مع المذكر. فهناك مثلا ضمائر للتأنيث مثلما هناك ضمائر للتذكير، فنقول: "أنتَ وأنتِ، وهو وهى، وهم وهنّ، وإياكَ وإياكِ، وإياه وإياها، وإياهم وإياهن. . .". والشىء نفسه قل فى تصريف الأفعال، فلدينا مثلا "فَعَلَ وفَعَلَتْ، وفَعَلا وفَعَلَتا، وفَعَلوا وفَعَلْنَ، ويفعل وتَفْعَل، وتفعل وتفعلين، وتفعلون وتَفْعَلْن، ويفعلان وتفعلان، ويفعلون ويَفْعَلْن، وافْعَلْ وافعلى، وافعلوا وافْعَلْنَ. . .". وما من شىء من الأسماء يعم الذكور والإناث إلا وجدت له صيغتين، واحدة لكل منهما: فهناك "إنسان وإنسانة، وحمار وأتان، وجميل وجميلة، وعطشان وعَطْشَى، وأبيض وبيضاء. . .". أما ما انفردت به المرأة فإن اللغة تكتفى فى هذه الحالة بصيغة واحدة، مثل "طالق، وحامل، ومرضع، وكاعب، وناشز".

وكما هو ملاحظ فقد استخدموا لها هنا الصيغة التى تستخدم للرجال، وهو ما يدل على أنه لا يوجد أى انحياز ناحية الرجل بناء على أنه أفضل من المرأة، وإلا لأصرت اللغة على استخدام صيغة التأنيث باعتبارها صيغة دونية. ليس ذلك فقط، بل ما أكثر الصيغ الاسمية المؤنثة التى اسْتُخْدِمَتْ للرجال، مثل "معاوية وسَمُرة وحمزة وعُمْدة. . .". وفى هذه الحالة فإننا نجمعها جمع الألف والتاء كما نصنع مع أسماء الإناث بلا أية حساسية. بل إن اللغة حين تريد أن تبالغ فى تسمية الرجال ووصفهم فإنها قد تعمد إلى صيغ تأنيثية فنقول: "هُمَزَة وضُحُكَة ورَحّالة وتِلْعابة وتِلعيبة"، ولا يجد الرجال فى ذلك ما يشينهم، وإلا ما رَضُوا به وأقروه. ويشبهه استعمالنا فى بعض الأحيان صيغة "مفعال" التذكيرية للمبالغة فى وصف المرأة، مثل "مِعْطار، ومغناج، ومذكار، ومئناث". فأين الذكورية هنا؟ ومثل ذلك الأعداد، فكل الآحاد منها تقريبا تؤنث مع المذكر، وتذكر مع المؤنث، فنقول: "ثلاثة رجال، وعَشْر

نساء" . ولو كانت اللغة تنظر إلى المرأة نظرة الضيق والاحتقار لما جعلتها تتبادل والرجل مكانيهما ، وإلا عُدَّ هذا مهينا للرجل . ومثل ذلك أيضا استعمال تاء التأنيث التى تدخل على آخر الفعل الماضى وأول المضارع، إذ من الممكن فى معظم الحالات استعمالها لجماعة الرجال، وإسقاطها مع جماعة النساء، فنقول: "قالت العرب، وتقول الفلاسفة، وقال النسوة، ويقول الفتيات. . . " . ومرة أخرى ليس ذلك فقط، فإن اللغة حتى فى المصادر والممنوع من الصرف والجمادات لم تنحز للرجل فى أى شىء، وإلا لجعلت كل المصادر مذكرة . لكننا ننظر فنرى أن الأمر قائم على التقسيم بين الجنسين، ومن ثم كان لدينا فى المصادر صيغ التذكير والتأنيث معا ، مثل "العمل والمرة والهيئة، والإرشاد والإبانة، والتمزيق والتضحية، والجدَال والمجادلة" . وكذلك الأمر فى الممنوع من الصرف، فمنه المذكر، ومنه المؤنث كما هو معروف، إذ لدينا مثلا "عمر" و"معاوية" و"جورج" و"عطشان" فى ناحية التذكير، ولدينا "زينب" و"صحراء" و"حلوى" فى ناحية التأنيث . والأمر كذلك فى الجمادات، إذ قسمتها اللغة بين الذكورة والأنوثة غير مؤثرة الرجل بالجميل أو الجليل أو النظيف، بل نرى الشمس مثلا مؤنثة، والقمر مذكرا رغم أنها أقوى منه نورا وحرارة وتحتاج إليها النباتات مثلا فى عملية التمثيل الغذائى . ونفس الشىء قد روعى فى أسماء الآلة، إذ لدينا "المكنسة والمنشار، والدبابة والخزّان" . ويمكنك أن تقول الشىء ذاته فى صيغ الجمع، فعندنا جمع المذكر، وعندنا فى مواجهته جمع المؤنث، بل إن هذا الجمع ليشمل أيضا بعض ذكور البشر والجمادات المذكرة كما فى "طلحات، و"حمزات" و"باشوات" و"حمامات" . أما فى جمع التكسير فلدينا منه ما هو مذكر الصيغة، مثل "رُكّع"، و"أشدّاء"، و"نُوّام"، وما هو مؤنثها، مثل: "قِرَدَة"، و"أمزجة"، و"غِلْمَة"، و"عباقرة" . ومرة أخرى ليس ذلك فقط، فقد آثرت اللغةُ الأنوثةَ ببعض الأشياء فقَصَرَتْها عليها ، وهذا واضح فى أعضاء الإنسان المزدوجة كالذراعين والكتفين والأذنين، فكلها ، فى القول الأعم على الأقل، مؤنثة. . . كذلك فالزهور والأشجار كلها تقريبا مؤنثة . كما أن هناك ألوانا من المصادر مغلقة على صيغة التأنيث، وهى المصادر الصناعية ومصادر الأفعال الثلاثية التى على وزن "فَعُل يَفْعُل"، ومصادر المهن والوظائف، مثل "الحرية والاشتراكية والواقعية والذاتية والغيرية والنرجسية والجنسية والقومية والوطنية والفردية والجماعية. . . " من الأولى، ومثل "السهولة والصعوبة والبطولة والنعومة والخشونة والبلادة والأناقة واللباقة والطرافة والسماحة. . . " من الثانية، ومثل "الوزارة والصناعة والتجارة والنجارة والنقاشة والحدادة والسباكة والحياكة والكتّابة. . . " من الثالثة.

ومرة أخرى ليس ذلك فقط، بل إن اللغة تختار للنساء أكرم الألفاظ، فهن عِرْض الرجل وشرفه، وهن حريمه . ومرة أخرى ليس ذلك فقط، بل إن اللغة لتزخر بروائع الأدب شعرا ونثرا فى التغزل بالمرأة

ورفعها مكانا ساميا حتى ليخلع عليها الرجل قدرة سحرية، وحتى ليقدم روحه فداء لها، ويخاف عليها من خطرات النسيم، ويترامى على قدميها، ويبذل فى مرضاتها كل ما يقدر عليه، متمنيا أن تجود عليه بنظرة عطف ورضا، وساعتئذ يشعر وكأن الدنيا قد حِيزَتْ كلها له من أركانها الأربعة. يستوى فى ذلك العُذْريّون الذين ينظرون إلى المرأة وكأنها روح شفاف أو ما إلى ذلك بسبيل، والذين ينظرون إلى جسدها فى المحل الأول أو فى المحل الأول والأخير، والذين يجمعون بين النظرتين. نعم يستوى فى ذلك عنترة وجميل وكُثَيِّر والعباس بن الأحنف، وامرؤ القيس والعَرْجىّ وبشار وربيعة الرَّقّىّ، وابن زيدون وأبو فراس الحَمْدانى والبهاء زُهَيْر مثلا. فكيف بالله يقال إن اللغة ذكورية؟ ليس ذلك فقط، فاللغة المتهمة بأنها تنحاز للذكر ضد الأنثى هى نفسها ذات اسم مؤنث كما هو جَلِىٌّ لكل إنسان! صحيح أن هناك لفظ "اللسان"، وهو مذكَّر، إلا أن العرف قد استقر على استعمال لفظة "اللغة" منذ وقتٍ جدّ بعيد. كما أن الوحدات التى تتكون منها اللغة هى الجمل، ومفردها "جملة"، وهى مؤنثة، مثلما أَنَّ وحدات الجملة هى الكلمات، ومفردها "كلمة"، وهى مؤنثة. صحيح أن هناك اللفظ، وهو مذكر، إلا أن هناك أيضا اللفظة، وهى مؤنثة. وعندنا كذلك "الفصاحة" و"البلاغة" و"القراءة" و"الكتابة"، وكلها مؤنثة. حتى "الفحولة" التى يوصف بها الأسلوب ويتعلق بها بعضهم للتدليل على أن الأمر فى الإبداع اللغوى والتفوق فيه أمر ذكورة، هذه الفحولة هى أيضا مؤنثة رغم أنها تشير إلى صفة من صفات الرجل. وانظر إلى كلمة "القوة" ومقابلها "الضعف" لترى كيف أن اللغة المتهمة بالانحياز إلى الرجل ضد المرأة قد جعلت "القوة" مؤنثة، و"الضعف" مذكرا، مثلما جعلت "الحياة" مؤنثة، و"الموت" مذكرا. صحيح أن لدينا "الحيوان" بمعنى "الحياة"، وهو مذكر، إلا أنه استعمال شبه ميت، ولولا أنه ورد فى القرآن مرة يتيمة إزاء لفظة "الحياة"، التى وردت فيها عشرات المرات لما تنبه إليه أحد، اللهم إلا من ينقّرون فى خبايا اللغة وزواياها البعيدة. وقل الشىء ذاته فى "الأبوة" و"الأمومة" و"الأُخُوّة" و"البنوة" و"العمومة" و"الخؤولة" فى جانب، و"اليتم" فى الجانب الآخر. وعندنا "المعجزة" و"الآية"، وكلتاهما مؤنثة.

وشىء آخر مهم شديد الأهمية، ألا وهو أن هناك كتبا فى تراثنا وفى أدبنا الحديث تختص بالنساء وحدهن، ومؤلفوها من الرجال، ولهذا دلالته التى لا تخفى، ولست أستطيع أن أذكر ما يماثلها للرجال. ومنها الكتب التى تتناول أخبار النساء وما إليها لابن الجوزى والسيوطى وأضرابهما من علماء الدين وغيرهم، وفيها يتناول مؤلفوها المرأة بالحديث عما يميزها عن الرجل وعما يُسْتَحْسَن أو لا يستحسن من صفاتها وطباعها وأخلاقها وعما تسببه للرجال من العشق والوله الذى قد يبلغ حد

الجنون. ومن هذا اللون من الكتب أيضا ما كتبه داود الأنطاكى فى "تزيين الأسواق فى أخبار العشاق"، وابن حزم فى "طوق الحمامة"، والسراج القارى فى "مصارع العشاق"، والشهاب الحجازى فى "الكُنَّس الجوارى فى الحسان من الجوارى"، وياسين الخطيب فى "الروضة الفيحاء فى تواريخ النساء". وهناك من خصص لمن لهن مشاركة فى الأدب قسما من بعض كتبه ترجم لهن فيه كما صنع أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه: "الأغانى"، ولسان الدين بن الخطيب فى كتابه: "الإحاطة فى أخبار غرناطة"، والدكتور مصطفى الشكعة فى كتابه: "الأدب الأندلسى" على سبيل المثال. وهناك من كسر كتابه كله على أدبهن، كما صنع المرزبانى فى "أشعار النساء"، والأصفهانى فى "الإماء الشواعر"، وابن طيفور فى "بلاغات النساء"، والمفجَّع البصرى فى "أشعار الجوارى"، والسيوطى فى "نزهة الجلساء فى أشعار النساء"، وبشير يموت فى "شاعرات العرب فى الجاهلية والإسلام"، وعبد البديع صقر فى "شاعرات العرب"، وجوزيف زيدان فى "مصادر الأدب النسائى في العالم العربى الحديث"، والدكتور تركى العزاوى فى "معجم شاعرات الأندلس"... إلخ. ومن هذا ترى أن النساء، قبل ذلك كله، لم يجدن عائقا أمامهن إن أردن أن يخطبن أو ينظمن شعرا أو يضربن مثلا. والنتيجة التى لا مفر من الانتهاء إليها بعد ذلك كله هو أنه لا معنى لاتهام اللغة ولا أهل اللغة وآدابها بما يسمى: "الذكورية". ولست أقصد بهذا أن اللغة تنحاز إلى المرأة ضد الرجل، بل الذى أريد التنبيه عليه ولفت الأنظار إليه هو أنها ليست منحازة ضد المرأة. والحق أنها عادلة تنظر إلى الذكر بعين، وإلى الأنثى بعين، ولا تظلم أحدا منهما لحساب الآخر.

وهذا هو الأمر الطبيعى، فالمجتمعات البشرية تتكون من الرجال والنساء جميعا: لا الرجال وحدهم، ولا النساء وحدهن. ومن ثم فاللغة، وما اللغة سوى انعكاس للواقع، قد أعطتنا الصورة الصحيحة للمجتمعات البشرية من هذه الناحية. وكل قول آخر فإنما هو كذب وادعاء فائل لا ظل له من الحقيقة. وهذا بالنسبة للخبثاء الخطرين الذين يقودون، عن وعى بالتخريب والإفساد الذى يأتونه، الجموع الحمقاء التى تردد ما تسمعه دون أن تتركه يمر بعقولها فتلقى عليه نظرة تسلّط عليه فيها حاستها النقدية، بل تأخذه من آذانها إلى ألسنتها على الفور. أما بالنسبة لتلك الجموع الحمقاء فهى لا تشغّل عقلها ولا تعرف أن هناك شيئا فى دنيا البشر يسمى: النقد والتحقيق والتمحيص. وهؤلاء يظنون أن كل ما يأتينا من أمريكا وأوربا لا يمكن إلا أن يكون صحيحا. وأذكر أن طالبة عربية وافدة لاستكمال دراساتها العليا فى مصر فى ميدان الأدب والنقد كانت تناقشنى فى مكتبى بالجامعة منذ عدة سنين فى بعض الموضوعات المتصلة بهذا الميدان، وجاءت سيرة التيارات والمقولات النقدية الجديدة، فكان

رأيى أنها لا ينبغى أن تسارع إلى متابعتها أو إنكارها دون أن تعرضها على عقلها . وإذا بها تجيب فى الحال: لكن لا بد أن يعيش الإنسان عصره . أى أنها ترى أن كل ما يجدّ فى ميدان النقد هو الصواب الذى لا صواب غيره. وهذه الطالبة قد أتت من بلد عربى تقليدى، إلا أن كثيرا من الكتاب هناك يظنون أنهم، بمسايرتهم للجديد الغربى، سوف يتحولون بقدرة قادر فى التو واللحظة إلى ناس عصريين، مع أن كل ما يقولونه ويرددونه إنما يدل على أنهم رغم ذلك متخلفون تخلفا شديدا . وأول وأقوى مظهر من مظاهر التخلف هو تلك الإِمَّعِيّة التى تردد دائما أنها مع الغربيين: إن أساء الغربيون أن تسىء، وإن أحسن الغربيون ألا تتابعهم فى إحسانهم، بل تظل متمسكة بالإساءة!

المرأة والدين والأخلاق
بين نوال السعداوى وهبة رؤوف

وقع في يدي منذ فترة كتاب صادر عن "دار الفكر" بدمشق عام ٢٠٠٠م اشتركت فى تأليفه د. نوال السعداوي ود. هبة رؤوف عزت، إذ كتبت كل منهما، بطلب من الدار المذكورة، دراسة تحت ذلك العنوان، ثم عادت فسجلت ملاحظاتها على ما كتبته شريكتها، ليكون بين أيدينا أربعة فصول، فضلا عن ملحق فى نهاية الكتاب قام بإعداده محمد الصهيب الشريف للتعريف بالمصطلحات التي وردت في الفصول الأربعة المشار إليها.

والمعروف أن د. نوال السعداوي طبيبة، ولها اتجاه فكري خاص يرفض الأديان ويعدها نتاجا اجتماعيا محضا لا علاقة له بالسماء، وينظر إلى عقائد الإسلام وتشريعاته وأخلاقه على أنها من صنع الرجل أراد بها تثبيت مركزه في مواجهة المرأة وقهرها وتحطيم إنسانيتها، إذ هي ترى أن العلاقة بين الجنسين كانت وستظل علاقة صراع لا يعرف هوادة ولا رحمة. أما د. هبة رؤوف فتنطلق من الإيمان بالإسلام والعقائد والتشريعات والأخلاق التي جاء بها. وهي، لمن لم يسمع بها من قبل، خريجة كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، وتعمل بها منذ أن عينت فيها معيدة عام ١٩٨٧م، وهي الكلية التي لم أستطع أن أصبر على مقرراتها أكثر من ثلاثة أيام في سبتمبر ١٩٦٦م، فتركتها إلى كلية الآداب غير آسف، حيث وجدت نفسي بعد أن كدت أضيع.

ويمثل الكتاب حلقة في سلسلة عنوانها "حوارات لقرن جديد"، وهو اتجاه يحمد للدار وللقائمين بها، إذ يعطي القراء الفرصة لمعرفة الرأي والرأي المضاد، و من ثم الموازنة بين الرأيين، وهذا من شأنه تيسير الوصول إلى الحق لمن يريد. كما أنه يعلمنا كيف نستمع إلى الأصوات المخالفة ونفتح لها آذاننا وعقولنا، ونتعايش مع أصحابها مؤمنين بأن لهم الحق في اعتناق ما يشاؤون من أفكار وعقائد والدفاع عنها، وبأنه لا يحق لنا إكراههم على نبذ ما يؤمنون به مهما تكن درجة مصادمته لما نراه أنه هو الصواب، بالضبط مثلما نرفض أن يحاول غيرنا إجبارنا على متابعته فيما يقول به. وهذا مبدأ أخلاقي يعبر عنه القول المأثور: "أحب لأخيك ما تحب لنفسك"، ويؤصله الإسلام في قوله تعالى: "لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ" (البقرة/ ٢٥٦)، وقوله جل شأنه: "وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ" (الكهف/ ٢٩)، وقوله عز من قائل: "فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ" (الغاشية/ ٢٢)، وأمره سبحانه لرسوله الكريم أن يقول لخصومه من كفار قريش وغيرهم: "وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" (سبأ/ ٢٤). ذلك أنه ما من أحد يتحمل مسؤولية غيره، بل كل إنسان

مؤاخذ بعمله ليس إلا: "وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ" (الإسراء/ ١٣)، "وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى" (الأنعام/ ١٦٤)، "قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ" (سبأ/ ٢٥).

على أن ليس معنى هذا أن ندير ظهورنا لما يقوله الآخرون فلا نهتم به أو ندرسه أو نحلله أو نناقشه ونكتب عنه موافقين أو مخالفين أو مستدركين أو ملاحظين. . . إلخ. ذلك أن كل إنسان يعتقد أن ما يؤمن به هو الصواب. ومن هنا نراه يحاول إذاعته بين الناس ويدعوهم إلى الدخول فيه، وإذا وجد من يعارضه انبرى له ورد عليه. وهى ظاهرة صحية، بل هي ظاهرة طبيعية قبل أن تكون ظاهرة صحية. ولولا تلاقح الأفكار وتدافع الآراء لركدتْ حركة الفكر الإنساني وأَسِنَتْ وران عليها الجمود. وحسبنا ما وقع بنا من مصائب وكوارث جراء الاستبداد السياسي والفكري الذي ساد حياتنا أزمانا طوالا. ثم إن الاختلاف بين البشر، بل بين الكائنات جميعا، هو أحد وجهي الحياة ليس منه بد، مثلما لا مناص من التشابه بين البشر، بل بين الكائنات جميعا، وهذا هو وجه الحياة الآخر.

في ضوء ذلك نطالع قوله عز وجل: "إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ" (الشعراء/ ٤)، "وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ" (هود/ ١١٩)، "أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ" (يونس/ ٩٩). ومن رحمة الإسلام وعظمته ما يقرره من أن مناط التكليف هو قدرة الشخص على فعل ما يطلب منه: "لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا" (البقرة/ ٢٨٦)، بل إن الإنسان متى اجتهد وسعى مخلصا لبلوغ الحقيقة فإنه يُؤْجَر حتى لو أخطأها، إذ يكفيه الإخلاص والسعي الجاد الدؤوب، وهو ما لا نجد له مثيلا في أي دين أو مذهب أو فلسفة. وطبيعي أن يكون أمر الخطإ هنا مختلفا عنه في حال المعاند الذي تحركه بواعث أخرى غير إرادة الحق، كالعصبية الغبية التي لا تطيق أن تسمع أو تبصر شيئًا غير ما عندها، أو المصالح الأنانية الضيقة، أو الحقد القتّال على أصحاب الدعوات المخالفة. . . إلى آخر ما هنالك من عوامل تدفع بالأفراد والجماعات والأمم إلى الرفض من أجل الرفض، والتمرد لوجه التمرد. وبوجه عام فإن كُلاًّ منا بمقدوره أن يعرف أيّ البواعث تحركه، وإلى أيّ مدى هو مخلص لضميره وللحقيقة فيما يعلن إيمانه به واعتناقه إياه.

فإذا عدنا إلى الكتاب الذي نحن بصدده فإننا نلاحظ أن النسبة بين طول الدراستين اللتين يتضمنهما تفتقر إلى التوازن افتقارا واضحا لا أعرف له سببا، إذ بينما يبلغ ما كتبته نوال السعداوي نحو مئة وخمس وعشرين صفحة، إذ بنا نفاجأ بأن بحث هبة رؤوف لا يتجاوز نصف عدد هذه الصفحات. وقد كان حريا بالمشرفين على السلسلة أن يحددوا لطرفي الحوار، ولو على سبيل التقريب،

عدد الصفحات التي ينبغي على كل منهما أن يكتبها، على الأقل حتى تكون الفرصة متساوية بالنسبة لهما.

والآن إذا أردنا أن نقارن بين الكاتبتين فماذا يمكن أن نقول؟ إن أول ما يواجه القارئ منذ أن يتوكل على مولاه ويشرع في قراءة ما خطه قلم د. السعداوي هو هذا السيل من اليقينيات والقطعيات التي تبني عليها أحكامها ولا ترى لها نقضا ولا إبراما، مع أنها لا تستند فيها إلى شيء ثابت إطلاقا، إذ كل عمادها مجرد أقوال مرسلة من عندها تذكر فيها أن العلماء يقولون ذلك. ولكن أي علماء يا ترى؟ وفي أي دراسة نجد هذا؟ لا جواب البتة. بل إنها تهاجم البحوث العلمية التي تتناول مثل هذه الموضوعات تحت شبهة أنها مملة وجافة ولا تقنع أحدا، ومن ثم لا تأتي بأية نتيجة. وعلى هذا فمن العبث الذي لا طائل من ورائه أن يبحث القارئ عن مراجع لبحثها، وكل ما يجده في آخر البحث قائمة بعدد هزيل من الكتب ليس فيها ما يخبرنا إلى أي مدى اعتمدت على هذا المرجع أو ذاك، ولا كيف. ليس ذلك فحسب، بل إن هذه الكتب كلها تقريبا لها هي نفسها، وهو ما يصدق عليه قولهم: "إن فلانا يغني ويرد على نفسه"، إشارة إلى ضرب من المغنين لا يستسيغ أحدٌ الاستماعَ إلى أصواتهم النشاز ولا يجدون من ثم من يصفق لهم ويقول: "أحسنت! أَعِدْ"، فهو المغني والجوقة والجمهور في آن واحد، وسبحان من جمع العالم في واحد "أو بالأحرى: "في واحدة" رغم معرفتنا أن الدكتورة تضيق صدرا بمثل هذه التفرقة بين المذكر والمؤنث! أما د. هبة رؤوف فنراها، على العكس من نظيرتها، تهتم بتوثيق كلامها وذكر مراجعها مع تحديد الطبعة والصفحة وما إلى ذلك مما هو معروف في كتابة البحوث العلمية.

وهذا غريب من عدة وجوه: فالدكتورة هبة أصغر من د. نوال كثيرا جدا حتى إنها لتعد من ناحية السن من بناتها، بل ربما من حفيداتها. ومن ناحية أخرى فإنها لا تقعقع قعقعة د. السعداوي عن العلم والادعاءات العلمية. أضف إلى ذلك أنها تعلن تمسكها بالإسلام، الذي تدعي نوال السعداوي وأشباهها أنه لا علاقة له بالعلم ولا بالمنهج العلمي. فانظر بالله عليك، أيها القارئ، إلى هذه المفارقة المضحكة! ورابعا فإن تمسك د. هبة بالإسلام لا يمنعها أن تستشهد بالباحثين الغربيين وتنظر في أقوالهم وتحللها فتقبل ما يقنعها وترد ما لا تقتنع به، بخلاف د. السعداوي، التي لا تعرف إلا فكرة واحدة ترددها من أول البحث إلى آخره رغم أن كثيرا من حقائق الحياة تعارضها وتكذبها، ولكنها لا تعبأ بشيء من ذلك أو تبالي به، جريا على المثل القائل: "تقول له: ثور. يقول: احلبوه!". إنها من أول البحث إلى آخره تظل تردد أن المجتمعات قديما كانت أموية، أي أن رئاسة الأسرة أو القبيلة كانت للأم دون الأب. هكذا هو الأمر، والسلام. أما متى كان ذلك بالضبط؟ وما الوثائق التي تقول به؟ ولم يا

ترى تغيرت الحال وأزيحت الأمهات من فوق عروش سلطانهن؟ وكيف؟ لا جواب إطلاقا، اللهم إلا أن بعض علماء "الأنثروبولوجيا" قالوا بذلك. وفاتها أن الأمر في أحسن أحواله هو مجرد اجتهاد ظني لا يستند إلا إلى قول هؤلاء الأنثروبولوجيين أنفسهم إن بعض المجتمعات الإفريقية التي تسكن الغابات كانت تسير على هذا النظام، مع أنه حتى لو صح ذلك لما خرجت المسألة عن أن تكون شذوذا على القاعدة التي لم يذكر التاريخ غيرها. ومن هنا نراها أيضا على طول البحث ترجع كل شيء تقريبا إلى رغبة الرجل في قهر المرأة، ناسية أن المرأة ليست كلها شيئا واحدا، إذ قد تكون أما، وقد تكون بنتا أو أختا أو زوجة أو. . . إلخ، ولا يقول عاقل أبدا إن الرجل يعامل هؤلاء جميعا نفس المعاملة مع افتراضنا صحة ذلك الكلام. ومن هذا المنطق الهستيري أيضا نسبتها ختان النساء إلى نفس الرغبة الذكورية في قهر الإناث والتسلط عليهن، ناسية أن الرجال أيضا يختتنون. فهل يا ترى نقول إن النساء هن اللائي فرضن عليهم ذلك لكي يستبددن هن أيضا بهم؟ الغريب أنها تعزو ذلك إلى رغبة الحاكمين في التسلط على الشعوب، ناسية هنا أيضا، ويا لها من نَسَّاءة كبيرة، أن الحاكم يختتن هو أيضا! ثم ما وجه الصلة بين الختان والعبودية؟ إن الرغبة فى قمع الآخرين وظلمهم واضطهادهم موجودة في كل طوائف المجتمع وطبقاته، يستوي في ذلك المجتمعات التي تمارس الختان وتلك التي لا تمارسه، فهي ليست مقصورة إذن على المجتمعات الختانية ولا على الحكومات وحدها. هذه حقيقة لا يمكن أن ينتطح فيها عنزان (أم نقول: "عنزتان" كيلا تغضب د. نوال وتصوب إلينا الاتهامات؟)، ورغم ذلك تظل الكاتبة تمطرنا بهذه الأراجيف بثقة مطلقة تُحْسَد، أو بالأحرى: لا تُحْسَد عليها، فما العمل إذن؟ لا عمل إلا أن نقول نحن ما نعتقد أنه هو الصواب، تاركين الباقي للقراء وللتاريخ ليفصل فيه. فهذا كل ما نستطيعه، أما أن نتدخل بين المرء وعقله فليس من اختصاصنا ولا في طاقتنا ولا مما يحمده الدين لنا كما أشرنا قبلا.

ومع هذا كله نجد د. نوال تهاجم د. هبة متهمة إياها بأنها لا تتبع المنهج العلمي رغم ما قلناه وما يلمسه القارئ بيده لمسا من أن الدكتورة الصغيرة أعرف من الكبيرة بذلك المنهج وأقدر على الالتصاق به واحترام قواعده، فوق أن د. نوال قد هاجمت البحوث العلمية كما أومأنا سلفا. ومما أخذته الكبيرة على الصغيرة أيضا أنها لم تبدأ بالارتياب فيما عندها، وكأنها هي قد راعت ذلك! إنها على الضد تماما قد انطلقت كالإعصار الهائج منذ أول سطر في فصلها لا تعرف توقفا ولا تثبتا ولا ترى إلا شيئا واحدا تفسر به كل شيء، ألا وهو رغبة الرجال في قهر النساء، ورغبة الحكومات في قهر الشعوب. فكأن القهر قد استحال لديها إلى إله، فهو يفسر كل ظاهرة، ويقف خلف كل حادثة. . . وهلم جرا.

وقد نبهت د . هبة إلى عدد من الأخطاء الشنيعة التي سقطت فيها د . السعداوي سقوطا مدويا لا يليق بمن تتصدى لمثل هذه المسائل، كنسبة حديث نبوي إلى القرآن الكريم، واقتطاع بعض الآيات القرآنية من سياقها بما يحرف معناها، وقولها إن الإله في الأديان جميعا ينظر إليه على أنه ذكر، حيفا من المجتمع على الأنثى . ومما ردت به د . هبة على هذه الدعوى المتهالكة الأخيرة أن الإله ليس ذكرا ولا أنثى، بل ليس كمثله شيء، وهذا يعرفه كل إنسان في رأسه عقل يفكر . كما ردت على زعمها تحيز الإسلام للرجل في قوله إن الله قد تاب على آدم وغفر له معصيته، في حين لم يذكر توبته على حواء، إذ يقول القرآن: "فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" (البقرة/ ٣٧)، فنبهتها إلى أن قراءتها القرآن بهذا الأسلوب خاطئة، وأن القرآن الذي قال ذلك هو نفسه الذي ذكر في موضع آخر أن الاثنين قد اشتركا في المعصية وفي الابتهال أيضا إلى الله أن يغفر لهما . وأضيف أنا أن القرآن لم ينسب المعصية في هذا السياق صريحة إلا لآدم: "وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى" (طه/ ١٢١) .

فمن الطبيعي أن يذكر أيضا أن الله قد تاب على آدم. وليس في هذا أدنى افتئات على المرأة، إذ المقصود بآدم هنا هو مطلق الإنسان، رجلا كان أو امرأة. وبعض الآيات القرآنية لا يمكن أن يستقيم فهمها إلا على هذا الأساس. لنأخذ مثلا قوله جل شأنه: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا" (البقرة/ ٣١)، إذ الخلافة في الأرض ليست مقصورة على الرجال بل تشركهم فيها النساء . كما أن الله سبحانه لم يهب الرجل وحده اللغة والعلم، بل الرجل والمرأة جميعا .

ومما أخطأت فيه أيضا د. نوال، وبينت لها د. هبة وجه الحق فيه مهاجمتها للأديان وتمردها على أحكام الشريعة الإسلامية ودعوتها إلى أن يكون الإنسان هو مقياس الصواب والخطإ. ويتلخص رد باحثة العلوم السياسية في أنه لا بد أن تكون هناك مرجعية مطلقة تكون فوق اختلافات الأفراد والطوائف والطبقات والشعوب بحيث لا تحابي أحدا على أحد، وهذه المرجعية هي الله جل وعلا. وهذا كلام حق، فما من أمر إلا ولا بد أن يشرف عليه من يستطيع أن ينتشل نفسه من غمار التفاصيل بعد أن يكون قد ألم بها . ومن بالله يمكن أن يتوفر له العلم المحيط بالأوضاع البشرية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ولا يقدّم في ذات الوقت أحدا على أحد إلا عن جدارة منه واستحقاق سوى الله سبحانه؟ أليس هو الذي خلق البشر ويعرف طبائعهم وقدراتهم؟ أليس هو صاحب العدل المطلق والرحمة الشاملة؟

هل معنى ذلك أن د. السعداوي لم تقل ما يمكننا أن نوافقها عليه؟ الواقع أن أيا من المنصفين لا يستطيع أن ينكر أن هناك إجحافا في كثير من الأحوال بالمرأة وحقوقها، وأنه ليس من المروءة ولا العدالة بل ولا الإنسانية السكوت على مثل هذا الظلم. بيد أن معظم المظالم التي تذكرها الكاتبة في هذا السبيل هي مما يحرّمه الإسلام ولا يرضاه على أي وجه من الوجوه، لكنها للأسف تنسبه إلى الشريعة. من ذلك أنها تظن، أو ربما تريد لغاية في نفسها إيهام القراء، أن الدين يفرق بين المرأة والرجل عند ارتكابهما فاحشة الزنا، فهو لذلك يعاقب المرأة ولا يرى على الرجل أي تثريب. وهذا محض اختلاق وزور قبيح! إن ذلك من فعل التقاليد المنافقة المنحرفة، أما الدين فهو يأخذ الطرفين بنفس الجزاء. بل هو يؤثر الستر في هذه الحالة والتوبة فيما بين العبد وربه كما هو معروف من مواقف الرسول الكريم وأحاديثه التي أُثِرَتْ عنه في هذا السبيل. فلماذا نزيف الحقائق ونحمّل الدين أوزار التقاليد الجاهلية؟ ومن السهل فهم البواعث التي حدت بهذه التقاليد إلى إفراد الأنثى بالعقاب في هذه الحالة، فالأنثى لا الرجل هي التي يظهر عليها آثار الجريمة. ولو كان الرجل هو الذي تظهر عليه هذه الآثار لعُوقِب هو وتُرِكَتْ هي دون أن يمسها سوء. ومع ذلك فلا بد أن نضيف أن القانون الوضعي نفسه في بلاد المسلمين لا يفرق في هذه النقطة بين رجل وامرأة! أي أن غلط د. نوال هنا غلط لا عذر لها فيه بأي وجه. ولذلك قلت مستدركا إن هذا ليس ظنا منها بل قد يكون رغبة متعمدة في التزييف والإيهام.

وبعد، فقد كان مقررا منذ سنوات بعيدة بعض الشيء أن ألتقي مع د. نوال السعداوي في برنامج حواري في القناة الثقافية في التلفاز المصري، إذ عرض عليَّ معد البرنامج هذا الاقتراح فوافقت، إلا أنه عاد بعد فترة فقال إن الدكتورة لا تريد أن يحاورها أحد، وتفضل أن يقتصر البرنامج عليها هي ومقدمته، وإن كان قد بلغني أنها ظهرت بعد ذلك بقليل في برنامج مشابه مع د. محمد عمارة. الشاهد في هذا الكلام أن الزمان قد دار دورته، وهأنذا أجد نفسي مرة أخرى إزاء الدكتورة، إذ وقع في يدي الكتاب الحالي منذ أيام فخطر لي أن أفكر مع السادة القراء بصوت عال كما يقولون!

هل الأنثى هى الأصل؟
مع نوال السعداوى كرة أخرى

"الأنثى هى الأصل"[١] كتاب من كتب د. نوال السعداوى تحاول أن تثبت فيه أن الأنثى هى أصل البشرية وأن الرجل أقل منها فى كل شىء، وأن المجتمعات الإنسانية كانت فى أصل أمرها أموية تدير المرأة شؤونها وتتحكم فى الرجل فلا يخرج عن طوعها، وينتسب الأولاد إليها ويحبونها ويكرهون أباهم، ثم تحولت الدفة فتولى الرجل أمر الأسرة. ومن يومها وهو يظلم المرأة ظلما شنيعا لا معنى له ولا رحمة فيه. وغاية المؤلفة من الكتاب أن تُعِيد الأمورَ سيرتها الأولى التى كانت عليها، فترجع السيادة على الأسرة للمرأة، ويُنْسَب الأولاد والبنات إليها من جديد كما كان الحال قديما حسب مزاعمها. وأول شىء يلحظه قارئ كتاب نوال السعداوى أن كثيرا من الكلام الذى يتضمنه لا يعقله العاقلون ولا يفهمونه ولا يتصورون أن يخطر على بال أحد أو يمر على لسانه. فهى مثلا تقول (ص١٤٧) إن الحقائق العلمية تتغير من عصر إلى عصر، ولكن الإنسان يميز الحقائق الصحيحة من الحقائق المزيفة. ترى هل هناك حقيقة مزيفة؟ إذن فهى ليست حقيقة. وهذا يدل على أن أفكارها غير منضبطة، وعبارتها فضفاضة رغم تشدقها بالعلم والمنهج العلمى. ومع هذا نراها تقول (ص١٨٣) إن عبقرية العباقرة من العلماء تكمن فى القدرة المستمرة على نقض القديم وتقبل الأفكار الجديدة إذا كانت أكثر اقترابا من الحقيقة. أية حقيقة؟ هل بقيت هناك حقيقة فى أيدينا نقيس عليها مدى اقتراب الجديد منها أو ابتعاده عنها بعدما قالت إننا لا نعرف الحقيقة، وإن الحقائق متغيرة غير ثابتة؟

وفى الصفحة السابعة والأربعين نراها تؤكد أنه قد مر وقت كان فيه العالم مكونا من الحقائق الثابتة المقدسة، والآن لم يعد كذلك. وهذا أيضا كلام غير مفهوم وغير منضبط. إن تكوين العالم ثابت، أما فهمنا له فهو المتغير، ولكن فهمنا له ليس هو الحقيقة، بل محطة فى طريقنا للوصول إلى الحقيقة. إلا أنها، فيما يبدو، لا تستطيع تصور هذا ولا التعبير عنه. كما تقول (ص١٤٨) إن أى بحث لا يضع فى حسابه البحث عن الحقيقة هو بحث غير علمى، مع أنها قالت آنفا إن الحقيقة متغيرة وغير ثابتة. فأية حقيقة يمكن أن يتوصل إليها أى بحث علمى إذا لم تكن هناك مثل هذه الحقيقة؟

ومع ذلك كله نجدها (ص١٥٠) تؤكد بقلب جامد أنه لا فرق بين العلم والفن فى كتابة بحث عن المرأة، بحجة أن كليهما يهدف إلى كشف الحقيقة. فأية حقيقة، والحقائق عندها غير ثابتة بل متغيرة على الدوام؟ وأطرف منه أن تقول (ص١٥٠) إن العلم لا يقول الحقيقة بل ينصاع إلى السلطة وغاياتها،

---

[١] الكتاب منشور مع كتب أخرى للسعداوى تحت عنوان "دراسات عن المرأة والرجل فى المجتمع العربى" (ط٢/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت/ ١٩٩٠م/ ١٤١– ٣٣١).

ومن ثم فهى لا تثق فيه. وكانت قد قالت قبل ذلك بقليل (ص١٤٧) إنه لا سبيل أمامها إلا العلم. فأى تناقض هذا؟ وفى موضع آخر (ص١٥٢) نسمعها تقول إن العلم قد أثبت أن أية قيود على الإنسان تعرقل تطوره الطبيعى وتؤخر نموه الفكرى. والسؤال هو: أى علم؟ ألم تقل إن حقائق العلم غير ثابتة؟ ثم هل هناك مجتمع بلا قيود؟ أين هو؟ لو أن أحدا أراد قتل آخر والشرب من دمه، فهل يفعل هذا دون مبالاة بالقيود بناء على ما تقول د. نوال السعداوى؟

أما ما تقوله (ص١٤٩– ١٥٠) من أن الدين الحق لا يفرق بين إنسان وإنسان، ولا بين رجل وامرأة، ولا بين فقير وغنى، ولا بين أسود وأبيض، ولا يمكن أن يقول للناس: اكذبوا أو نافقوا أو اكرهوا الآخرين، وأنه يهدف إلى إسعاد البشر وأن يتمتعوا بالصحة السليمة، فهو كلام صحيح ليس فيه ما يمكن أن نأخذه عليه. إلا أن الدين الحق لا يرضى، مع ذلك، ما تريده هى من ممارسة الإنسان لما نهاه عنه ذلك الدين بحجة أن الدين الحق يكره النفاق. بل الدين الحق يأمره بالكف عما نهاه عنه بغض النظر عن مشاعره حتى لو كان يميل إلى ما نهاه عنه. كذلك فقولها (ص١٥٠) إن الدين الحق يتفق والحقيقة هو كلام يتناقض مع ما كررته من قبل، إذ أنكرتْ مرارا وجود أية حقيقة كما بيّنا. ثم تفاجأ بأن الدين عندها هو ما يتوصل إليه الإنسان من فهم للسعادة والصحة الجسدية والنفسية. والمعروف عندنا أن الدين من عند الله لا من عند الإنسان. ومن الممكن أن يخطئ الإنسان، فهل يعد هذا الخطأ دينا؟ ثم أى إنسان وأى مجتمع ذلك الذى يصبح مفهومه للسعادة هو الدين؟ إنها تتكلم ببساطة شديدة السذاجة وتظن أنها تكتب علما!

وتتلخص الفكرة التى يدور حولها الكتاب، حسبما وضحنا آنفا، فى أن "الأنثى هى الأصل" كما جاء فى العنوان، وينبغى من ثم نسبة الأولاد إليها[١]، وجعل القوامة على الأسرة لها، مع التأكيد بأن المجتمعات البدائية قد عرفت للمرأة أنها أصل الحياة، وجعلتها أقدر وأعلى قيمة من الرجل. وهذا تفكير غشيم، إذ لا أصل هنا ولا فصل، بل الرجل والمرأة كلاهما ذو دور محورى، وبدون أى منهما لا يمكن أن تستمر الحياة. وإذا كان من الرجال من يقول إن آدم هو الأصل، وإن حواء قد خُلِقَتْ من أحد

---

[١] وبهذه المناسبة ينبغى أن نشير إلى الهزل السخيف الذى سقطت فيه الكاتبة حين قالت إن الرسول نفسه كان يُنْسَب إلى أمه فيقال: محمد بن آمنة. لكنها لم تذكر من أين استقت هذا الكلام حتى نرى السياق الذى ورد فيه. وبكل يقين ليس هو السياق الذى ساقته قاصدة من ورائه الإيهام بأن العرب كانوا ينسبون الأبناء إلى أمهاتهم. والحق أن هذا ليس نسبا بالمعنى الذى تقصده هى من هذا التدليس، وإلا فما زلنا نقول أحيانا عن هذا أو ذاك من الناس إنه "ابن فلانة" بمعنى أنها أمه لا بمعنى أن هذا نسبه الرسمى. وفى أسرة قريبة لنا مثلا يوجد أكثر من "محمود"، فتراهم يقولون: "محمود بن فلانة"، و"محمود بن علانة"، و"محمود بن ترتانة"، تمييزا لكل محمود عن بقية المحمودين.

أضلاعه، فالصواب أنهما جميعا خُلِقا من نفس واحدة كما ذكر القرآن أكثر من مرة، بما يدل على أنهما من هذه الناحية متساويان.

أما إن مضت د. نوال السعداوى فى غُلَوَائها فإن العلم يرد عليها بأن المرأة لا يمكنها أن تحمل بدون رجل، مما يدل على أن الأمر مشترك وأن أحدا منهما لا يمكنه الاستقلال به. بل إن الرجل هو الذى يقوم بدور المخصِّب لا المرأة، فضلا عن أنه يمكن أن يخصِّب ما لا يحصى من النساء، أما هى فمتى حملت لا ينفع معها تخصيب آخر إلى أن تلد وتمر على الولادة فترة معينة. كما أنه لا يعرف سن اليأس، بخلاف المرأة، التى لا تحمل بعد سن معينة، علاوة على أن لها فى كل شهر أوقاتا معلومة تحمل فيها ولا تحمل فى غيرها، أما هو فلا. كذلك فى الحمل لا توجد سوى بويضة واحدة من طرفها فى مقابل ملايين المخصِّبات منه، كل واحد فيها يسعى ليقوم بدور التخصيب، أما هى فدور بويضتها سلبى، إذ تنتظر الحيَوان الأقوى كى يقوم بعملية التخصيب. ثم بعد أن يتم التخصيب تتعطل هى عن الحمل والإنجاب إلى أن تضع طفلها، أما الرجل فيظل حرا نشيطا قادرا على التخصيب لما لا نهاية من الناحية النظرية على الأقل حتى لو أُخِذ منه بعض المخصبات فخُصِّبَتْ بها امرأة جديدة. وفضلا عن هذا فإنها لا تستطيع أن تحمل إلا فى غير فترات الطمث، على عكس الرجل، الذى يمكنه التخصيب فى أى وقت. ومعنى هذا بنفس منطقها أنه الأساس، وليست هى. أما إذا قيل إن الولد يكون مؤكد النسبة إلى أمه دون أبيه، فالرد أن هذا معناه اتهام المرأة بالخيانة، وليست الخيانة بالعمل الكريم الذى ينبغى أن تكافَأ عليه المرأة بنسبة الولد إليها، بالضبط مثلما لا يكافَأ الرجل الزانى المعتدِى على عِرْض رجل آخر بنسبة الولد إليه، بل ينسب إلى الرجل الآخر رب الأُسرة. وفوق ذلك فمن الممكن أن تسرق المرأة ولد امرأة أخرى وتنسبه إلى نفسها ظلما وزورا، سواء باستبداله بابنها أو أخذه دون مقابل. ومن هنا نتبين أنه لا شىء متيقن فى مسألة نسبة الولد.

وتؤكد المؤلفة (ص١٥٤) أن النظام الأسرى الحالى القائم على تولى الأب قوامة الأسرة هو نظام مستحدث لم يكن موجودا قبل ظهور الأديان، وأن السيطرة على البيت كانت فى يد الأم، وكان الأطفال ينسبون إليها، كل هذا دون أن تقدم دليلا على ما تقول وكأنه حقيقة مقررة يعرفها الناس جميعا وفُرِغ من إثباتها، وليس هناك من يشك فيها أو يقول بما يخالفها. وليس هذا بالأسلوب العلمى الذى لا تفتأ تتحدث دائما عنه، وإلا لما عجز إنسان أن يقول ما يحلو له ما دامت المسألة لا تزيد عن إلقاء ما يعن بخاطره أو ما يريد أن يوهم الناس به ثم يمضى دون أن يُعَنِّىَ نفسَه بإثبات صحة ما يتفوه به. والواقع أن قائل ذلك هو باخوفن العالم الأنثروبولوجى المعروف، الذى أصدر كتابا ذكر فيه هذا الكلام، إلا أن نوال

السعداوى تجاهلت شيئا كبيرا مما قاله الرجل فى هذه النقطة، وهو أن ذلك النظام المفترض انتشاره قديما سببه تعدد الأزواج بما ينتج عنه من الجهل بالأب الحقيقى للأطفال، فنسبهم المجتمع إلى أمهم لأنها معروفة، وأن المجتمعات البشرية قد هجرت هذا النظام حين هجرت تعدد الأزواج وصار أبو الأطفال معروفا لأنه ليس هناك للمرأة إلا زوج واحد[١]. ولنلاحظ أن كلام باخوفن، مع ذلك، إنما هو مجرد فرض نظرى قابل للصواب والخطإ.

وتضيف د. السعداوى قائلة إن الإنسان فى ذلك الوقت كان يتصرف بطريقة تلقائية حسب مشاعره ورغباته وتفكيره دون عوائق من دين أو فلسفة. ترى هل هذا ممكن؟ الحق الذى لا يمكن أن ينازع فيه أحد، اللهم إلا نوال السعداوى، التى لا يضبط فكرها ولا كلامها منطق، هو أننى مثلا لو أردت تحقيق رغبة ما وأراد غيرى تحقيق نفس هذه الرغبة فلسوف يكون هناك صدام بين الرغبتين، ومن ثم سوف تكون هناك قيود تنعدم معها التلقائية التى تتحدث عنها د. السعداوى على هذا النحو الرومانسى الذى لا يصمد لحقائق الواقع الصلبة. لكن الكاتبة، كما قلت، لا تفكر فيما تقول، بل يشجيها هذا الكلام الطنان غير العلمى وغير الواقعى. كذلك هناك مشاعر الغيرة والحسد والحقد والتطلع إلى ما فى أيدى الآخرين. فكيف تكون هناك تلقائية فى هذه الظروف؟ وسواء كانت قصة ابنى آدم حقيقية كما أُومِن، أو رمزية كما قد يظن غيرى، فمغزاها بالنسبة إلى هذا السياق واضح تمام الوضوح.

وهى تعزو هذا الذى تقوله إلى أن البشر كانوا فى ذلك الوقت البعيد يعيشون عيشة بدائية ليس فيها علوم ولا فلسفات. ومعنى هذا أن العلم والفلسفة هما المسؤولان عن الانحراف الذى حدث فى رأيها وترتب عليه أن يتولى الرجل رئاسة الأسرة بدلا من المرأة. ولا شك أن هذه حجة عليها، إذ هى تربط قوامة المرأة على الأسرة بالتخلف العلمى والعقلى، على حين تربط بين التقدم العلمى والعقلى وبين قيام الرجل بهذا الدور. وهى لم تقصد هذا بطبيعة الحال، بل هذا مؤدى ما تقول، وهو ما يدل على تهافت آرائها وعدم إحكامها ما تفكر فيه أو تكتبه. إنما هو كلام يَعِنّ لها فتسجله على الورق بعُجَره وبُجَره دون مراجعة أو تثبت. ومن هنا تكثر مقالتها الفكرية، ويسهل على كل من يتناول كتاباتها أن يضع يده بسهولة شديدة على نقاط الضعف فيها، وما أكثر نقاط الضعف فيما تفكر فيه وتكتبه!

ومما قالته فى هذا السياق أيضا أن المجتمع الإنسانى فى تلك العصور البدائية القديمة قد أدرك أن الأنثى هى "بالطبيعة أصل الحياة بسبب قدرتها على الولادة الجديدة، فاعتبرها أكثر قدرة من الذكر، وبالتالى أعلى قيمة. ومن هنا سادت الفكرة فى تلك العهود أن الآلهة أنثى، وأنها آلهة الإخصاب

---

[١] انظر مقدمة بندلى صليبا الجوزى لترجمة كتاب باخوفن: "الأمومة عند العرب"/ قازان/ ١٩٠٢م/ ٢– ٣.

والولادة والخضرة والوفرة والخير وكل شىء مفيد"، وأن "هذه العهود قد استمرت آلاف السنوات. . . لكن معظم علماء التاريخ والأنثروبولوجيا فى العالم يجمعون على أنه فى المجتمعات الإنسانية البدائية كانت للأنثى قيمة إنسانية واجتماعية وفلسفية أكثر من الذكر. . ."

ولا شك أن القارئ قد لاحظ تخبط نوال السعداوى حين قالت إن المرأة كانت لها قيمة فلسفية أكبر من قيمة الرجل، إذ سبق أن ذكرت هى نفسها أن تلك المجتمعات البدائية لم تكن تعرف علما ولا فلسفة. فكيف يا ترى كانت هناك رغم ذلك فلسفة استطاعت أن تزن قيمة المرأة وتضعها فى مكانة أعلى من الرجل؟ كما أكدت أيضا أن التاريخ لا يعرف كم من آلاف الأعوام قد مرت قبل أن يحدث الانقلاب ويحل الرجل محل المرأة فى صدارة الأسرة لأن التاريخ لم يكن قد عُرِف بعدُ حسب كلامها. لكن إذا لم يكن التاريخ قد عُرِف بعد، ومن ثم لم يصلنا شىء مدون عن تلك المرحلة التى تتحدث عنها، فكيف يا ترى عَرَف المؤرخون والأنثروبولوجيون أن المرأة كانت هى قيّمة الأسرة لا الرجل؟ أتراهم شموا على ظهر أيديهم؟ قد يكون، ولكن هل هذا هو المنهج العلمى الذى تصدعنا نوال السعداوى بالثرثرة عنه؟

ثم إن النسويات والنسويين دائما ما يعللون تأخر المرأة عن الرجل بأن الرجل قد قمعها بقوته العضلية. ورغم أننا لا نسلم لهم بهذه الحجة، لأن كثيرا من الناس رجالا ونساء يسودون جماعاتهم التى ينتمون إليها رغم وجود من هم أقوى منهم عضليا، فلا جدال مع ذلك فى أن التفوق العضلى ميزة ينفرد بها الرجل ويتفوق بها على المرأة. فلو افترضنا أن النوعين متساويان فى سائر صفاتهما تمام التساوى كان معنى ذلك أن فى الرجل شيئا يزيد به على المرأة ويعطيه من ثم حق الصدارة. ثم هناك سؤال غاية فى الأهمية هو: متى يا ترى تم اختطاف الرجل سيادة المرأة على الأسرة؟ ولأى سبب؟ هل كانت المرأة قبل ذلك أقوى من الرجل عضليا، ومن ثم استطاعت أن تقهره آنذاك، إلى أن جاء وقت ضعفت فيه عضليا وقوى هو فانتزع منها الزعامة؟ فهل كانت المرأة كذلك فعلا فى يوم من الأيام؟ فما الدليل؟ وكيف تم هذا؟ ومتى؟

إنها تنقل عن أحد العلماء أن المرأة البدائية كانت أقوى من الرجل جسدا (ص١٧٨). لكن هذا رجم بالغيب ليس عليه دليل، وهذا العالم نفسه يقول إننا لا نملك شيئا عن تلك المرحلة، فكيف عرف إذن ما يزعمه عن التفوق الأنثوى على الرجل آنذاك جسديا؟ ولنفترض أن هذا صحيح، لقد كانت المرأة قوية ولهذا تسلطت على الرجل، وبما أن الامر قد تغير إلى النقيض فليكن الرجل هو السيد إذن طبقا لهذه القاعدة التى تحاول إرساءها. أما بالنسبة للقبائل الإفريقية الأمومية فى العصر الحديث التى

ذكرتها فى هذا السياق فهى قبائل بدائية. فإذا كانت تريد هذا الوضع، إن كان هذا الوضع صحيحا، فلتعد القهقرى إلى تلك المراحل البدائية من تاريخ البشر، وتبدأ الدورة من قديم.

ثم كيف يا ترى تغلب الرجل على المرأة، وقد كانت أقوى منه؟ هل عبث أحد بالتركيب البيولوجى للرجل والمرأة؟ لكن هل كان العلم فى تلك المراحل البدائية السحيقة من تاريخ البشرية متقدما إلى هذا الحد؟ بل هل كان هناك علم أصلا فى ذلك الزمان؟ ولنفترض أنه كان هناك علم متقدم يستطيع أن يتلاعب فى بيولوجيا النوعين، فكيف استطاع الرجال أن يفعلوا ما فعلوا بحيث يتخلصون من ضعفهم ويصيرون هم الأقوياء بدلا من النسوة؟

فى موضع آخر من الكتاب (ص٢٣٨– ٢٣٩) توهمنا السعداوى أنها بسبيلها إلى ذكر الوسائل التى أخضع بها الرجل المرأة له وجردها من حقوقها ووضعها الطبيعى. إلا أننا، فى نهاية المطاف، لا نجد شيئًا غير قولها إن هذا القمع قد استلزم وسائل متعددة من التعذيب الشديد حتى القتل لكل من وسوس لها الشيطان وخرجت من النظم الأبوية وقوانين الأسرة. وهو، كما يرى القارئ، كلام مضحك لأنه يقتضينا التخلى عن العقل والمنطق، إذ كيف يعاقب الرجال النساء على خروجهن من النظام الأبوى فى الوقت الذى كان النظام السائد هو النظام الأمومى، ولم يكن النظام الأبوى قد ظهر إلى الوجود بعد؟ كما أنه من غير المعقول أن يقمع الرجل المرأة رغم قوتها وضعفه. وبها يتبين عجز السعداوى أن توضح لنا كيف استطاع الرجل إخضاع المرأة، التى كانت لها السيادة عليه، وكانت أقوى منه، فضلا عن أن الأولاد كانوا يحبونها هى ولا يطيقونه حسب مزاعمها التى سنوردها بعد قليل.

كما نراها (ص١٨١) تترك حقائق الواقع الذى لا يمارى فيه إلا ممارٍ عريقٌ فى السفسطة وتذهب فتستشهد ببعض علماء النفس على أن الرجل يفتقر إلى مواهب الأبوة ومشاعرها، وأنه عضو متطفل على الأسرة، اللهم إلا بعض القوة العضلية التى اكتسبها، بما يعنى أن تلك القوة العضلية لم تكن موجودة من قبل حين كانت المرأة هى الأقوى عضليا. ترى كيف ولماذا ومتى وأين تم هذا التحول العضلى لصالح الرجل؟ إن مثل تلك الأمور لا ينبغى أن تُتَناوَل بهذه الطريقة العامية التى تكتفى بسوق المزاعم والادعاءات دون أن تشفعها بالدليل، وكأن العلم يقوم على الأمانى والأوهام التى تعشش فى رؤوس بعض الناس، وليس منهجا صارما يخضع له البحث خضوعا مطلقا. أليس عجيبا أن يكون هذا هو أسلوب د. نوال السعداوى، التى تكثر من الحديث عن العلم والمنهج العلمى؟

كذلك كيف عرفت د. السعداوى (ص١٨١– ١٨٢) أن الرجل لم يكن يشعر بأبوته لأبنائه إلا بعد أن يكبروا ويصيروا نافعين اقتصاديا وأنه كان يقتلهم أو يستعبد الذكور منهم ويعاشر البنات جنسيا،

وأن أطفاله كانوا يكرهونه ويُقْبِلون على أمهم ويبتعدون عنه، وأن المرأة كانت تعطى بلا حدود ودون انتظار لمقابل؟ نعم كيف عرفت السعداوى ذلك، وهى لم تكن تعيش فى تلك الفترة، وليس بين أيدينا وثائق بهذا الذى تزعم أنه قد حصل؟ الحق أنه ليس فى يد الكاتبة إلا الهلاوس التى لا تغنى عن الحق شيئًا . والغريب أنها بعدما قالت إن الأب كان يعتدى على الأولاد والبنات لم تذكر إلا ظلمه للمرأة، أما الذكور فلم تذكر عن ظلمه لهم شيئًا . وهذا بافتراض أن الأمر كما قالت، وهو ما لا دليل عليه بتة. هذا ما قالته هنا، لكنها فى موضع آخر من الكتاب (ص٢٦٧) تقول شيئًا آخر مؤداه أن الرجل إذا ما تُرِك لفطرته أحب بناته، إلا أن المجتمع وأوضاعه هى التى تجعله يكرههن رغم أنها قالت قبلا إن الرجل لم يكن يحب حتى أولاده الذكور، وإنه قد أخذ وقتا طويلا حتى شعر بالأبوة، وإن الأولاد والبنات لم يكونوا يحبونه، بل يحبون أمهاتهم فقط.

وتقول نوال السعداوى (ص١٧٨- ١٧٩) إن بعض الرجال يحنون إلى القيام بدور الأم، وهو حنين ناتج عن حسد الرجل للمرأة لتمتعها دونه بالأمومة والحمل والولادة كما تقول. والواقع أنه لا دليل على هذا الذى تقول، ورغم ذلك فإنها تتخذ من هذا الحنين المزعوم تكأة لإيهامنا بأن الرجل كان قديما أضعف من المرأة. والرجال، بحمد الله، أكثر من الهم على القلب فى كل مكان، ومن الممكن سؤالهم عن حقيقة هذه الدعوى، وأنا متيقن أنهم سوف ينكرونها جميعا . وأنا، بوصفى رجلا، أستطيع أن أقسم بالله إننى لا أريد أن أكون شيئًا آخر غير ما خلقنى الله عليه، لا احتقارا للمرأة، بل لأن كل إنسان راضٍ بالنوع الذى خلقه الله عليه، اللهم إلا ندرة من الرجال والنساء تضغط عليهم ظروفهم وتجعلهم يبغضون وضعهم ويريدون تغييره. إلا أن هؤلاء ليسوا ذوى ظروف طبيعية بحيث يمكن اتخاذهم دليلا على ما تقوله السعداوى، التى تقصد أن الحنين إلى التحول إلى امرأة هو رغبة عند كل الرجال. والطريف أنها نسيت أن تقول لنا: كيف يا ترى تستمر الحياة إذا ما تحول الرجال جميعا فصاروا نساء؟ والواقع أن هذا السؤال وحده كفيل بهدم دعواها المضحكة تلك!

وأخيرا ففى الوقت الذى رأيناها تقول إن "معظم علماء التاريخ والأنثروبولوجيا فى العالم يجمعون على أنه فى المجتمعات الإنسانية البدائية كانت للأنثى قيمة إنسانية واجتماعية وفلسفية أكثر من الذكر" نجدها لا تذكر لنا أسماء أحد من هؤلاء "المُعْظَم" . لماذا؟ لأن الأمر عندها لا يعدو أن يكون كلاما فى كلام. ولنفترض أن معظم العلماء من مؤرخين وأنثروبولوجيين قد قالوا ذلك فالواقع أنهم لا يعتمدون، فيما يقولون، على دليل. إن هو إلا التخمين فحسب، وفى ميدان العلم لا ينفع التخمين شيئًا ، اللهم إلا

إذا كان افتراضا ينطلق منه العالم إلى التثبت والتحقق. أما إن وقف عنده لا يعدوه فليس من العلم فى شىء.

وفى "موسوعة الماركسية" المشباكية، وتحت عنوان "النظام الأمومى" نقرأ تعريف هذا النظم على النحو التالى: "مرحلة تاريخية في تطور المجتمع المشاعي البدائي حيث كانت الأم تمثل الدور المسيطر في الاقتصاد الاجتماعي. وقد وُجد النظام الأمومي بين جميع الشعوب بلا استثناء. فخلال المراحل الدنيا من التطور الاجتماعي عندما كان الزواج الجماعي هو القاعدة لم يكن معروفا من هو أبو الأطفال، فكانت الأم وحدها معروفة. ولهذا لم يكن من الممكن أن يُنْسَب النسل إلا إلى جانب الأم، وكان الاعتراف فقط بالصلة الأنثوية. وكان الاقتصاد القبلي كله في أيدي النساء. فلم يكن الصيد، وهو حرفة الرجال، يوفر وسيلة للعيش يعول عليها. وفي البداية كانت النساء عموما هن اللاتي يقمن بالعمل الزراعي المنتج، وكانت رعاية الأطفال والبيت وتوفير الزاد والعمل في الحقل والطهي... إلخ من وظائف النساء. ومع ظهور تربية الماشية بدأ دور المرأة في الهبوط، وأصبح الرجل القوة المنتجة الرئيسية في المجتمع، ومالك وسائل الانتاج والماشية، وبعد ذلك مالك العبيد، ومن ثم أصبح رأس الجماعة".

ولنفترض أن ما تقوله المادة صحيح، وهو مجرد تخمينات، وإن حاول محررها أن يبدو كلامه علميا مقطوعا به، وهو فى الحقيقة ليس كذلك، فهل تريد الكاتبة أن نعود إلى الوراء ونعتنق هذا النظام الذى يقوم على المشاعية الجنسية بحيث لا يعرف الأبناء لهم أبا، فيضطر المجتمع إلى نسبتهم لأمهاتهم؟ وهذا لو كان من المتيقن دائما معرفة أم الرضيع، إذ سبق أن بينت أن هذا أمر غير مقطوع به دائما. وهذا أيضا لو كان الرجوع الآن إلى ذلك العصر بأوضاعه البدائية ممكنا بعد كل هذا التقدم الحضارى وتغير الظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية... إلخ، وهو ما لا يمكن أن يكون. ولنلاحظ أن المحرر يتحدث عن أوضاع تلك المرحلة وكأنه كان يعايشها ويعرف من ثم كل شىء فيها. وهذا بطبيعة الحال غير صحيح، إذ لم يعش أى من الأنثروبولوجيين إلا فى عصرنا، وليس هذا الذى يكتبونه وينشرونه سوى تخمينات، أو فى أحسن الأحوال: فروض لم تخضع للتمحيص لأنها ليست تجربة علمية تخضع لسيطرة المجرِّب ويستعين على التحقق من صحتها بالآلات العلمية الدقيقة، بل هى أمور تاريخية ذهبت فى الزمان الأول، ولا يمكن استرجاعها ووضعها تحت الملاحظة والتأمل. ثم هل هذا النظام البدائى هو النظام المثالى الذى تتطلع إليه البشرية وترغب فى استعادته، أو على الأقل: أفضل من أنظمتنا الحالية؟

كما أن ما تقوله المادة غير مجمع عليه حتى بصفته تخمينا وفرضا، بل هو أمر مختلف حوله. ويمكن القارئ الرجوع مثلا إلى مادة "Patriarchy" فى النسخة الإنجليزية من موسوعة "الإنكارتا"

(ط٢٠٠٦م)، ولسوف يجد اختلاف الآراء فى ذلك، وأن الرأى الغالب يؤكد أن نظام المجتمع والأسرة الذى كان ولا يزال معروفا هو النظام الأبوى. ثم هأنذا أنقل للقارئ مادة "Matriarchy" فى ط٢٠١٠م من "الموسوعة البريطانية" كاملة. وفيها أن النظام الأمومى نظام اجتماعى افتراضى، وأنه خَطَرَ لطائفة من علماء القرن التاسع عشر تأثرا بما قاله داروين عن التطور البيولوجى للإنسان، إذ أرادوا أن يقولوا إن هناك تطورا ثقافيا أيضا . وقد صار الاتجاه الآن هو القول بأن الأمومية بالمعنى التطورى لم توجد قط فى يوم من الأيام، وإن كان بعض العلماء لا يزالون يستخدمون هذا المصطلح لأغراض تعليمية أو تحليلية أو وصفية:

"Hypothetical social system in which the mother or a female elder has absolute authority over the family group; by extension, one or more women (as in a council) exert a similar level of authority over the community as a whole.

Under the influence of Charles Darwin's theories of biological evolution, many 19th-century scholars sought to formulate a theory of cultural evolution. The theory known as unilineal cultural evolution, now discredited, suggested that human social organization “evolved” through a series of stages: animalistic sexual promiscuity was followed by matriarchy, which was in turn followed by patriarchy. The American anthropologist Lewis Henry Morgan, the Swiss anthropologist J.J. Bachofen, and the German philosopher Friedrich Engels were particularly important in developing this theory.

The consensus among modern anthropologists and sociologists is that while many cultures bestow power preferentially on one sex or the other, matriarchal societies in this original, evolutionary sense have never existed. However, some scholars continue to use the terms *matriarchy* and *patriarchy* in the general sense for descriptive, analytical, and pedagogical purposes".[1]

ونقرأ فى نفس المادة فى النسخة الإنجليزية من موسوعة "ويكبيديا" ذات الكلام:

"In 19th century Western scholarship, the hypothesis of matriarchy representing an early stage of human development—now mostly lost in prehistory, with the exception of some so-called primitive societies—enjoyed popularity. The hypothesis survived into the 20th century and was notably advanced in the context of feminism and especially second wave feminism, but this hypothesis of matriarchy as having been an early stage of human development is mostly discredited today, most experts saying that it never existed".

---

١ انظر كذلك Tim Ingold, Companion Encyclopedia of Anthropology, Routledge, 2003, PP.1023- 1033

وفى مادة " Bachofen (Johann Jakob)" من "الموسوعة اليونيفرسالية" نقرأ عن باخُوفِن وما كتبه عن تطور المجتمعات الإنسانية من نظام المشاعية الجنسية إلى النظام الأمومى إلى النظام الأبوى ما يلى: " L'ethnologie contemporaine peut, à juste titre, lui reprocher sa périodisation de l'histoire (promiscuité primitive/droit maternel/filiation patrilinéaire), d'avoir faussement rapporté l'évolution des structures de la parenté à une ligne unique, d'avoir confondu, enfin, matriarcat et filiation maternelle".

ويقول د. شاكر مصطفى سليم عن الـ"Matriarchy" ما نصه: "نظام سلطة الأم: نظام يُظَنّ أنه وُجِد فى المراحل الغابرة من حضارة الإنسان كانت النساء فى ظله يمارسن السيطرة على المجتمع أو الجماعة الاجتماعية لأن الخلط الجنسى والزواج الجماعى، النظامين اللذين كانا سائدين، جعلا علاقة الفرد المعروفة بأمه، وليس بأبيه، فترتب على هذا أن يكون النسب أميا وليس أبويا، فأصبحت الأم الشخص الأهم فى العائلة. وقد قال بهذا الرأى باخوفن وماكلينان وموركن، وخالفهم آخرون..."[1].

والعجيب، وموضوع كتابها هو المرأة، أن تقول نوال السعداوى (ص١٤٦) إن المرأة لا يفهمها الرجل على الإطلاق: لا الزوج ولا الأب ولا الأخ ولا الخطيب ولا الحبيب ولا الرئيس ولا المرؤوس ولا الأستاذ ولا حتى الطبيب النفسى الذى يعالجها... أى أن المرأة مشكلة فى حد ذاتها غير قابلة للفهم[2]. فإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن تكون المرأة موضوعا للدراسة؟ هل يمكن أن ندرس شيئًا غير قابل للفهم؟ أم تراها تريد أن تقصر دراسة المرأة على النساء فقط؟ لكنها لا تقول ذلك. إذن ماذا تريد نوال السعداوى؟ لا أظن أحدا بمستطاعه الإجابة على هذا السؤال، وبخاصة إذا عرفنا أنها لا تقول شيئًا معقولا فى كتاباتها. إنها تدعى الادعاءات التى لا يسندها أى برهان، ولا يمكن التحقق منها. كما أنها تتناقض من سطر إلى سطر ولا تبالى، وكأنها لم تفعل شيئًا غير أَنْ أخذت نَفَسًا. هل هذا معقول؟ بل إنها لتستشهد، كما رأينا، بالمؤرخين والأنثروبولوجيين لإثبات فكرتها الغريبة بغض النظر عما فى كلامها من حق أو باطل، وهؤلاء المؤرخون والأنثروبولوجيون جميعهم، أو أغلبيتهم الساحقة

---

[1] د. شاكر مصطفى سليم/ قاموس الأنثروبولوجيا– إنكليزى عربى/ جامعة الكويت/ ١٩٨١/ ٦٠٨.

[2] وبالمناسبة فإنها (ص٢١٤– ٢١٥) تأخذ على فرويد أن نظرياته عن المرأة قد فشلت فى فهمها. ولا أدرى معنى لموقفها ذاك ما دامت قد أكدت أن المرأة كائن غير مفهوم من الرجل أيا كان، أى سواء كان فرويد أو غير فرويد. ثم ألم تقل أيضا إنه ليست هناك حقيقة ثابتة؟ فكيف تخطِّئ فرويد أو أى رجل بسبب عجزهم عن فهم المرأة بما يفيد أن هناك حقائق ثابتة؟

على الأقل، من جنس الرجال، الذين تقول إنهم لا يستطيعون فهم المرأة مهما كانت درجة قرابتهم أو اقترابهم منها .

ومنذ وقت مبكر فى الكتاب تعلن د . نوال السعداوى عن غايتها من الدعوة إلى تحرير المرأة من الظلم الواقع عليها حسبما تقول، مؤكدة (ص١٥٢) أن حرية المرأة التى تهدف إليها هى حرية المساواة الكاملة مع الرجل، وليست الحرية الجنسية فقط . ومعنى هذا أن الحرية الجنسية هى جانب من جوانب هذه الحرية التى تهدف إليها من كتابها . فهل هناك من الرجال فى عالمنا العربى والإسلامى من يقولون بأنهم يريدون لأبناء جنسهم حرية جنسية؟ بطبيعة الحال هناك كثير من الرجال المنحرفين الذين لا يلتزمون العفة فى سلوكهم الجنسى، ومع ذلك فحين يريدون أن يتزوجوا نراهم يبحثون عن فتاة عفيفة لم تفعل ما فعلوه هم قبل الزواج. لكنى لا أتكلم هنا عن السلوك والتصرفات، بل أتكلم عن المبادئ التى يدعو إليها الرجال. وفى حدود علمى لا يدعو رجالنا بدعوة الحرية الجنسية كى تقول الكاتبة إنها تريد للمرأة نفس الحرية الجنسية. وهذا إذا لم يكن سلوك المرأة هو نفس سلوك الرجل فى هذا المجال، وإلا فمع من يمارس الرجال انحرافاتهم؟ أليس مع النساء ؟ إذن فالرجل والمرأة فى دنيا الواقع متساويان. وما دام الرجال لا يقولون بالحرية الجنسية لأنفسهم، فلماذا تطالب السعداوى بهذه الحرية لبنات جنسها ؟ بل من أنابها عنهن تتحدث بلسانهن؟

ليس هذا فحسب، بل نراها (ص٢٦٧) تهاجم الزواج فى كل أنحاء العالم لأنه، ضمن أشياء أخرى، يمنع المرأة من ممارسة الجنس خارج الزواج، فيستعبد المرأة ويملّكها للرجل. ثم إنها فوق ذلك تزعم (ص٢٠٥) أن من بين مظاهر استقلال المرأة وقوة شخصيتها أنها بدأت تدخن وتشرب وتسهر خارج البيت بعدما اشتغلت كالرجل خارج هذا البيت. تقول هذا وكأن الشرب والتدخين والسهر خارج البيت ميزات ينبغى أن تتساوى فيها المرأة مع الرجل، مع أن هذه الأشياء تضر بالصحة. وإذا كان كثير من الرجال يفعلها فهذا ليس دليلا على أنها شىء طيب ينبغى أن تحرص المرأة على تقليده فيه. ومعروف أن الغالبية من الرجال لا يشربون ولا يدخنون، وكثير جدا منهم لا يحبون السهر خارج البيت. ومن ناحية أخرى يمكن أن يتخذ بعض الرجال من ذلك دليلا على أن المرأة لا تحسن التفكير المستقل، بل تتابع الرجل فى كل شىء حتى فيما هو ضار، متصورة أنه شىء لا بد منه لإثبات استقلال شخصيتها . وهذه مفارقة عجيبة كما نرى. ذلك أنه من المضحك أن يحاول شخص إثبات استقلال شخصيته من خلال تقليد غيره الذى يعلن أنه مستقل عنه. كيف ذلك؟ علم هذا عندكاتبتنا، التى تتناقض من سطر إلى سطر، وليس فى كلامها فكرة واحدة محكمة منضبطة.

وكانت نوال السعداوى، فى سبيل إيهام القراء بفكرتها النيئة، قد زعمت (ص١٥٣) أنه ليس هناك أى دليل علمى على أن المرأة أقل من الرجل عقليا ولا فسيولوجيا، وأن القول بغير ذلك هو من تأثير السلطة الأبوية التى تملك الزوجةَ والأولادَ كما تملك قطعة أرض. ولكن من أين يا ترى أتت بهذا الكلام العجيب؟ ترى هل يملك الأب أفراد الأسرة؟ فما مظاهر هذه الملكية؟ وما نتائجها؟ ثم هل تفوُّق الرجل على المرأة عضليا أمر تمكن السفسطة فيه؟ هل تستطيع المرأة أن تحمل من الأثقال ما يحمله الرجل؟ هل تستطيع أن تسوق الحافلة والقطار والطائرة والغواصة والرافعة ووابور الزلط بنفس الكفاءة التى يسوقها بها الرجل؟ ترى هل يمكنها أن تحارب كما يحارب هو، وتخوض المعارك الطاحنة كما يخوض هو، وتطلق المدافع والصواريخ وتلقى بالقنابل كما يفعل هو؟ ترى هل يمكنها تكسير حجارة الجبال كما يكسّر هو؟ وهل يمكنها أن تشتغل بإنقاذ الغرقى والمدفونين تحت الأنقاض كما يشتغل هو؟ ثم هل لها من الإنتاج الفكرى والأدبى مثل ما له هو؟ بل هل اشتهرت بالطباخة وتصميم الأزياء كما اشتهر هو؟ وهل تؤدى كل العمليات الجراحية كما يؤدى هو؟ فلماذا إذن المناطحة والمعاندة، وكأننا فى حرب عَوَانٍ بين الرجال والنساء، ولسنا فى مجال تعاون وتناصح واحترام متبادل؟

ومن تخبطاتها التى لا تنتهى قولها (ص١٥٨) إن المرأة كان لها فى العصور الأولى نفس الحقوق التى للرجل، ذاكرة من بينها انتساب الطفل إليها. كيف ذلك؟ هذا ما لا أدريه، لأنها قالت قبل ذلك إنه كان ينتسب إلى أمه. فما معنى ارتدادها عن ذلك الكلام والقول بأنه كان ينتسب إلى الاثنين معا؟ والعجيب أنها تقول فى نفس الموضع إن المرأة كانت لها المكانة الأولى طبيعيا. كيف ذلك مرة أخرى إذا كانت متساوية كما تقول مع الرجل؟ واضح أنها تتخبط. ثم إنها (ص١٥٩) تتهم الأديان السماوية بأنها هى السبب فى تأخير مرتبة المرأة من الأولى إلى الأخيرة. ونراها تخطئ هنا خطأً فاحشا بالزعم بأن اليهودية هى أول ديانة سماوية، إذ المعروف أن هناك ديانات سماوية سابقة على اليهودية، بل منذ الإنسان الأول حسب القرآن. إلا أننا نفاجأ بها بعد قليل (ص١٥٩) تزعم أن القيم التى كانت سائدة لدن نزول الرسالة على موسى كانت تقوم على ملكية الأرض والعبيد والأطفال والنساء. أى أن وضع المرأة قبل الأديان كان سيئًا جدا، وليست الأديان هى التى تسببت فى سوء وضعها على عكس ما تزعم. ثم أين هذا يا ترى فى الكتاب المقدس، وبأيدينا ذلك الكتاب، وهو يؤرخ لمسيرة اليهود كلها، وليس فيه بتاتا شىء من ذلك التخبط الذى تتخبطه، وإلا فعلى أى مصدر آخر اعتمدت فى كتابة هذا الكلام؟

والعجيب أيضا أنها تقول كذلك، وبنفس الجرأة والتهور (ص١٨٠)، إن الأسرة نشأت بعد ظهور الملكية الخاصة التى صاحبت سيادة الرجل. ومعنى هذا أنه لم تكن هناك أسرة قبل سيادة الرجل،

وبوجه أحرى: لم تكن هناك أسرة أمومية على عكس ما تقوله بطول الكتاب وعرضه، إذ ما معنى الطنطنة بالنظام الأمومى؟ معناه أنه كانت هناك أسرة، ولكن برياسة امرأة. أما هنا فالسعداوى، تبعا للعالم وورد، تقول إن الأسرة لم تظهر إلا فى الوقت الذى كانت السيادة فيه للرجل. ومعلوم أن النظام الأسرى الذى يتمتع فيه الرجل بالسيادة لا يزال هو القائم حتى الآن. أى أنه لم تكن هناك أسرة أمومية. فانظر كيف تنسف نوال السعداوى كل ما تريد أن تثبته فى هذا الكتاب. ذلك أنها، كما قلت وأقول وسأقول، لا تتمتع بفكر منضبط محكم، بل كلما عنت لها خاطرة اندفعت إليها وسجلتها وأخذت تنافح عنها كأنها أتت بالذئب من ذيله، ثم سرعان ما تخطر لها خاطرة أخرى فتندفع تنافح عنها . . . وهكذا دواليك. والعجيب أنها لا تأتى بشىء من عندها، بل تعتمد على النقل من هنا ومن ها هنا دون أن يكون بين ما تنقله تناغم وانسجام، إذ هى تفتقر إلى العقل النقدى الصاحى، بل تدخل موضوعها وفى ذهنها فكرة مسبقة تريد تسويقها، ثم لا تبالى بأى شىء آخر. وقد نقلتِ الفكرة السابقة عن العالم وورد كما سلفت الإشارة.

وهى تقول أيضا (ص١٥٩) إن آدم قد ألف قصة الخلق سالبا لنفسه عملية الولادة من حواء، إذ جعلها تولَد منه لا العكس، وعن طريق ضلعه لا عن طريق رحمه لأنه ليس له رحم. ولكن كيف كانت السعداوى تريده يولد من رحمها، ولم يكن هناك رجل قبل آدم يعاشرها حتى تلد آدم؟ وهل كانت حواء موجودة حتى يسلبها آدم الولادة؟ إن الكلام كله مضطرب أشد الاضطراب، ولا يستطيع العقل متابعته بسهولة لأنه يحتاج إلى عقل بهلوان. ثم أنسيتْ نوال السعداوى أن دور آدم فى مجىء حواء إلى الوجود، حسب الحكاية التى تعتمد عليها هنا، هو دور سلبى، إذ أوقع الله عليه السُّبَات، ثم خلقها من ضلعه؟ كذلك فهو لم يخلق نفسه. ثم إنها، بعدما قالت إن المرأة مولودة حسب العهد القديم من آدم، تنقلب فتزعم (ص١٦٠) أنها، حسب الديانة اليهودية، مخلوقة من سلالة الحيوانات والشياطين، أما الرجل فعقله جزء من الذات الإلهية. إلا أنها لم تورد، لشديد الأسف، أى مرجع، بل ألقت بكلامها المضحك ومضت خفيفة الضمير كأنها لم تقترف شيئا. وهذه هى المنهجية العلمية التى صدعتنا بها. أو لعلها حقائق العلم التى لا تعرف الثبات كما تقول، بل تنزل على نزوة الباحث وتتشكل حسبما يريد له هواه.

ثم تتحدث (ص١٦٠) عن المرأة باعتبار آخر هو أنها، كما تقول، قد وقفت فى وجه السلطة الكنسية، فاستحقت العقاب الظالم. تقصد النساء اللاتى اتهمتهن الكنيسة بممارسة السحر وعذبتهن وأحرقتهن، ناسية أن الرجال قد وقفوا أيضا ضد الكنيسة وحاربوا الخرافات التى كانت تلقنها أتباعها الجهلاء فى العصور الوسطى ولا تسمح لأحد بالخروج عليها أو مجرد مساءلتها، ودفعوا بسبب هذا

الموقف ثمنا فادحا، ولكن لغاية أسمى، وهى اكتشاف القوانين العلمية والمناداة باحترامها بدلا من السحر، الذى كانت تمارسه النساء فى ذلك الوقت. كذلك تصور كاتبتنا الساحرات بوصفهن نساء شديدات الذكاء يتمردن على خرافات الكنيسة أو يتوصلن إلى أدوية غير معروفة للكنيسة لشفاء الأمراض (ص١٦٠– ١٦٢). فهل كانت الساحرات فعلا كذلك؟ الواقع أنهن لم يكنَّ يتميزن على الكنيسة فى شىء، إذ كلا الطرفين كان يدعم الخرافة، ولكن بطريقته. ثم تستمر المؤلفة فتقول إن بعض العلماء قالوا إن "الساحرة الشريرة" هى رائدة الطب الحديث، إلا أن العلماء، ومعظمهم من الرجال، قد أسدلوا على الحقيقة ستارا كيلا يعرف الناس أنها طبيبة. لكن أليس الذين قالوا إنها رائدة الطب الحديث رجالا أيضا؟ أليس يرى القارئ أن السعداوى تريد اتهام الرجال وتشويه صورتهم، والسلام؟ وهذا إن كانت السواحر فعلا طبيبات، ولو شعبيات، يصفن الأدوية التى من شأنها التخفيف عن المرضى. وهو ما لم تقدم لنا الكاتبة شيئًا يقنعنا به سوى المزاعم التى لا تقدم ولا تؤخر. والمزاعم فى دنيا العلم لا تساوى شَرْوَى نَقِير، وإلا فأجهل الجهلاء يستطيعها بكل سهولة، ولا تكلفه شيئًا البَتّة.

والواقع أن من وقف ضد الكنيسة فى تلك العصور هم الرجال العلماء الذين خرجوا على ما تردده الكنيسة من خرافات متخلفة عن العالم واستعملوا عقولهم وآلاتهم العلمية لاكتشاف حقائق الكون، فأحرقتهم الكنيسة وعذبتهم عذابا بشعا لا يتحمله بشر. بيد أن نوال السعداوى تعتّم تماما على تلك الحقائق التى يعرفها كل من درس تاريخ أوربا حتى لا تعترف للرجال بأى فضل. ولعل مما يرفه عن القارئ معرفته أن نوال السعداوى عادت فى موضع آخر من الكتاب (ص٢٧٢) فقالت عن الساحرات فى العصور الوسطى إنهن كن زوجات مخالفات لأزواجهن فاتُّهِمْن بالسحر وقُتِلن! وكانت قد قالت، كما ذكرنا قبل قليل، إنهن كن طبيبات رائدات، وإن هذا هو سبب ضيق رجال الكنيسة لا الأزواج بهن. أليس هذا ما يسمونه: سمك لبن تمر هندى؟

ومن ذلك الوادى قولها إنه من بين الدلائل على ظلم المرأة أنهم يطلقون "الهستريا" على الاضطراب العقلى، وهو مصطلح مأخوذ من "الرحم" لأنهم فى اليونان كانوا يعتقدون أن الهستريا سببها اضطرابات فى الرحم (ص١٦٢– ١٦٣). لكن هذا خطأ علمى سببه ما لوحظ من أن الإصابة بالهستريا تكثر بين النساء، وظن الأطباء فى البداية أنه راجع إلى اضطراب فى وظائف الرحم[١]، ولم

---

[١] يقول قاموس أكسفورد التاريخى: "Women being much more liable than men to this disorder, it was originally thought to be due to a disturbance of the uterus and its functions. ومعنى المصطلح فى اللاتينية واليونانية "ألم فى الرحم أو يتعلق بالرحم": L. hysteric-us, ad. Gr. ὑστερικ-ός belonging to the womb, suffering in the womb".

يكونوا يقصدون الإساءة إلى النساء من حيث هن نساء، وإلا لقال الملوك إنهم هم أيضا مظلومون لتسمية آلام المفاصل الناشئة عن كثرة أكل اللحوم بـ"داء الملوك"، وهو النّقْرس (Gout). ولا أحد من العقلاء يمكن أن يطوف برأسه هذا الخاطر، فضلا عن أن يجعله محلَ شَكوى. ثم ما ذنبنا نحن فى إطلاق مصطلح "الهستريا" على ذلك النوع من المرض؟ إن هذا مصطلح أوربى، أما مصطلحنا نحن فهو "الهرَع" أو "الهُرَاع"، ومعناه الفزع، ولا صلة له بالرحم أو المرأة من قريب أو بعيد، بل هو مصطلح محايد. ولو كان صياغة هذا المصلطح انعكاسا لكراهية الرجال للمرأة لوجدنا كل اللغات تترجمه ترجمة حرفية. كما كان بإمكان النساء فى أوربا حيث صيغ المصطلح الذى تراه السعداوى مسيئًا للنساء أن يجدن مصطلحا آخر لا يحمل فى طياته أية إساءة لهن، وبالذات فى العصر الحديث، الذى يمكن المرأة فيه أن تفعل ما تريد وتعترض على ما تشاء. ولكنهن لم يفعلن، فعلام يدل ذلك؟

وكأن هذا غير كاف عند د. السعداوى، إذ نراها (ص٢٥٨) تُرْجِع انتشار الهستريا بين النساء إلى الظلم الواقع عليهن، وكأن الهستريا مرض نسائى لا يصاب به الرجال! بل يصل الهوس الفكرى أن تُصَوِّر المجتمع على أنه مكون من طبقتين: طبقة الذكور، وهم السادة الظالمون، وطبقة الإناث، وهن الإماءَ المسحوقات. ومن المضحك أنها (ص١٧٢)، حين تعيب طريقة علاج بعض الأمراض النفسية عن طريق الصدمات الكهربية، تتحدث عن الموضوع بما يوهم القراء بأن النساء وحدهن هن اللاتى يعالَجن بهذه الصدمات، رغبة منها فى اتهام الرجال بظلم المرأة وتعذيبها دون طائل، وكأن الرجال المرضى لا يعالجون هم أيضا بهذه الطريقة. لكن قاتل الله التحيز، وبخاصة إذا صدر ممن يشقشقون بالمنهجية العلمية والرغبة فى الوصول إلى الحقيقة.

ومما تقوله السعداوى أيضا لإيهام القراء بأفكارها التى تفتقر إلى أى دليل قولها (ص١٨٦ وما بعدها) إن الرجل البدائى قد وجد أن المرأة تظل مثارة جنسيا طوال الشهر مما لم يكن على استعداد لمواجهته فشغلها بالأولاد والحمل وما إلى ذلك كيلا تزعجه بمطالبها الشهوية، وكأنه كان من الممكن ألا تحمل المرأة فى تلك العصور حيث لم تكن البشرية قد تقدمت علميا وطبيا بحيث تستطيع تصنيع حبوب منع الحمل وما أشبهها، أو كأن المرأة لا تتوق بفطرتها إلى الحمل والولادة. والغريب أنها تقول أيضا إن كثرة الحمل يزيد شهوة المرأة. فأى تناقض هذا؟ وأغرب من ذلك أن تقول إن الأبناء من أولاد وبنات كانوا يؤثرون أمهم على أبيهم ولا يهتمون به، وهو ما كان يزعجه ويغيظه. فهل كان يعمل إذن على أن يظل غضبان مغتاظا بدفع المرأة إلى مزيد من الحمل والولادة اللذين ينتج عنهما مزيد من الأولاد والبنات يكرهونه ويفضلون أمهم عليه؟ ثم تعود فتقول إن الولادة الأولى كثيرا ما تؤدى إلى برود جنسى لدى

المرأة، وهو ما يتناقض مع ما قالته من أن الحمل بطبيعته يزيد من شهوة المرأة. ثم هل الرجل مسؤول عن ذلك، وكان يقصده حين عمل طبقا لكلامها على شغل المرأة بالحمل والولادة؟ أم ماذا تريد السعداوى بالضبط أن تقول؟

ثم تنقل الكاتبة عن بعض الكتاب (ص١٩٣) أن شهوانية المرأة الشديدة لم تخلق لتتكيف مع الأوضاع الحضارية التى تفرض على المرأة الاكتفاء بزوج واحد، هذا الاكتفاء الذى فرضه الرجل على المرأة وأعفى منه نفسه. ولكن السعداوى قد نسيت، فيما يبدو، أن توضح لنا لم استسلمت المرأة للرجل رغم أنها، كما أكدت مرارا، كانت أقوى منه، وكانت كل الظروف فى صالحها بما فيها الأولاد الذكور حسبما تزعم، مما يعنى أن الرجل الصغير (الذى هو الولد) كان يقف ضد نفسه ومع المرأة. يبدو لى أن ما قالته الكاتبة عن ضرورة تعدد الأزواج للمرأة هو الهدف من كل كلامها الكثير المسبب للصداع عن الأورجازم عند المرأة (ص١٩٥)، فضلا عن رغبتها فى إثبات أن الرجل ليس هو المحتاج إلى أكثر من زوجة، بل المرأة. ومن الواضح أنها (ص١٩٤) مع إطلاق الحرية الجنسية للمرأة وضد تكوين أسرة لأنها ترى أن تكوين الأسرة هو من متطلبات الرجل، أما المرأة فكانت مشتعلة الرغبة لا تريد الاكتفاء برجل واحد تلتصق به وتكوّن معه أسرة، بل تريد إشباع شهوتها فقط. وهى تثنى على ما كان بعض الجاهليين يزاولونه من زواج الاستبضاع وزواج المشاركة، وهو الزواج القائم على تعدد الأزواج، بوصفه لونا من ألوان التحرر الجنسى ينبغى أن يشاد به (ص٢٧٣) رغم أن الاستبضاع هو دليل على حِطَّة الرجل الذى يأمر زوجته بممارسته، ورغم أن تعدد الأزواج ما هو إلا دعارة صريحة لم يكن يمارسها إلا الأوباش من العرب ممن لا كرامة لهم ولا شرف. كما غفلت، بسبب جهلها، عن أن الاستبضاع ليس زواجا بل لونا من الدياثة. وعلى أية حال كيف عرف العلماء الذين تستشهد بهم نوال السعداوى أن نظام المجتمع كان أنثويا، وأن المرأة كانت مشتعلة الشهوة طول الوقت، وأن ذلك لم ينته إلا بقمع الرجل لها؟ أجل، كيف عرفوا ذلك، وليس هناك أى معلومات عن تلك العصور؟ الغريب أنها تعود (ص١٩٥)، بعدما قالت إن الدراسات التى قام بها العلماء هى التى أثبتت هذا، فتقول إن ما ذكرته يمكن أن يكون صحيحا أو غير صحيح.

ورغم كل ما صدعتنا به نوال السعداوى عن شبق المرأة وعدم اكتفائها برجل واحد لولا أن الرجل قد أجبرها على ذلك إجبارا، نراها (ص٢٨٤– ٢٨٥) تتكلم عن ظاهرة البغَاء على أنها نتاج السلطة الأبوية، ناسية أنها قالت إن المرأة فى المجتمع الأمومى كانت شَبَقَة لا تكتفى برجل واحد. ترى ما الفرق بين البغَاء وبين هذا الشَّبَق؟ أليست المحصلة هى أن امرأة واحدة تعاشر رجالا متعددين؟ ثم

لماذا تعيب السعداوى البغَاء إذا كانت لا ترى فى تعدد الأزواج أية معابة أو غرابة؟ وهى تظن (ص٢٨٦) أن البغاء لا تمارسه سوى النساء غير المتزوجات، ومن ثم فلو تزوجت كل النساء لما كان هناك بغاء فى رأيها . وكعادتها تمسح كل هذا فى النظام الأبوى[١] . هل هناك هزل أكثر من ذلك؟ إن كثيرات جدا من البغايا متزوجات أو لهن عشاقهن، ولا يمنعهن وجود الرجل فى حياتهن من ممارسة البغاء . وحتى لو لم يكن هناك بغاء أليست هناك الخيانة الزوجية من جانب المرأة، والخيانة لون من البغاء، وإن كان مقيدا ؟ كذلك تقول إن البغاء كان ثمرة إكراه الرجال للنساء على ممارسته. لكنها، كعادتها فى ارتكاب التناقضات الفِجَّة، تسارع فتذكر (ص٢٨٨) أن الإمبراطور قسطنطين هو الذى ألغى البغاء المقدس. فلماذا ألغاه هذا الأحمق إذا كان وجوده يكفل المتعة له ولسائر بنى جنسه من الرجال؟ ومن يا ترى ألغى البغاء فى كل مكان كان فيه بغاء؟ أليسوا هم الرجال، الذين تعمل نوال السعداوى فى كل ما تكتب على تشويههم وتلويثهم، والذين تتهمهم بأنهم هم الذين يُكْرِهون النساء على مزاولته؟

ومن آرائها التى لا تقنع أحدا قولها (ص٢٩٢) إن الأب يعترف بابنه من زوجته، لكنه لا يعترف بابنه من عشيقته بسبب أن الميراث فى ظل النظام الأبوى لا ينبغى أن ينتقل إلى أحد من خارج مؤسسة الزواج. والواقع أننى لا أستطيع أن أقتنع بهذا الذى تقوله نوال السعداوى، إذ ما الذى يضير ذلك النظام إذا ورث الولد غير الشرعى من أبيه؟ ثم إن هذا الولد يرث من أبيه الفراشى، أى الزوج الذى خانته زوجته وأتت بولد ليس من صلبه ونسبته إليه[٢] . الحق أن ما يمنع الأب من الاعتراف بابنه غير الشرعى هو نفسه ما يدفع المرأة إلى إنكار أمومتها له: الفضيحة! بل إن هناك نساء يرفضن الحمل والإنجاب لأنه يفسد جمالهن. أليست هذه أنانية أيضا ؟ أم إن الأنانى هو الرجل وحده، الذى تقول السعداوى إنه لا يعترف بأبنائه غير الشرعيين؟

ومضيا فى سياسة العناد والتمرد غير العلمى أو الواقعى تحاول د . نوال السعداوى (ص١٩٦-١٩٧) إيهام القارئ بأن إحساس الفرد بذكورته أو أنوثته إنما يتوقف على معاملة الأسرة له، متجاهلة أن

---

[١] ومن العجيب، وكل ما تقوله نوال السعداوى أو تكتبه عجب فى عجب، تأكيدها (ص٢٩٠) أن البغاء قد انقرض تماما من المجتمعات الاشتراكية رغم أن هذه المجتمعات هى، مثل المجتمعات الرأسمالية، مجتمعات أبوية. وبالمناسبة فالناس فى المجتمع الرأسمالى أفضل حالا من الناحية الاقتصادية من نظرائهم فى المجتمع الاشتراكى، ومع هذا نراها تؤكد اختفاء البغاء من هذا وانتشاره فى ذاك، مع أن العكس كان ينبغى أن يكون هو الموجود طبقا لتحليلاتها .

[٢] بل إنه فى حالة ما لو انكشفت الحقيقة وعرف المجتمع أن الولد لا ينتمى إلى الزوج فإن الدين ينسبه إليه كأنه ابن حقيقى له بما يترتب على هذا من وراثته لذلك الزوج.

هناك إحساسا فطريا هو الذى يجعل الفرد يتنبه إلى أى جنس ينتمى، وإلا فكيف عرف آدم وحواء أنهما ذكر وأنثى على التوالى، ولم تكن هناك أسرة وُلِد أى منهما فيها ؟ بل كيف يعرف الحيوان أنه ذكر أو أنثى؟ هل ثقافة المجتمع هى التى تعرّفه ذلك؟ فهل للحيوان ثقافة؟ طبعا لا. وكيف عرفت هيلين كيلر الصماء العمياء البكماء مثلا، قبل أَن تتصل بالناس بعدما علمتها القراءة والكتابة سيدةٌ عطفت عليها، أنها أنثى؟ أم ترى السعداوى ستناكف وتقول إنها قبل ذلك لم يكن فى مستطاعها أن تعرف أنها أنثى؟ وكعادتها نراها تعود فتقول بوجود هذا الإحساس الفطرى، بل بأن الذكورة والأنوثة موجودتان فى التكوين البيولوجى للفرد منذ المرحلة الجنينية. ثم تعود مرة أخرى فتقول إن أهم عامل فى ذللك الإحساس هو عامل الأسرة ومعاملتها للفرد، لتنتهى إلى أنه هو العامل الوحيد أو الحاسم على الأقل. وبهذا يتبين للقارئ كيف تتضارب أقوال نوال السعداوى ولا تستقر على حال واحد أبدا.

ومن السخائف التى تزعمها السعداوى (ص٢١٦) أن الرجل يكره المرأة كراهية دفينة، مع أنها تؤكد أن الرجل مشغول بها طول الوقت، ودائم التغزل فيها والترامى على قدميها. ثم تمضى فتورد رأى فرويد فى أن السبب فى هذا قد يكون خوفه من أن تخصيه. والحق أن هذا هو السخف والشذوذ بعينه، إذ متى خاف الرجل من أن تخصيه المرأة؟ لو كان الأمر كذلك لما اقترب منها ليعاشرها كيلا يوفر لها فرصة مجانية تقوم فيها بإخصائه. ولكن كيف يكون ثم كراهية للمرأة من الرجل، وهو الذى يلهث وراءها طوال الوقت كى يحظى بحبها ورضاها، وينظم فيها الأشعار والأنثار، ويتودد إليها بالهدايا، ويدفع لها المهر فى كثير من الشرائع، وينفق عليها حين تصبح زوجة له، ويغار عليها من نظرة أى رجل آخر إليها، وقد يخوض المعارك والحروب الضارية من أجل الفوز بنظرة من عينيها أو دفاعا عن كرامتها وعرضها، أو إثباتا لرجولته وشجاعته أمامها؟ إن الرجال بطبيعتهم يحبون النساء ولايكرهونهن، ومثلهم فى ذلك النساء، فهن يحببن الرجال ولا يكرهنهم، اللهم إلا لسبب خاص ينفّرهن أو ينفّرهم من شخص بذاته يتسم بصفات يبغضها النافر. أما على وجه العموم ففى فطرة كل من النوعين حب النوع الآخر والهفوّ إليه والعمل على جذب اهتمامه والحصول على تقديره. هذا هو الكلام الصحيح لا الذى تهرف به نوال السعداوى. وأنا على يقين من أنها تعى تماما أنها لا تقول الحقيقة، بل تعاند وتمشى عكس اتجاه واقع الحياة عن سبق إصرار وترصد.

وبالنسبة لما قالته (ص٢٦٧– ٢٦٨) عن كراهية الرجال للمرأة فالواقع أنهم لا يكرهونها ولا يكرهون إعطاءها حقها من الاحترام، بل كل ما هنالك أنهم يكرهون المناطحةَ من بعض النساء وجنوحَهن إلى التمرد والعصيان فى كل صغيرة وكبيرة. ومعروف أن معظم الرجال يشاورون نساءهم،

إن لم يكن عن مبدإ فعلى الأقل نزولا على الطبيعة البشرية التى تحب أن تحس بأنها ليست وحيدة فى مواجهة الظروف الصعبة والمربكة، وترغب فى الاستئناس بما عند الآخرين القريبين من رأى. إلا أن بعض النساء يردن المناكفة، وهذا مما لا يساعد سفينة الزواج على الإبحار الهادئ. وإلا فكيف عاشت المرأة مع الرجل منذ الخليقة؟ أوكانت حياتها كلها تعاسة وشقاء وكربا أسود إلى أن جاءت نوال السعداوى فاكتشفت هذا وعملت على تغييره؟ لا نكران أنه كان هناك، وسوف يظل دوما هناك، مشاكل بين الطرفين سواء عملت المرأة خارج البيت أو بداخله. أما أن نقول إنه لا بد أن تخرج المرأة وتعمل خارج البيت، وإلا فلا سعادة، فهو تضييق للواسع وتحجير للمرن. ثم أين السعادة التى كانت غائبة عن حياة المرأة وعن البيت ثم رفرفت عليها بخروج المرأة إلى الحياة العامة؟ أوَتخلو المجتمعات الغربية من المشاكل بين الرجل وزوجته؟ ألم يتفش الطلاق فى تلك المجتمعات؟ ألم تكثر الأمراض النفسية؟ ألم يظهر الاغتصاب وينتشر بعدما كان محدودا جدا لا نكاد نسمع به؟ ألا يضرب كثير من الرجال الغربيين زوجاتهم؟ ترى لماذا فشل مثلا برتراند رسل عدة مرات فى الزواج وعرف العلاقات الغرامية حتى مع المتزوجات رغم كل التقدمية فى فكره وفكر زوجاته وعشيقاته فى مجال الجنس؟ ولماذا كان هربرت جورج ويلز يخون زوجته مع سكرتيرته كلما خلا عليهما البيت؟ ولماذا خان كل من الأمير تشارلز والأميرة ديانا الآخر، واعترفا بذلك فى التلفاز على الملإ فى جميع أرجاء العالم دون أدنى إحساس بالخجل ولا مراعاة لوضعهما السياسى والاجتماعى ولا مبالاة بمشاعر أطفالهما؟ ولماذا هذه الفضائح الجنسية فى كل مكان بالمجتمعات الغربية؟ ولماذا هذا التفكك الأسرى الواسع النطاق؟ ولماذا كل هذا القلق؟ ولماذا ارتفاع نسبة الانتحار؟

لقد قال القرآن: "وللرجال عليهن درجة"، وإن لم يعن هذا أن كلا من الجنسين ينتمى إلى عالم مختلف عن عالم الآخر، بل هما كلاهما من نفس واحدة، وإن أُعْطِيَت القِوَامة للرجل. أما السعادة الكاملة المطلقة فهى كالعنقاء لا وجود لها فى عالمنا، ولا يمكن أن يبلغها الإنسان فى يوم من الأيام على هذه الأرض طبقا لما تحدّثنا به التجارب الإنسانية على مدى الدهور والحقب، على عكس ما تريد السعداوى أن توهمنا به من أن الزواج حتى الآن كله شقاء وتعاسة (إذ يقوم على السادوماشوسية كما تقول ص٢٧٠) لأن المرأة لم تتساو بالرجل وتستقل عنه، ومتى ما تم هذا انقلبت الحياة الزوجية للتو جنة وارفة الظلال طبقا لأوهامها ومزاعمها. ومن طريف الأمر تأكيدها (ص٢٩٨– ٢٩٩) أن النساء المثقفات الواعيات هن اللاتى يفشلن فى الزواج. بل إنها لترى أن نضج المرأة يجعلها لا تحتاج إلى الزواج أصلا. الله أكبر! فما معنى تأكيدها إذن بأنهن سليمات نفسيا وأنهن المثل الأعلى للمرأة إذا لم يكنَّ

قادرات على النجاح فى الزواج؟ أم إن الوعى والاكتمال لا بد أن يؤديا إلى الفشل؟ إن بعض النسوة يسقطن ما هن فيه من فشلٍ زواجيٍ على ما يدعون إليه من مفاهيم وآراء مضطربة منحرفة، وكأنهن يحقدن على الناجحات فى زواجهن ويردن أن يعكرن عليهن صفو حياتهن ويُعْدِينهن بفشلهن.

وينبغى فى رأى د. السعداوى (ص٢٩٧) أن تعتز المرأة بكل تجربة مرت بها مهما كان شأنها لأنها جزء من كيانها. أى أنها لا ترى أن هناك شيئا اسمه الخطأ ينبغى الخجل منه، ومن ثم لا معنى لكلامها هنا، إذ إن الظلم الذى يقع من الرجل تجاه المرأة إنما هو تجربة مر بها وأصبحت جزءا من كيانه لا ينبغى أن يشعر بالخجل منه بل بالاعتزاز به. وكعادتها فى التناقض المضحك تنقل عن إريك فروم (ص٣١٢) أن الإنسان الذى يشعر بالتأثم ويصاب بالعُصَاب أفضل ألف مرة ممن لا يحس بأى ذنب جَرَّاءَ ارتكابه الأخطاء.

ومن مظاهر العناد لدى السعداوى تفسيرها (٢٣٩– ٢٤٠، ٢٤٦، ٢٥٠) غيرة المرأة على الرجل بخوفها أن تأخذ زوجها امرأة أخرى فلا تجد لنفسها مأوى تحتمى به ولا رجلا ينفق عليها، إذ كانت محرومة من العمل الذى يكفل لها الاستقلال. فهل معنى هذا أنها الآن لم تعد تغار على زوجها ولا تخاف أن تأخذه امرأة أخرى؟ بل ألا تخاف أن تأخذ حبيبها[١] لا زوجها امرأة أخرى؟ وإذا كان الأمر كما تزعم فلم يشعر الرجل بالغيرة والخوف من فقدان زوجته أو حبيبته، وهو الذى ينفق ويؤوى لا هى؟ ألا إن هذا لتفكير مخلخل. وأنا لا أحيلها إلا إلى حالة تلك الطبيبة المشهورة المثيرة للجدل حين اكتشفت منذ وقت غير بعيد أن زوجها متعلق بامرأة أخرى أصغر منها وأنضر وأجمل. فلم ركبتها يا ترى عفاريت الغيرة، وانقلبت حياتها رأسا على عقب، وأزعجت المثقفين برسائلها حول الكاتب المشهور الذى شارف التسعين ووقع فى غرام مُعِدّةٍ تلفازية فى الخمسين من عمرها، رغم أن الطبيبة الثائرة مستقلة عنه ماديا، إذ لها مهنة وأعمال تدر عليها من المال ما لا يكسبه هو، وما لا تحتاج معه أن ينفق عليها أو يوفر لها مأوى تتقى به الحر والبرد ويكفل لها الكرامة ويحميها فضول الآخرين، إن لم تكن هى صاحبة اليد العليا فيما يخص مصاريف البيت طبقا لما يتبادله القراء من أخبارهما على المشباك؟ ولم يا ترى تغار النساء فى أوربا وأمريكا على رجالهن: أزواجا وخُطَّابا وأحباء، وكلهن تقريبا يشتغلن، ولهن مهن يكسبن منها ما يكفل لهن العيش دون حاجة مالية للرجال؟

---

[١] نعم حبيبها الذى لا ينفق عليها ولا يقدم لها مأوى تحتمى به، بل يحبها وتحبه فقط. بل إن هناك لَنِسَاءً ينفقن على الرجال الذين يحببنهم ولا يطقن أن تنظر إليهم امرأة أخرى حتى لو كانت نظرة عارضة لا تقدم ولا تؤخر.

وهى تتلاعب بالكلمات فتقول (ص٢٥٩) إن الرجل، طبقا للنظام الذكورى الظالم، يمكن أن يكون مهندسا مثلا أو طبيبا فوق كونه أبا وزوجا، أما المرأة فلا يسمح لها إلا أن تكون أما وزوجة فقط. وهذا خطأ، فالمرأة التى تعمل فى البيت تقوم بأشياء غير الأمومة (أى غير الحمل والولادة)، إذ تربى أولادها وتوجههم وتشرف على سلوك الخدم إن كانت ممن يستعنَّ بالخدم، وتعمل أشياء كثيرة داخل البيت غير الحمل والولادة، أى غير الأمومة والزوجية. فانظر إلى تلاعبها بالكلمات. وعلى كل حال ما الفرق بين عمل المرأة فى البيت وعملها خارج البيت؟ أليس كله عملا؟ خذ مثلا طهيها طعام الأسرة. ترى لماذا يكون طهيها الأكل فى مطعم أو شركة أغذية شيئا عظيما، وقيامها بذلك العمل لأفراد أسرتها شيئا شائنا لا يليق بها ولا بمواهبها؟ ولماذا تكون تربيتها أطفال الآخرين فى الحضانة والمدرسة أمرا رائعا، وقيامها بذلك لأطفالها هى أمرا معيبا؟ وقس على ذلك.

وعلى هذا فإنى لا أفهم هجومها (ص٢٦٠- ٢٦١) على النساء اللاتى يعملن عند الحاجة حتى إذا تزوجن من رجل غنى تركن العمل ورجعن إلى البيت، ولا حَمْلَتها على الظروف التى ينشأ فيها هؤلاء النساء والقيم التى يُرَبَّيْنَ عليها، والتى تتلخص فى أن الزواج هو أهم شىء فى حياة المرأة. ترى هل العمل فى البيت شىء شائن؟ وهل من الحكمة أن تفرض السعداوى نمطا واحدا من المعيشة على كل نساء العالم رغم اختلاف الثقافات والاقتناعات والقيم والضرورات والغايات؟ وهل بقاء المرأة فى البيت معززة مكرمة دون صراعات مجتمعية وعملية وإدارية يمنع المرأة من القراءة والتفكير والإبداع الأدبى والفنى؟ لقد كانت المرأة العربية منذ الجاهلية تبدع الشعر وهى لا تطاحن فى معظم الأحيان الرجل خارج البيت، وظلت كذلك حتى العصر الحديث كما هو الحال مع عائشة التيمورية ومى زيادة وملك حفنى ناصف مثلا، بل ولا يزال هذا مستمرا إلى الآن. هل كانت زوجة د. محمد مندور السيدة ملك عبد العزيز مثلا تعمل خارج البيت؟ ومثلها زوجتى، التى حصلت على الماجستير وسجلت للحصول على الدكتوراه وهى فى البيت. وهناك طالبات يدرسن فى الجامعة، ويحصلن على أكثر من شهادة، وهن لا يعملن خارج البيت. ثم من يقوم بتربية الأطفال إذا ما تركت النساء البيوت واشتغلن خارج البيت؟ أيعقل أن تترك المرأة أولادها لامرأة أخرى تربيهم، ثم تذهب هى فتربى أولاد الآخرين مثلا فى حضانة أو مدرسة؟ فما الفرق بين هذا العمل وذاك ولو من الناحية الشكلية؟ ثم هى تقول إن ا لمرأة إذا اشتغلت فى البيت فإنه عمل بلا مقابل. ترى هل هذا صحيح؟ ألا تأخذ مرتب الرجل كله أو جزءا كبيرا منه تتصرف فيه بحريتها؟ ألا تُقْضَى لها كل حاجاتها مَثَلُها مَثَلُ الرجل؟ فماذا تريد السعداوى إذن؟ أوَلاَ بد أن تترك المرأة بيتها وتدخل حلبة الصراع اليومى خارج البيت هى أيضا

وتعود منهوكة محطمة فلا يبقى فى البيت أحد يحظى بشىء من السكينة يمكن أن يعادل بها توتر الآخرين الذين يعملون فى الخارج؟

إن نوال السعداوى ترى (ص٢٦١) أن تحقيق المرأة لذاتها بالخروج إلى العمل خارج البيت هو قيمة فى حد ذاته أفضل من الزواج والإنجاب والأمومة. والعجيب أنها (ص٢٦٢) تشكو من أن المرأة العاملة خارج البيت تعمل عملين: داخل البيت وخارجه أيضا . إذن فهى داخل البيت تعمل، ولا تضيع إمكاناتها ومواهبها كما تقول السعداوى. ثم إن المرأة، حين تعمل داخل البيت، لا تخدم الرجل كما تقول الكاتبة (ص٢٦٣)، بل تخدم الأسرة كلها مثلما أن الرجل حين يعمل خارج البيت إنما يخدم الأسرة كلها أيضا، وإلا فأين تذهب نقوده ومرتباته؟ أليس لها وللأولاد؟ فمن الواضح إذن أن منطق السعداوى، حين تقول إن المرأة بعملها فى البيت إنما تخدم الرجل، وإن الرجل لا يريد لها إلا أن تظل تغسل له جواربه وكوافيل الأطفال (ص٢٦٤)، هو منطق متهافت ومشوش. طيب، وإذا خرجت المرأة إلى العمل ولم تشأ أن تفعل ذلك فمن سيقوم بهذا العمل؟ أليست امرأة أخرى بأجرة؟ فما الفرق فى هذه الحالة؟ ولماذا كان هذا العمل مقبولا لتلك المرأة الأخرى ومُنْكَرا وشائنا للزوجة؟ ثم أليست الأخرى زوجة هى أيضا؟ فلماذا كان ذلك العمل كريما إذا ما قامت به لأسرة أخرى، وشائنا إذا قامت به لزوجها وأولادها؟ أليس ذلك اضطرابا فى الفكر والمنطق؟

عبد الله الغذامى: لماذا يحابى المرأة، ويشمت بالرجال؟

يتعرض هذا الفصل لآراء د. عبد الله الغذّامى فى العلاقة التى ينبغى أن تكون بين الرجل والمرأة والتى دائما ما يهاجم صاحبها جنس الرجال بوهم قراءه أنه، بهذه الطريقة، إنما يدافع عن المرأة وحقوقها ويساعدها على التخلص من أغلالها التى كبلها بها الرجل وأحال حياتها إلى جحيم. وقد اخترت كتابه: "المرأة واللغة" لتكون مناقشتى لهذه الآراء من خلاله. وفى ذلك الكتاب[1] يعمل د. الغذامى بكل سبيل على النيل من الرجال والتظاهر بالوقوف إلى جانب النساء والتفانى فى إزالة الظلم الواقع عليهن من قِبَلهم. وهو يشتط فى هذا اشتطاطا غير مفهوم ولا مقبول حتى إنه ليتهكم بالرجال ويتهمهم بما ليس فيهم وينسب إليهم الاستبداد بالنساء وتحقيرهن وتصيير حياتهن جحيما لايطاق عاطلا مع باطل كأن الرجال كلهم، وبالذات العرب والمسلمون، ظَلَمَةٌ للمرأة مجحفون بحقوقها مستبدون بها لا يعرفون للرحمة ولا للهوادة فى معاملتها أى معنى. وفى أثناء هذا كله نراه يقع فى تناقضات شنيعة لا يقبلها منطق، ويزعم المزاعم التى لا تدخل عقل أحد، ويقفز من مقدمات إلى نتائج لا تتأتى عنها، ويتمسك ببعض النصوص التى لا أدرى من دَله عليها فيرفعها فى وجه القارئ موهما إياه أنها كل شىء وأنها لا تعنى إلا شيئا واحدا هو ما يريد إيهام القارئ به، فى حين يوجد أضعافها من النصوص التى تنسف نصوصه تلك وتذروها فى الهواء، بيد أنه يعتم عليها ويجتهد بكل طاقته لصرف الأنظار عنها. وهو لا يفتأ، فى كل مناسبة وبغير أية مناسبة، يكرر أن الرجل يقمع المرأة وينتهك حقوقها، وأن المرأة أذكى منه وأعظم إبداعا، ويسخر مما يسميه: "ثقافة الفحل"، تلك الكلمة التى يذهب فيبدئ فيها ويعيد فى تهوس مسئم، شامتا بالرجال أجمعين، وهو ما يحتاج إلى دراسة نفسية للأمر تضع كل شىء فى نصابه، وتشرح لنا كيف ينقلب على الرجال هذا الانقلابَ الموتورَ المستفزَّ واحدٌ منهم.

ومن الأفكار التى يحاول د. الغذامى فى هذا الكتاب أن يسوّقها، رغم أنه ليس ابن بجدتها بل مجرد ناقل وناشر لها، الفكرة القائلة بأن اللغة ذات طابع ذكورى، فهى تظلم المرأة وتنحاز للرجل. إلا أنه لم يقدم ما يدل على هذه الذكورية اللغوية: ذلك أن هناك مثلا ضمائر وأسماء وصيغا للتأنيث مثلما هناك ضمائر وأسماء وصيغ للتذكير. بل كثيرا ما تستخدم صيغ مذكرة للنساء، وصيغ تأنيثية للرجال، مثل حائض وطالق من جهة، وهُمَزة وضُحْكَة وعلاّمة ومعاوية وحمزة وحمامات من جهة أخرى، بالإضافة إلى أن هناك أسماء أعلام تطلق على الرجال والنساء على السواء، مثل نجاح ورجاء وجهاد وسناء وعفت وعصمت وشمس وقمر ونور وندى ورضا وأمل وجمعة وأسماء. بل إن بعض الشعراء قد

[1] رجعنا إلى الطبعة الثالثة من هذا الكتاب الصادرة عام ٢٠٠٦م عن المركز الثقافى العربى بالدار البيضاء وبيروت.

يستخدم فى مخاطبة حبيبته صيغة التذكير فيقول: "حبيبى"، وهو يقصد "حبيبتى"، أو يخاطبها بضمير الجمع الذكورى كما يفعل عند مخاطبة الملوك، فيقول كما قال جميل مثلا لبثينة:

أَلا ليتَ رَيْعـــانَ الشَبــــاب جَديـــدُ		وَدَهرًا تَوَلّـــى يا بُثَيـــنَ يَعـــودُ
فَنَبقى كَما كُنّـــا نَكـــونُ وَأَنتُمـــو		قَريبٌ، وَإِذْ مـا تَبْذُليـــنَ زَهيـــدُ
. . .		
وَقَدْ كانَ حُبّيكُــم طَريفًـــا وَتالِـــدًا		وَما الحُـــبُّ إلا طـــارفٌ وَتَليـــدُ

وكما قال العباس بن الأحنف:

كَتَـــبَ المُحِـــبُّ إلى الحَبيـب رسالَةً		وَالعَيْنُ مِنهُ ما تَجِـــفُّ مِنَ البُكـــا
وَالجِسْـــمُ مِنـــهُ قَد أَضَرَّ بِه البَلـى		وَالقَلبُ مِنْـــهُ ما يُطاوِعُ مَـــنْ نَهَـــى
قَد صارَ مِثلَ الخَيْـــطِ مِن ذِكراكُمُـــو		وَالسَّمْـــعُ مِنهُ لَيسَ يَسْمَعُ مَن دَعـــا
هَذا كِتـــابٌ نَحْوَكُـــم أَرسَلْتُـــهُ		يَبْكي السَّميعُ لَهُ وَيَبْكـــي مَـــن قَـرا
. . .		
لا لا وَلا مِثلـــي المُرَقّـــشُ إذ هَـــوي		أَسْماءَ لِلحَيْـــنِ المُحَتَّـــمِ وَالقَضـــا
هاتـــي يَدَيْكِ فَصالِحيـــني مَـــرَّةً		لِنَسُبَّ مَن بِالصَّـــرْمِ يا نَفْســـي بَـدا
رُدّي جَـــوابَ رسالَتي وَاِستَيْقِـــني		أَنَّ الرِسالَةَ مِنْكُـمُ عِنـــدي شِفـــا
مِنّي السَـــلامُ عَلَيكُمُـــو يا مُنيَـــتي		عَـــدَدَ النُجـــومِ وَكُلِّ طَيرٍ في السَما

وكما قال ابن زيدون فى مخاطبته لولادة بنت المستكفى:

بنتـــم وبنّا فمـــا ابتّلتْ جوانحنــــا		شوقـــا إليكـــم ولا جَفّتْ مآقينـــا

و كما قال بهاء الدين زهير:

إلى عَدْلِكُم أُنْهي حَديثـــي وَأَنْتَهـــي		فَجُودُوا بِإِقْبـــالٍ عَلَـيَّ وَإِصغـــاءِ
عَتَبْتُكُمُو عَتْـــبَ المُحِـــبِّ حَبيبَـــهُ		وَقُلْـــتُ بِإِذلالٍ، فَقُولـــوا بِإِصفـــاءِ
لَعَلَّكُمُـــو قَد صَدَّكُـم عَن زِيارَتـــي		مَخافَـــةُ أَمْـواهٍ لِدَمْعـــي وَأَنْـــواءِ
فَلَـــو صَـــدَقَ الحُبُّ الّـَذي تَدَّعونَـــهُ		وَأَخلَصتُمُو فيهِ مَشَيْتُـــم عَلـــى المـاءِ
وَإِن تَـكُ أَنفاســـي خَشيتُـــم لَهيبَهـــا		وَهالَتْكُمُو نيرانُ وَجْـــدٍ بِأَحْشـائـــي
فَكونـــوا رِفاعِيّيـــنَ في الحُبِّ مَـــرَّةً		وَخُوضوا لَظَى نارٍ لِشَوْقـــيَ حَـــرّاءِ
حُرِمْـــتُ رِضاكُـم إن رَضيتُ بِغَيْرِكُـم		أَوِ اعْتَضْتُ عَنكُمْ في الجِنـــانِ بِحَـوْراءِ

وإذا كان د. الغذامى قد كرر، بطول الكتاب وعرضه وعلى نحو مقيت، السخرية من استعمال القدماء للفظ "الفحل" و"الفحولة" فى إشارتهم إلى قوة الإبداع، متخذا من هذا الفظ دليلا على تحيز العرب للرجال ضد النساء، لأن الفحولة من صفات الذكر لا الأنثى، فإن القدماء أيضا قد استعملوا ألفاظا أنثوية للتعبير عن إعجابهم البالغ بإبداع المبدعين. فلماذا لم يذكر للقراء هذا الذى كان ينبغى أن يقلل من غُلوائه فى اتهام العرب بما اتهمهم به؟ يقول أبو نواس مثلا:

إِلَيْكَ بَعَثْــتُ أَبْكـــــارَ المَعَانـــــــي		يَلِيهَـــــا سَائِقٌ عَجِــلٌ وَحَـــادِي

ويقول أبو تمام:

أَمَّا المعانـــــي فَهْـــــيَ أَبْكـــــارٌ إِذَا		نُصَّــتْ، وَلَكِنَّ القَوَافِـــــيَ عُـــونُ

ويقول ابن الرومى:

ها إنها خطبةٌ قـــام الخطيب بهـــــــا		بكْـــرٌ، ولكنها في حزمهـــا نَصَــفُ

ويقول أيضا:

مِـــــدَحٌ مــن بنـــاتِ فكريَ أبكـــا		رٌ حِســـــانٌ كواعـــــبٌ أتـــرابُ

ويقول صفى الدين الحلى:

فَكَمْ بِكرِ مَعْنًى حَـــــوَى طِرْسُهـــــا		وَإِن كـــانَ في جِسْـــمِ لَفظٍ عَـــوانِ

ويقول ابن كمونة:

بيتَ الرسالـــةِ، هاكُمُـــــو مرثيــــــةً		طـــورًا تنوح لكم، وطـــورًا تنـــدبُ
بِكْرٌ من النظـــــم الرقيـــق يزفهـــــا		عبد لكـم، وإلى وَلاَكُـــمْ يُنْسَـــــبُ

ويقول أبو حيان الأندلسى:

فَكَم بِكْرِ مَعْنًـى عَزَّ مِنهـــا افْتِراعُهـــا		لَها ذِهْنُهُ الوقّـــادُ أَصبَـــحَ فاتِقـــا

ويقول أبو تمام فى مدح الحسن بن رجاء:

أَغْلَى عَــذَارَى الشّعْـــرِ، إِنَّ مُهُورَهَـــــا		عِنْدَ الكِـــرَامِ إِذَا رَخُصْـــنَ غَوَالِـي
تَرِدُ الظُّنُـــونَ بِهِ عَلَـى تَصْدِيقِهَـــــا		وَيُحَكّـــمُ الآمَـــالَ فِي الأَمْـــوَالِ

ويقول البحترى:

قَـــد تَلَقَّيْـــــتَ بِالقَبُـــولِ مَدِيحِـــي		وَكَـــــذا يَفْعَلُ الرَّئِيـــسُ الجَلِيــــلُ
هِيَ بِكْرٌ زُفَّت إِلَيـــــكَ عَرُوسًـــــا		وَلَها عِنْدَكَ الصَـــداقُ الجَزِيــــلُ

ويقول البحترى أيضا:

هَذي القَوافِي قَـــد زُفِفْـــتُ صِباحَهـــا		تُهْـــدَى إِلَيـــكَ كَأَنَّهُـــنَّ عَرائِسُ
وَلَكَ السَّلامَـــةُ وَالسَّـــلامُ، فَإنَّـــني		غادٍ، وَهُنَّ عَلى عُـــلاكَ حَبائِـــسُ

ويقول السَّرِيّ الرَّفّاء:

وكم من يَدٍ للحُـــرّ عنـــديَ ثَيِّـــب		كشفْتُ مُحَيَّاهـــا بقافيـــةٍ بِكْـــر

ويقول ابن أبى حصينة:

فَكَمْ بِكْرٍ زَفَفْـــتُ إِلَيـــكَ مِنـــهُ		فَكانَ نَدَى يَدَيـــكَ لَهـــا صَدَاقـــا

ويقول ابن الخياط:

إِلَيْكَ زَفَفْـــتُ أَبْكـــارَ الْقَوافِـــي		وُحَـــادًا كَالْفرائِـــدِ أَوْ زواجـــا

ويقول ابن الزقاق البلنسى:

إليـــكَ أبـــا حفـــص رفعـــتُ من النُّهـَى		عرائِـــسَ تُجْلَـى في حُلِيّ غرائـــب

ويقول ابن قيم الجوزية:

هَـــذِي حِسَانُ عَرَائِس زُفّت لَكُـــم		وَلَـــدَى المُعَطِّـــل هُنَّ غَيْرُ حِسَـــانِ

ويقول أبو الفتح البستى:

زُفّتْ إليـــكَ لنـــا عرائِـــسُ أربَـــعٌ		ففَضَضْتَهـــا بالسَّمْـــعِ، وهْيَ قَصائِـدُ
فابعـــَثْ إِلَيَّ مُهورَهُـــنَّ بأسرهـــا		إِنَّ النّكـاحَ بِغَيْـــرِ مَهْـــرٍ فاســـدُ

ويقول شرف الدين الحلبى فى ممدوح له:

تلق القوافـــي الشـــاردات كأنها		قلائـــد درّ فـــوق أعنـــاق خُـرَّد
...		
تسوء مُعادِيكـــم حِسَـــانُ شـــواردي		ويُرْضي معاليكم مغيـــبي ومشهـــدي

ويقول صلاح الدين الصفدى:

وما شاهدتْ عيـني سواهـــا رسالـــةً		يغازلني منهـــا حســـانٌ سواحـــرُ

ويقول ابن حجر العسقلانى:

زَفَفْـــتُ إلى عُـــلاكَ عَرُوسَ فكـــري		وَصَيَّـــرْتُ البَـــديعَ لَهـــا جَهـازا

ومن كلام الثعالبى فى كتابه: "أبو الطيب المتنبى: ما له وما عليه" عن شعر المتنبى: "وتكلم الأفاضل في الوساطة بينه وبين خصومه، والإفصاح عن أبكار كلامه وعُونه، وتفرقوا فرقا في مدحه والقدح فيه والنضح عنه، وتفرده عن أهل زمانه بملك رقاب القوافي ورقّ المعاني". ولابن الجوزى فى

"المدهش": "ادخل دار الخلوة لمن تناجي، وأحضر قلبك لفهم ما تتلو، ففي خلوات التلاوة تُزَفّ أبكار المعاني". وبالمثل يقول ابن عرشاه فى "فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء": "وأخرج له غواص الفكر من بحر المعاني والبيان فرائد أفكار لم تظفر بها أصداف الآذان، وخرائد أبكار لم تفترعها فحول الأذهان". ويقول صلاح الدين الصفدى فى"أعيان العصر وأعوان النصر": "لها من ميم مِسْك قصيدته الميميّة ختام، ومن مخبآت شرح اللامية عرائسُ تُجْلَى على الأفهام". وفى "الكشكول" لبهاء الدين العاملى: "اكتحلتُ عين الفكر من سواد أرقامهم، وانفتحت حدقة النظر على عرائس نتايج أفهامهم". وللوزير المغربى فى "أدب الخواصّ": "وهذا الشعر من حِسَان أبيات المعانى". ولعبد القاهر الجرجانى فى الحديث عن الاستعارة المفيدة: "اعلم أنّ الاستعارة في الحقيقة هي هذا الضرب دون الأول. وهي... أَسْحَرُ سِحْرًا، وأملأ بكل ما يملأ صَدْرًا، ويُمْتِع عقلاً، ويُؤْنِس نفسًا، ويوفر أُنْسًا، وأَهْدَى إلى أن تُهْدِي إليك أبدًا عَذَارَى قد تُخُيِّرَ لها الجمال، وعُنِيَ بها الكمال"... إلخ.

أما ما يقوله الغذامى (ص٢٠- ٢١) عن استعمال صيغة المذكر للسيدات اللاتى يشغلن منصب المدير فى مؤسسة ما أو الأستاذ فى إحدى الجامعات أو الرئيس فى هيئة من الهيئات وانتقاده ذلك الاتجاه فليس له الحق فيه، إذ قد لاحظتُ أن النساء اللاتى يشغلن منصبا من هذه المناصب يحرصن على استخدام صيغة المذكر حرصا غريبا، تصورا منهن أنهن بهذه الطريقة يناطحن الرجال ويسامتنهم رأسا برأس، وهو ما كان ولا يزال يثير دهشتى وضيقى لأنه لا يوجد فى استعمال صيغة التذكير للمرأة ما يبعث على الفخار. وإذا كانت بعض النصوص العربية القديمة التى استشهد بها المجمع اللغوى بالقاهرة وعض بنواجذه عليها د. الغذامى تصنع شيئًا من هذا فالواقع أنها إنما تمثل الشذوذ على القاعدة. وكنت أحسب هذا الاتجاه العصرى فى كتاباتنا راجعا إلى تشبهنا بالإنجليز، الذين لا تعرف لغتهم فى كثير من الأحيان صيغة تأنيثية للمهن والوظائف على عكس الفرنسية، التى أعرف أنها تفرق بين الجنسين فى هذا المجال، وكنت أقول: لماذا نتنكر لطبيعة لغتنا الدقيقة ونجرى وراء لغة جون بُلْ المفتقرة إلى الدقة؟ وها هو ذا د. الغذامى يمسح هذا الاتجاه فى ذقن جنس الرجال على عادته فى تشويه صورتهم على الدوام، مع أن الرجل يستطيع أن يناصر المرأة إذا كانت مظلومة دون أن يتنكر لبنى جنسه على هذا النحو المقيت. ونحن، بحمد الله، نعطف على المرأة ونحب لها كل الخير ونريد لها التقدم دائما والرفعة. أليست المرأة هى أمهاتنا وزوجاتنا وبناتنا وأخواتنا وجداتنا وخالاتنا وعماتنا وزميلاتنا وجاراتنا وزميلاتنا وأستاذاتنا وطبيباتنا ؟ أليست المرأة هى التى ربتنا وأسبغت علينا

العطف وتحملتنا ونحن صغار، وأسعدتنا حبيبةً وخطيبةً وزوجةً حين كبرنا، وأثارت حناننا ورحمتنا بنتًا وأختًا ؟

والعجيب أن بعض من يرددون مثل كلام الغذامى كشريف الشوباشى ود . عبد المنعم تليمة ينادون بضرورة الاستغناء عن ضمائر وصيغ التأنيث فى العربية مع أن هذا الاقتراح من شأنه أن يمحو أى طابع أنثوى فى اللغة. أى أنهم ينادون بالشىء ويعملون بعكسه. وقد سجلتُ هذا بالتفصيل وأبديت فيه رأيى وبينت ما فيه من عوار وتهالك فى كتابى: "لتحيا اللغة العربية يعيش سيبويه"، ردا على كتاب الشوباشى: "لتحيا اللغة العربية يسقط سيبويه"، الذى عضد ما فيه د. تليمة فى مواجهة تلفازية بين العبد الفقير ود. عبد الله التطاوى وبينهما منذ نحو اثنتى عشرة سنة. ثم إنه لا يوجد أى عائق من أى نوع يمنع النساء من استخدام اللغة كلاما أو كتابة أو تفكيرا: لا فى الماضى ولا فى الحاضر ولا حتى فى السمتقبل. وفوق هذا فاللغة لا تقصّر فيما يتعلق بالمرأة من معانٍ ومشاعرَ ومفاهيمَ وأوضاعٍ وأحوالٍ. كما أن هناك أشعارا وخطبا وأمثالا كثيرة قالتها المرأة. . .

يقول الغذامى ما نصه: "تظهر اللغة تاريخيا وواقعيا على أنها مؤسسة ذكورية، وهي إحدى قلاع الرجل الحصينة. وهذا يعنى حرمان المرأة ومنعها من دخول هذه المؤسسة الخاصة بالرجل، مما جعل المرأة فى موضع هامشى بالنسبة لعلاقتها مع صناعة اللغة وإنتاجها . جرى ذلك حسب القانون التاريخى الذى يمنع المرأة من تعلم الكتابة، وهو القانون الذى صاغه خير الدين نعمان بن أبى الثناء فى كتابه الموسوم بـ"الإصابة فى منع النساء من الكتابة"، وفيه يوصى قائلا: أما تعليم النساء القراءة والكتابة فأعوذ بالله، إذ لا أرى شيئًا أضر منه بهن. فإنهن لما كن مجبولات على الغدر كان حصولهن على هذه الملكة من أعظم وسائل الشر والفساد . وأما الكتابة فأول ما تقدر المراة على تأليف الكلام بها فإنه يكون رسالة إلى زيد، ورقعة إلى عمرو، وبيتا من الشعر إلى عزب، وشيئًا آخر إلى رجل آخر. فمَثَل النساء والكتب والكتابة كمَثَل شرير سفيه تهدى إليه سيفا، أو سِكّير تعطيه زجاجة خمر. فاللبيب من الرجال مَنْ ترك زوجته فى حالة من الجهل والعمى، فهو أصلح لهن وأنفع" (ص١١١– ١١٢) .

وهو زعم لا معنى له لأن اللغة مؤسسة (إن استخدمنا حذلقته) إنسانية يشترك فيها الجميع بما فيهم الطفل الرضيع الذى يصدر أصواتا فى حالتى الفرح والغضب فيسجلها اللغويون بوصفها لغة أطفال. وكثيرا ما نراهم يقولون فى المعاجم الإنجليزية مثلا إن هذا اللفظ من لغة الأطفال كلفظى "وِي وى" و"كا كا" مثلا للبول والبراز. ثم إنه يتحدث عن نفى المرأة من مؤسسة اللغة وحرمانها من إنتاجها وكأن الرجل يضع على فمها شريطا لاصقا يمنعها من التلفظ، أو كأن اللغة دار يملكها الرجل، فقام بطرد

المرأة منها وحلف ألا يرى وجهها فيها إلى أبد الآبدين. لقد اختُرِعت اللغة قبل اختراع الكتابة بدهور لا يعلمها إلا الله، وقامت لغات وانهارت لغات، والمرأة تشارك الرجل فى ذلك الاختراع رأسا برأس. فكيف يقول الغذامى ما يقول؟ أم ترى آدم كان يحمل فى يده شاكوشا كلما عَنَّ لحواء أن تتكلم دَقَّها فوق رأسها به فأسكتها؟ إن خلط الغذامى بين اللغة والكتابة خلط لا يليق ويدل على قصور فى التفكير، فاللغة نطق وكلام قبل أن تكون كتابة. والكتابة لا تشكل نسبة تذكر فى اللغة كما هو معلوم، فمعظم البشر قلما يكتبون، وإذا كتبوا فكلامهم الملفوظ أضعاف أضعاف كلامهم المكتوب. وحتى هذا المكتوب يمر فى غالب الأمر بمرحلة الكلام حين تتم مناقشته فى البداية شفويا بين الكاتب وزملائه ومعارفه وتلاميذه وحوارييه قبل أن يفكر فى تسجيله بعد ذلك على الورق.

ترى ألم تكن هناك لغة قبل الكتابة، أى قبل أن يكتب الرجل وتكتفى المرأة بالحكى كما يقول الغذامى؟ وبعد اختراع الكتابة هل كان هناك مجتمع نساؤه كلهن لا يعرفن القراءة والكتابة، ورجاله كلهم يعرفونها؟ ولقد تنبه هو أخيرا (ص ٢٦– ٢٧) إلى هذا المعنى فغير كلامه إلى أن اللغة استذكرت، أى صارت ذكورية، ولكن بعد اختراع الكتابة. وأيا ما يكن الحال فلماذا استطاع الرجل أن يمنع المرأة من تعلم الكتابة والقراءة؟ ولماذا استسلمت هى له؟ وهذا لو كان هو الذى منعها، ولم تَسْتَحْلِ هى الأمر. وإذا كانت المجتمعات البشرية أمومية فى بدء أمرها كما يقول (ص٢٨) فما الذى قلب الوضع؟ ثم لماذا كل هذا الأسى على المرأة ما دامت قد أخذت نصيبها مبكرا من قيادة الأسرة، وتحول الميزان لصالح الرجل بعد أن ذاق الظلم زمنا؟ وكيف يمكن القول عند ذاك بأن اللغة ذكورية، مع أن المرأة كانت لها السيادة فى المجتمع، ومن ثم السيطرة على اللغة و"إنتاجها" حسب رطانته؟ ولدينا فى العربية طائفة من الكتب عن الإبداعات الأدبية للمرأة كتبها رجال، منها كتاب المزبانى عن "أشعار النساء" مثلا، وكتاب "الإماء الشواعر" لأبى الفرج الأصفهانى، وكتاب ابن طيفور عن "بلاغات النساء"، وما كتبه لسان الدين بن الخطيب عن أدبيات الأندلس فى "الإحاطة فى أخبار غرناطة"، وما كتبه الإبشيهى فى "باب فى ذكر النساء وصفاتهن" من كتابه: "المستطرف من كل فن مستظرف"، وهو ما يدل أقوى دلالة على أن الرجل لم يكن يرى فى إبداع المرأة وكتابتها شيئًا يضايقه البتة، بل كان يرحب بذلك. وانظر ما يقوله كل من هؤلاء الكتاب فى مقدمة كتابه عن المرأة وإبداعاتها ترَ مصداق ذلك. فطيفور مثلا يؤكد أنها تتفوق على الأدباء الرجال المحسنين. وقد أورد خطبا لها وأشعارا ومواقف مع زوجها قدرها المجتمع لها أيما تقدير.

وبالمناسبة فالنعمان بن أبى الثناء، الذى أشار إليه الغذامى هو واحد من علماء أسرة الآلوسى العراقية الشهيرة، وأشار د. على الوردى فى كتابه: "دراسة فى طبيعة المجتمع العراقى" إلى كتاب الآلوسى وما احتواه من دعوة إلى منع المرأة من تعلم القراءة والكتابة. وبالمناسبة فهذا الكتاب لا يزال مخطوطا لم يطبع فى حدود علمى. كما أشار فى كتاب له آخر عنوانه: "لمحات اجتماعية من تاريخ العراق" إلى ما كان سائدا فى المجتمع العراقى من تحريم أشياء صرنا الآن نستعملها أو نفعلها ببساطة تامة دون أن نجد فيها أى شىء يدعو إلى تحريمها، بل دون أن يطوف بأذهاننا شىء من هذا البتة، إذ كان فى العراق مثلا ناس يحرمون قراءة الجريدة ودخول المدرسة وتعلم اللغة الإنجليزية ولبس القبعة وحلق اللحية واستعمال الملعقة في الأكل. وفي عام ١٩٢٤م صدر في النجف كتاب للشيخ عبد الله المامقاني بعنوان "السيف البتار في الرد على من يقول إن الغيم من البخار"! بل إن خمسة كتب صدرت في العراق فى تلك الفترة تحرم حلق اللحية، ومنها كتاب هبة الدين الشهرستاني: "التفتيش في حلق الريش"!

فهل نقول إن تحريم حلق اللحية هو قانون تاريخى بنفس الطريقة التى وصف بها الغذامى كلام الآلوسى النعمان بن أبى الثناء؟ ترى أين هذه الفتاوى المضحكة الآن؟ لقد ذهبت مع الريح مثلما ذهب مع الريح كلام الآلوسى، الذى يكذّب ما قاله الغذامى بشأنه أنه كانت بمصر ولبنان وغيرهما من الدول العربية مدارس للفتيات تعلمهن لا القراءة والكتابة وحدها بل طائفة من العلوم والفنون مثل الفتيان سواء بسواء[1]. ودعنا من أنه ما من بنت الآن فى أى بد عربى تقريبا إلا وتذهب للمدرسة وتتعلم القراءة والكتابة، بما يفيد أن أحدا لم ينصت إلى ما كتبه الآلوسى ولا أخذ به، على عكس ما يريدنا د. الغذامى أن نتوهم، وكأن ما كتبه الآلوسى هو قانون من القوانين الكونية لا مَعْدَى عنه ولا فرصة للإفلات منه. إن طبيعة الغذامى ككاتب تتلخص فى أنه يرمى بالكلام على عواهنه دون أن يقدّر لرجله قبل الخطو موضعها، وهو مشهور بالاستعمال الفضفاض للغة حيث تفتنه الكلمات فينطلق مستعملا لها دون أن يحقق معناها أو يضبط اتجاهها. إنه يكتفى بالإمساك بالقلم والخط به على الورق دون أن يُعَنّيَ نفسه أبدا بالتدقيق فيما يكتب. والحمد لله أن النساء، وكذلك الرجال، لا يتبعون خطاه فى الكتابة، وإلا لأفتى العبد لله الذى هو أنا أن الكتابة حرام حرام حرام، لا لأنها سبيل إلى كتابة الرسائل الغرامية، بل لأنها تنتهى بالقارئ إلى أن يفقد عقله، والعياذ بالله، كما يوشك أن يحدث لى الآن بسبب كتابات د. الغذامى.

[1] عاش الرجل ما بين ١٨٣٦ و١٨٨٢م.

وهناك أيضا ياسين الخطيب، وهو مؤلف عراقى تُوُفِّىَ قبل ولادة الآلوسى بتسع عشرة سنة ليس إلا[١]، ومع هذا نراه مثلا يكتب فى كتابه: "الروضة الفيحاء فى تواريخ النساء" عن فاطمة بنت الحسن بنت علي الأقرع المتوفاة سنة ٨٤٠هـ قائلا، فى نبرة اعتزاز لا تخفى على أحد، إنها "كانت أجود أهل زمانها بالأدب والفضل، وكانت حسنة الخط في الغاية مع سرعة الكتابة وفرط صحتها . حُكِيَ أنها كتبت يوما ورقة وأرسلتها إلى الوزير الكندري، فتعجب من حسن خطها وبلاغة معانيها، فأعطاها ألف دينار . وكان لها اطلاع تام في معرفة التواريخ، وتحفظ شيئًا كثيرا من أشعار العرب" . وشاهِدُنا فى هذا الكلام هو حديث الخطيب فى لهجة مدحية قوية عن مقدرة تلك السيدة على الكتابة وموهبتها الخطية الجميلة، فضلا عن تبحر علمها واتساع قراءتها فى كتب التاريخ، وهو ما يسير عكس كلام الآلوسى تماما، ومع ذلك يهمل د . عبد الله الغذامى هذا المؤلفَ وأمثاله، وهم الأغلبية الساحقة من الكتاب والمؤلفين. فلماذا ؟

ترى ما حكاية القانون التاريخى ذلك الذى يتحدث عنه د . الغذامى؟ إن القانون التاريخى هو جزء من القوانين الكونية، أى الأوضاع التى تجرى عليها الأشياء والكائنات ولا يمكنها أن تخرج عنها، وإلا لعُدَّ هذا معجزة، وهو ما لا يقع إلا للأنبياء . بل إن القرآن، حينما كان الكفار يتحدَّوْن سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام أن يأتيهم بآية، أى أن يصنع لهم معجزة، كان يرد عليهم بكلام المولى سبحانه: "وما منعَنا أن نرسل بالآيات إلا أن كَذّب بها الأولون. . . " . وهذه القوانين هى النظام الذى يسير الكون عليه منذ خلقه الله سبحانه وتعالى. فلو كان الكلام كما يقول د . الغذامى لكان معناه أن تحريم الكتابة والقراءة على الفتيات والنساء قانون أبدى لا مفر منه مهما حاول المحاولون الخروج عليه وتعليم النساء أن يقرأوا ويكتبوا . فهل الأمر كذلك؟ لقد قلنا إنه، فى الوقت الذى صدر فيه كتاب الآلوسى، كانت الفتيات فى مصر ولبنان وغيرهما من بلاد العرب يتعلمن فى المدارس العلوم والفنون المختلفة، لا القراءة والكتابة فحسب، فضلا عن التعليم الخاص الذى كانت توفره الأسر الغنية لبناتها فى البيوت على يد معلمين ومعلمات خصوصيين وخصوصيات. ثم ها هى ذى مدارس البنات قد انتشرت فى جميع أرجاء العالم العربى والإسلامى بحيث لم تعد هناك بنت لا تتعلم. وقبل ذلك كان النساء العربيات يتعلمن القراءة والكتابة وينظمن الشعر ويجلسن للتعليم، تعليم الرجال قبل النساء: فقيهات ومحدثات، ولا يكتفين بتحبير الرسائل الغرامية كما يخشى كارهو تعليمهن. ألم تكن عائشة وحفصة مثلا تعرفان القراءة والكتابة، وهما زوجتا رسولنا الأمى الذى لم يكن يستطيع قراءة ولا كتابة؟ وهذا فى عالمنا نحن العرب

---

[١] تُوُفِّىَ عام ١٨١٧م.

والمسلمين وحده، وهو ما لا يمثل من العالم كله إلا كسرا صغيرا . ولقد قرأت فى بعض المنتديات أن كتاب الآلوسى لا يزال مخطوطا لم يحقق أو ينشر. فهو إذن بلا قيمة. بل لقد قرأت فى ترجمة الآلوسى بموسوعة "دهشة" المشباكية ما قاله العلامة العراقى محمد بهجة الأثري المعاصر للآلوسى من أن الآلوسى قد ألّف هذا الكتاب فى وقت كان لا يزال عنده بعض التأثر بمحيطه الجامد . فغالب الظن إذن أنه لم يثبت على ما سجله فى ذلك الكتاب عن تعليم المرأة. فكيف يقال إن تحريم القراءة والكتابة على النساء هو قانون تاريخى ؟

كذلك قد فات الغذامى، الذى يفوته الكثير والكثير، أن القانون، تاريخيا كان أو غير تاريخى، لا يُفْرَض على الحياة فرضا بل يستنبط منها، بمعنى أنه ليس من المعقول أن يكتب أحدهم مثلا بأنه متى أُلْقِىَ حجرٌ من نافذة فيجب ألا يسقط إلى أسفل بل عليه أن يرتفع إلى الأعلى حتى لا يصيب رأس أحد فيهشمه أو يجرحه. إننا فى مجال القوانين الكونية لا نفرض ما نريد، بل ينحصر دورنا فى استنباط ما نلاحظ. والقانون التاريخى يمثل جانبا من القوانين الكونية. والآلوسى، عندما كتب ما كتب، لم يكن يستنبط شيئا، بل كان يحاول أن يفرض رؤيته على المجتمع. بيد أن الغذامى لا يبالى بما يخطه قلمه كما قلت، بل يخبط عباراته كيفما اتفق.

كما أن الآلوسى، حتى لو افترضنا أن ما يكتبه هو قانون تاريخى طبقا لما يريد الغذامى، لم يكن كاتبا عالميا يخاطب الناس فى كل أرجاء المعمورة، بل كاتبا عربيا كان يعيش فى فترة تاريخية معينة، وهى فترة كان العرب والمسلمون فيها متخلفين أشد التخلف على ما هو معروف. فكيف نتهم اللغة، اللغة بمعناها المطلق، اللغة عند كل الأمم، اللغة فى كل العصور، بأنها ذكورية بناء على كلمتين قالهما الرجل لا راحتا ولا جاءتا ولا اهتم أحد بهما ولا أثرتا فى أوضاع بلادنا تأثيرا يذكر أو لا يذكر؟ فانظر، أيها القارئ، يا هداك الله وهدانى معك وهدى أخانا د . الغذامى، كيف ينطلق د . الغذامى حين يكتب غير مبالٍ بمنطق أو عقل أو علم. لقد لاحظتُ هذا فيما يكتب منذ أول كتاب قرأته له وأنا بالطائف المأنوس فى بدايات تسعينات القرن الماضى حين سمعت بعض من حولى أول قدومى إلى السعودية يذكر الرجل بتبجيل ومهابة باعتبار أنه مفكر سعودى خطير الشأن، وهو ما دفعنى إلى البحث عن كتبه، وقرأت بعضها، وكان أولها كتابه: "الخطيئة والتفكير"، الذى كتبت عنه وعن غيره من كتب الرجل فصلا طويلا سجلت فيه خيبة أملى فيه ورصدت ما لاحظته على كتاباته من مآخذ قاتلة، وأهمها الثرثرة دون ضابط ولا رابط ودون اعتبار لما اصطلح عليه الناس فى نظام لغتهم. إنه قطار منطلق دون كوابح، قطار مؤهل لارتكاب المصائب فى كل لحظة.

وأخيرا لماذا يعد كتاب الآلوسى قانونا تاريخيا، ولا يعد كتاب الأصفهانى: "الإماء الشواعر"، أو كتاب ابن طيفور: "بلاغات النساء"، أو كتاب السيوطى: "نزهة الجلساء فى أشعار النساء"، أو كتاب ابن القيم: "حكم تعليم النساء"، أو كتاب "المرشد الأمين فى تعليم البنات والبنين" لرفاعة الطهطاوى، أو كتاب "الإصابة في استحباب تعليم النساء الكتابة" للشيخ محمد العسافي التميمى، أو كتاب "عقود الجمان في جواز تعليم الكتابة للنسوان" لأبى الطيب محمد شمس الحق آبادى، أو كتاب قاسم أمين: "تحرير المرأة" مثلا، هو القانون التاريخى، وبخاصة أن هذه الكتب تمشى فى نفس اتجاه ديننا العظيم، وتمثل وضع المرأة فى الحضارة الإسلامية؟ بل لماذا لم يَعُدّ الغذامى قبل ذلك كله حديث الرسول: "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة" أو حديثه الآخر: "أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها، وأدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران" أو سروره بتعليم الشفاء بنت عبد الله السيدة حفصة القراءة والكتابة هو ذلك القانون التاريخى؟ مجرد سؤال!

وقد وقعت على مقال مشباكى هام بموقع "alislah.org" عنوانه: "باحث مسلم يكتشف ثمانية آلاف عالمة بالحديث النبوى" يحسن إيراده هنا حتى يعرف القارئ كَمّ التدليس الذى يمارسه عليه د. الغذامى لغرض فى نفس يعقوب. يقول المقال: "وضع محمد أكرم ندوي الباحث المسلم في مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية في بريطانيا قاموسا بيوغرافيا للمحدّثات المسلمات جاء في ٤٠ مجلدا. ويرى الباحث أنه كان يعتقد، حين بدأ إعداد بحث عن عالمات الحديث النبوي الشريف في العالم الإسلامي، أنه لن يهتدي إلى أكثر من ٢٠ أو ٣٠ منهن. بيد أن رحلة البحث قادته إلى اكتشاف ٨ آلاف محدّثة. وبدلاً من كتاب واحد يحوي سِيَرَهُنَّ وجد أن قاموسه البيوغرافي للمحدّثات المسلمات استغرق ٤٠ مجلدًا. بدأ ندوي (٤٣ عاما) بحثه قبل ثماني سنوات بالعكوف على تأليف قاموس للسير الذاتية للعالمات بالحديث النبوي الشريف. وقاده الغوصُ والتنقيبُ في معاجم العلماء والكتب التاريخية ووثائق الكتاتيب ورسائل شيوخها وفقهائها إلى فقيهة ولدت في بغداد في القرن العاشر جالت على سورية ومصر لتعليم النساء. وأفضى به بحثه إلى محدّثة مصرية في القرن الثاني عشر أذهلت طلبتها من الرجال بحفظها نصوصا تعادل حِمْل جمل! وعثر أيضاً على سيرة محدّثة برعت في تدريس علم الحديث في المدينة المنورة في القرن الخامس عشر. بل اهتدى إلى عالمة في المدينة المنورة بلغت مرتبة الفقيهة في القرن السابع، وكانت تفتي في شؤون الحج والتجارة. ويطوف معجم المحدّثات الذي ألفه ندوي على عالمة عاشت في مدينة حلب السورية في العصور الوسطى لم تكن بارعة في الإفتاء فحسب، بل كانت تقدم المشورة لزوجها الأكثر شهرة منها في كيفية إصدار فتاواه. ووصفت صحيفة أميركية المعجم بأنه مذهل،

وذلك بعدما أشارت إلى أن الإسلام عرف تعليم النساء منذ نشأته، خصوصا الأحاديث النبوية التي روتها أم المؤمنين السيدة عائشة. وتقديرات المستشرق جولدتسيهر أن نحو ١٥ في المائة من علماء الحديث النبوي المسلمين في العصور الوسطى كنَّ من النساء. وتشير الصحيفة إلى العالمة السورية أم الدرداء، التي نبغت في تدريس علوم الحديث في دمشق خلال القرن السابع، وكان خليفة الدولة الأموية من بين طلبتها. ويقول ندوي إنه يأمل بأن يقود صدور معجمه إلى إحياء سنة تعليم البنات شؤون دينهن. ويضيف أن النساء العالمات اللاتي درّسن الرجال هن جزء من تاريخنا". والآن ألا يحق لنا أن نتساءل وكلنا دهشة وغضب: كيف يا ترى ينقضّ الغذامى على مثال الآلوسى ويقبض عليه بأسنانه وأظافره، ويترك كل ما عداه؟

ومن مقال آخر نشره حسن المسعود على المشباك بعنوان "المرأة والخط" نقتطف السطور التالية التى تدلنا بما لا مجال فيه للمماحكة على أن كثيرا من النساء المسلمات، وهن اللاتى يُهِمْننا هنا، كن يكتبن لا بخط عادى فقط بل بخط جميل أيضا، إذ كان هناك خطاطات بارعات عربيات ومسلمات حفظ التاريخ لنا أسماءهن، وهو ما يدحض دعوى د. الغذامى التى لا تنهض على أى أساس سوى الادعاء والتحذلق: "في بداية الاسلام يذكر لنا التاريخ أسماء بعض النساء يمارسن الخط، ومن بينهن حفصة، الشفاء القرشية، عائشة، كريمة بنت المقداد، هند زوجة أبي سفيان، أم كلثوم بنت عقبة. وفي العصر العباسي في بغداد، كما في كل مكان كتبت به الألفباء العربية، كان هنالك العشرات من الخطاطات يعملن في المكتبات لنسخ الكتب. كذلك في الأندلس. وربما يبالغ بعض المؤرخين بالقول إن في جامع غرناطة وحده كانت تعمل بشكل يومي ألف امرأة لنسخ الكتب.

ومن مئات أو آلاف الخطاطات ذكر لنا التاريخ بعض الاسماء على فترة زمنية تقارب الألف سنة. وعلى الرغم من كون بعضهن كنّ يمارسن هوايات ومهنا أخرى، لكن التاريخ يسجل لهن دورا حقيقيا في حيوية فن الخط العربي واستمراره. وهنا نذكر بعضهن: الخطاطة فضل من القيروان تركت مصحفا بخطها ٩٠٧م– الخطاطة الشاعرة لبنى عبد المولى، عالمة بالنجوم والحساب والعروض، كانت كاتبة للخليفة المستنصر بالله. توفيت عام ٩٨٤م– الخطاطة القرطبية عائشة بنت أحمد، التي قيل عنها: لم يكن في زمانها من حرائر الاندلس من يعادلها علما وفهما وأدبا وشعرا، وكان لها مكتبة كبيرة. توفيت عام ١٠٠٩م– الخطاطة درة من المشهورات في نسخ الكتب. تركت مصحفا بخطها. توفيت عام ١٠١٩م– الخطاطة فاطمة البغدادية اختيرت عام ١٠٨٧م لخط معاهدة الصلح بين خليفة بغداد القائم بالله وبين ملك الروم في بيزنطة. ويقال عنها إنها كانت من أحسن الناس خطا على طريقة ابن البوّاب–

الخطاطة زمرد بنت جاولي أخت الملك الدقاق صاحب دمشق. استنسخت عدة كتب وشيدت المدرسة الخاتونية. توفيت عام ١١٦١م– العالمة الخطاطة شهدة بنت الإبري (١٠٨٩– ١١٧٨م). كانت تعلم عددا كبيرا من هواة الخط. وقد تعلمت الخط من أحد تلاميذ ابن مقلة، وتعلم منها الخط ياقوت الحموي– الخطاطة سيدة الغتبدي. ولدت في تونس. نسخت بيدها عدة كتب، وعلمت ابنتيها اللتين واصلتا الخط بعدها. توفيت عام ١٢٤٩م– الخطاطة عائشة بنت عمارة، شاعرة مغربية في القرن الرابع عشر خطت بيدها "يتيمة الدهر" للثعالبي في ثمانية عشر جزءا– الخطاطة عائشة الباعونية، شاعرة أدبية وفقيهة لها مؤلفات كثيرة خطتها بيدها محفوظة في دار الكتب بالقاهرة. توفيت عام ١٥١٦م. وقد أقيمت ندوة عن أعمالها الأدبية في الأردن عام ٢٠٠٧م– الخطاطة فاطمة الحلبية. ولدت عام ١٤٧٣م. اشتهرت بحسن خطها، وتركت كتبا مخطوطة–الخطاطة مريم بنت مصطفى. استنسخت بعض الكتب منها "مختار الصحاح" للرازي ١٥٥١م– الخطاطة زينب الشافعي، عالمة أديبة وشاعرة ولدت في دمشق عام ١٥١٠م، وتركت كتبا مخطوطة بيدها– الخطاطة أسماء عبرت. ولدت عام ١٧٨٠م تركت لوحة حلية محفوظة في قصر طوب كبير، إسطنبول، تركيا– الخطاطة رابعة بنت ملا نازك (القرن الثامن عشر). تركت كتاب "شرح المواقف"، وكتبت النص بأسلوب النسخ وبحروف سوداء، والعناوين باللون الاحمر– الخطاطة فاطمة بنت ابراهيم (القرن الثامن عشر). كانت عالمة تجيد أساليب خط النسخ والثلث والجلي ديواني– الخطاطة زاهدة بنت عالى باشا. بعض خطوطها في مساجد وتكايا الأستانة ١٨٧٣م– الخطاطة حافظة خاتون. كانت تجيد أساليب النسخ والثلث، وتركت رقعا خطية وآيات قرآنية. توفيت في بغداد عام ١٩٢٨م– الخطاطة صالحة خاتون. ولدت في بغداد، ودرست الخط على يد سفيان الوهبي، وكتبت مصحفا محلى بالذهب بقلم النسخ والثلث على قاعدة ياقوت المستعصمي– فضة البلاغي. ولدت في النجف، وتوفيت عام ١٨١٨م. خطت كتاب "كشف الغطاء" بحوالي ٣٥٠ صفحة.

وفي زمننا الحالي تواصل العديد من الخطاطات في العالم العربي– الاسلامي الخط. وكما ذكرت أعلاه فإن هذه الأسماء تغطي أكثر من ألف سنة للتأكيد على حضور الخطاطات باستمرار في الزمن الماضي. ولكن هنالك روايات عديدة تقول بوجود قاعات لنسخ الكتب فيها العشرات من النساء. ويذكر المؤرخون مثلا أنه كان في مكتبة قرطبة مائة وسبعون امرأة ينسخن المصاحف. كما توجد أخبار مشابهة لمكتبات أخرى عديدة في العالم العربي– الإسلامي. ومما يروى عن الخط سابقا هذه القصة الطريفة التي حدثت في زمن الكامل أبي الفتح عام ١٢٢٦م: فقد أُحْضِرَت امرأة اسمها خداوري من

الإسكندرية وُلِدَتْ من غير يدين، فجيء بها بين يدي الوزير رضوان، فعرَّفته أنها تخط برجليها، فأحضر لها دواة، فتناولت برجلها اليسرى قلما، فلم ترض شيئًا من الأقلام المبرية التي أحضروها، فأخذت السكين وبرت لنفسها قلما وشَقَّته وقَطَّه، وأخذت ورقة فأمسكتها برجلها اليسرى، وكتبت باليمنى أحسن مما تكتبه النساء بأيديهن. وعند ضعف بصر الخليفة الناصر لدين الله في أواخر أيامه استحضر خطاطة تدعى: ست نديم البغدادية، كانت تكتب خطا قريبا من خطه، فجعلها بين يديه تكتب الأجوبة والرقاع.

الأجواء الحضارية كانت تشجع الحضور للمرأة في مجال الفن. فعندما أسس الخليفة المأمون دار الحكمة، وأراد ترجمة كل كتاب معروف في العالم إلى اللغة العربية، شجع ذلك مهنة الخط للرجال والنساء. وفي أحد الايام، وهو يتجول في مكتبته الكبيرة، ينظر الخليفة إلى أصابع شابة خطاطة اسمها منصف، فتملي عليه قريحته هذه الابيات:

أرَاني مَنَحْتُ الحُبَّ من ليـــــس يعـــرفُ		فمـــا أنصَفَتْني في المَحَبّةِ مُنْصِـــــفُ
سريعة جَرْيِ الخـط تنظـــم لـــؤلـــؤا		وينثـــر دُرًّا لفظُهـــا المترشـــــف
وَزادت لدينـا حُظْـــوةً ثم أَعْرَضَـــــتْ		وفي إصبعَيْهـــا أسمــــرُ اللونِ أهيفُ
أصمٌّ، سميـــعٌ، ساكـــنٌ، متحـــركٌ		ينالُ جَسِيمات العُلَى وهو أعجــــــفُ

. . . ويعجب أحمد بن صالح بشابة خطاطة "كأن خطها أشكال صورتها، وكأن مدادها سواد شعرها، وكأن قرطاسها أديم وجهها، وكأن قلمها بعض أناملها، وكأن بيانها سحر مقلتها، وكأن سكينها سيف لحظها، وكأن مقطها قلب عاشقها" . . . ومن تعليق لأبى الفرج الاصبهاني حول عريب، وهي امرأة مشهورة في زمن المأمون تمارس الخط أيضا: "كانت مغنية محسنة وشاعرة صالحة الشعر، وكانت مليحة الخط والمذهب في الكلام، ونهاية في الحسن والجمال والظرف وحسن الصورة وجودة الضرب وإتقان الصنعة، والمعرفة بالنغم والاوتار، والرواية للشعر والأدب".

وفى "الإصابة" لابن حجر العسقلانى لما دخل نصر بن حجاج البصرة كان يدخل على مجاشع بن مسعود لكونه من قومه، ولمجاشع امرأة جميلة يقال لها: الخضراء، فكان يتحدث مع مجاشع، فكتب نصر في الأرض: إني أحبك حبا لو كان فوقك لأظلك أو كان تحتك لأقلك. وكانت المرأة تقرأ، ومجاشع لا يقرأ، فرأت المرأة الكتابة فقالت: وأنا. فعلم مجاشع أن هذا الكلام جواب، فدعا بإناء فكبَّه على الكتابة ودعا كاتبا فقرأه، فعلم نصر بذلك فاستحيا وانقطع في منزله، فضَنِىَ حتى صار كالفرخ. . .".

وفى "المطرب من أشعار أهل المغرب" لابن دِحْيَة الكلبى، و"بدائع البدائه" لابن ظافر الأزدى: "قال ابن

شرف: واستخلانا المعزُّ (بن باديس) يوما وقال لنا: أُحِبّ أن تصنعا لي شعرا تمدحان فيه الشَّعْر الرقيق الخفيف، الذي يكون في سوق بعض النساء، فإني أستحسنه، وقد عاب بعضُ الضرائر بعضَ من هذا فيه، وكلهن قارئات كاتبات، فأُحِبّ أن أُرِيَهُنّ هذا، وأَدَّعِى لهن أنه قديم لأحتج به على من عابه، وأَسُرّ به مَنْ عِيبَ عليه. فانفرد كل منا وأتممنا الشعرين في الوقت". والشاهد فى الحكاية أن الضرائر اللاتى يشير المعز إليهن كن جميعا قارئات كاتبات.

ولعبد الله عفيفى كتاب بعنوان "المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها" تتبع فيه وضع المرأة العربية طوال تاريخها قبل الإسلام وبعده، وأورد الكثير من الروايات التى تبين المكانة الاجتماعية والعلمية والأدبية التى بلغتها . والكتاب كبير، وسوف أجتزئ منه ببعض الفقرات الدالة على مساهمتها الواسعة فى مجال العلم ومعرفتها للكتابة والقراءة مثل الرجل سواء بسواء، على عكس ما يحاول د . الغذامى إيهام القراء به اعتمادا على نص منزو فى كتاب لا يعرفه إلا الذين يبحثون بمنكاش عن مثله يريدون من وراء النكش شيئًا بعينه. قال عفيفى مثلا عن المرأة فى ميدان رواية الحديث: "امتازت العالمة المسلمة بالصدق في العلم والأمانة في الرواية والحيدة عن مواقع التهم ومساقط الظّنَن مما لم يوفق إليه كثيرون من الرجال. ومعاذ الله أن نقول ذلك محاباة أو مشايعة لموضوع كتابنا . فنحن أولاء ضاربون لك مثلا من إقرار عظماء بما نقول: الحافظ الذهبي المتوفَّى سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ثقة من ثقات المسلمين وعظيم من عظماء المحدّثين، ألف كتابه: "ميزان الاعتدال" في نقد رجال الحديث خرّج فيه أربعة آلاف متهم من المحدثين، ثم أتبع قوله بتلك الجملة التي كتبها بخطه الواضح وقلمه العريض فقال: "وما علمتُ من النساء من اتُّهِمَتْ ولا من تركوها". ولعل قائلا يقول: وما للنساء ورواية الحديث؟ وهل تركهن الذهبي إلا من قلة أو ذلة؟ ونقول نحن إن حديث رسول الله منذ عهد عائشة أم المؤمنين حتى عهد الذهبي ما حُفِظ ولا رُوِيَ بمثل ما حُفِظ في قلوب النساء ورُوِيَ على ألسنتهن. ذلكم الحافظ ابن عساكر المتوفَّى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة أوثق رواة الحديث عقدة، وأصدقهم حديثًا، حتى لقبوه بـ"حافظ الأمة"، كان له من شيوخه وأساتذته بضع وثمانون من النساء. فهل سمع الناس في عصر من العصور وأمة من الأمم أن عالمًا واحدًا يتلقى عن بضع وثمانين امرأة علمًا واحدا؟ فكم ترى منهن من لم يلقها أو يأخذ عنها، والرجل لم يجاوز الجزء الشرقي من الدولة الإسلامية، فلم تطأ قدمه أرض مصر ولا بلاد المغرب ولا الأندلس، وهي أحفل ما تكون بذوات العلم والرأي من النساء . . .

لم تقف بالمرأة العربية قريحتها عند حدّ النبوغ في التشريع الإسلامي والأدب العربي، فقد أخذت بنصيب موفور من النهضة التي استحدثها المسلمون عمَّن سواهم من الأمم ذوات التاريخ الحافل والمجد القديم. وأخص ما عُنِينَ به الطب. فهنّ، فوق ما ورثنه عن أمهاتهن من أَسْو الجراح وجَبْر العظام، بَرَعْنَ إلى غير حدّ في بقية فروع الطب مما نقلوه عن اليونان والسريان والهند حتى كانت بغداد وقرطبة وما سواهما من مدن العراق والأندلس مسارح للكثيرات منهن ممن خُصِصْنَ بعلاج الأجسام ما ظهر منها وما بطن. ومن هؤلاء أخت الحفيد بن زهر الأندلسي وابنتها، فقد حدّث صاحب "طبقات الأطباء" عن نفوذهن في فروع الطب جميعًا، وفي أمراض النساء خاصة، وكان المنصور بن أبي عامر وارث الخلافة الأموية بالأندلس لا يدعو لنسائه وعامة أهله غيرهما . ومنهن زينب طبيبة بني أود، وكان أخص ما برعت فيه علاج العين بالجراحة أو إجراء العمليات الجراحية للعين. وغير أولئك كثيرات، وسنختصهن ببحث طويل في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

ولا يفوتنا أن نختم حديثنا بشيء مما كتبه الكاتب الفيلسوف العظيم جوستاف لوبون في كتابه: "حضارة العرب" عن المرأة المسلمة وأثرها العلمي. قال: "أما نباهة شأن المرأة وسمو مكانها في عصور العرب الواهية فمما ينبئ عنه عدد اللواتي امتزن بنفاذهن في العلوم والآداب من نساء العرب" . ولقد نبغ منهن عدد موفور في العهد الأموي بالأندلس، والعباسي ببلاد المشرق. ولنذكر من بين أولئك وَلاّدَة بنت المستكفي بالله أمير المؤمنين بالأندلس. كتب كوند مجملا عمن كتب من مؤرخي العرب عن الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر، قال: كان هذا الخليفة وسط ما يحيط به من بدائع "الزهراء" وعجائبها يسره أن يستمع الغناء مما كانت تصوغه جاريته وصاحبة سره مُزْنة من الأناشيد العذبة الرقيقة. ومن أولئك الناهضات النابهات عائشة إحدى بنات السَّراة بقرطبة. وهي التي يقول ابن حيان عنها إنها أجمل وأعقل وأعلم نساء عصرها، وكانت من أفتن النساء بجمالها وأدراهن بفنون الشعر. ومما قال بعض المؤرخين عن الحَكَم بن الناصر: "في ذلك العهد الذي أُولِعَ فيه أهل الأندلس بالشعر وجَنَوْا قِطَاف الفنون والعلوم كان النساء في عزلتهن يقبلن على الدرس وينصرفن إليه، وأكثرهن قد امتاز بمضاء الذكاء وانفساح مدى العلم. وكان في قصر الخليفة بين نسائه لُبْنَى تلك التي جمعت إلى جمالها الساحر إحاطتها بالنحو والشعر والرياضة وما سوى ذلك من علوم وفنون. وكانت تكتب رسائل الخليفة بأسلوب يملأ النفس روعة، وخَطٍّ يملأ العين جمالا، فهي كاتبة قصره، ومنشئة رسائله. ولم يكن بين نساء القصر من يساميها عقلا وفطنةً ورشاقة لفظ وسماحة قافية. وفاطمة، وَمَثَلُها في رجاحة العقل وسماحة القول مَثَلُ لبنى. وكان شعرها كِفَاء نثرها، وفي كليهما أمعنت حتى بلغت غاية لا تنال. وكان العلماء

والشعراء يطربون لشعرها وما فيه من ألق وإبداع. ولها مكتبة جمعت أَجَلَّ الكتب وأنفسها . ومنهن خديجة، وهي التي جمعت، إلى عذوبة المنطق وروعة الشعر، رخامة الصوت والذهاب في فنون الغناء . ومريم، التي كانت تغدو على بنات سادات إشبيليه فتعلمهن القريض، وكان لها في التعليم ذكر نابه وشهرة ذائعة. وقد تخرج في مدرستها طائفة عظيمة من شهيرات النساء . وراضية، ويدعونها: "الكوكب الزاهي"، وهي التي وهبها الناصر لابنه الحكم، وكانت آية العصر في الأدب والتاريخ. وقد تنقلت في بلاد المشرق إثر موت الحكم، فكانت موطن الإجلال والإكبار من العلماء جميعًا".

ومن كتاب "تاريخ آداب العرب" لمصطفى صادق الرافعى ننقل بعض أسماء النساء الأديبات الكاتبات فى الأندلس. قال: "سبقت لنا كلمات خفيفة عن الأدب النسائي في الأندلس، وعَدَدْنا أسماء بعض جواري عبد الرحمن الأوسط. وسنعد الآن المشهورات من سائر أولئك الأديبات: فأُولاهُنَّ وأَوْلاهُنَّ بالتقديم لبنى كاتبة الخليفة الحكم المستنصر بالله، أي ناسخة. كانت تكتب الخط الجيد، نحوية شاعرة عروضية بصيرة بالحساب مشارِكة في العلم لم يكن في مصرهم أنبل منها، وتوفيت سنة ٣٧٤. وقد عدها السيوطي في "طبقات اللغويين والنحاة". وكانت تعاصرها حسانة التميمية بنت أبي الحسن الشاعر، والشاعرة الغسانية، وحفصة بنت حمدون. واشتهرت بعدهن عائشة القرطبية المتوفاة سنة ٤٠٠. لم يكن في زمنها من حرائر الأندلس من يَعْدِلها علمًا وفهمًا وأدبًا وشعرًا وفصاحة. تمدح ملوك الأندلس وتخاطبهم بما يعرف لها من حاجة. ثم اشتهرت في آخر القرن الخامس مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري الشاعرة المشهورة، وهي التي كانت تعلم النساء الأدب. وقد كثرت الأديبات في هذه المائة، فكان فيها أم العلاء بنت يوسف الحجارية، والعروضية مولاة أبي المطرف بن غلبون اللغوي، وقد أخذت عن مولاها النحو واللغة، وفاقته في ذلك، وبرعت في العروض. وكانت تحفظ "الكامل" للمبرد، و"النوادر" للقالي وشرحهما (ص٤٣٠ ج ٢: نفح الطيب)، ويؤخذ عنها الأدب، وتوفيت سنة ٤٥٠. وولّادة الأديبة الشهيرة المتوفاة سنة ٤٨٤، ومهجة القرطبية صاحبتها وتلميذتها، ونزهون الغرناطية البارعة، وحمدونة بنت زياد المؤدب التي يلقبونها بـ"خنساء المغرب" لقوة شعرها وسمو إبداعها، ولها شعر مطرب (ص٤٩١ ج٢: نفح الطيب). والعبادية والدة المعتمد، واعتماد حَظِيّته، وبثينة بنته، وأم الكرام بنت المعتصم بن صمادح، وغاية المنى جاريته، وغيرهن. ثم اشتهر في أوائل القرن السادس الأديبة الشلبية، وأسماء العامرية، وحفصة الركونية، وهي أديبة الأندلس في هذه المائة".

ووجد في التاريخ الإسلامي نوابغ من النساء في كافة الفنون والعلوم. ولم تغفل كتب الطبقات الترجمة للمرأة المسلمة، ففي كتاب "الطبقات الكبرى" لابن سعد مثلا ذكر كثير من الصحابيات

والتابعيات الراويات. وخصص ابن الأثير جزءا كاملا للنساء في كتابه: "أُسْد الغابة". وفي "تقريب التقريب" لابن حجر العسقلاني أسماء ٨٢٤ امرأة ممن اشتهرن بالرواية حتى مطلع القرن الثالث الهجري. وأورد السخاوي في "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" أكثر من ١٠٧٠ ترجمة لنساء برزن في ذلك القرن معظمهن من المحدثات الفقيهات. فالمرأة المسلمة كانت تتعلم وتعلم، ويقصدها الطلاب لأخذ العلم عنها، وتصنف الكتب وتفتي. وفي وقت من الأوقات لم تكن العروس تجَهَّز إلا ومعها بعض الكتب الشرعية النافعة. ذكر الإمام الذهبي أن البِكْر كان في جهازها عند زفافها نسخة من كتاب "مختصر المزني". وكان في قرطبة وحدها دكان نسخ واحد يستخدم مائة وسبعين جارية في نقل المؤلفات لطلاب الكتب النادرة. وقد نقلت هذه الفقرة من مقال بمنتدى "ملتقى أهل الحديث" عنوانه: "المرأة العاملة" كتبته أم أحمد المكية، وأوردت فيه مراجعها التى استندت إليها فى كل ما ذكرته.

ثم إننا نفاجأ، بعد كل ما قاله د. الغذامى عن ذكورية اللغة طوال صفحات الكتاب، أن نسمعه يقول (ص١٨١) إن اللغة كانت فى الأصل أنثوية ثم صارت ذكورية. متى؟ وكيف؟ ومن الذى شاهد ذلك؟ وأين الدليل؟ ثم ما المقصود بأنثوية اللغة وذكوريتها؟ لا جواب لدى الكاتب على هذه الأسئلة للأسف. والواقع أن اللغة ليست ذكورية ولا أنوثية، بل تعبر عن الذكورة والأنوثة جميعا وتتيح لكل من الطرفين أن يقول ما يريد عما يريد. وبالمناسبة فالغذامى فى الواقع لا يقصد اللغة بل التقاليد، إلا أنه يخلط بين هذا وذاك. فاللغة لم تنزل جاهزة على البشر بحيث يصح أن نصنفها على أنها ذكورية أو أنثوية، بل هى انعكاس لأوضاع المجتمع وتقاليده وتفكيره وقيمه ومبادئه... إلخ. إلا أن قطاعا ضخما من مثقفينا يردد ما يصله من الفكر الغربى بعُجَره وبُجَره دون أن يُعْمِل فيه عقله النقدى، بل أحيانا ما تكون مهمته التى يكلَّف بها أن ينشر هذا الفكر ويُسَوِّقه بين الناس حتى لو بان له أنه فكر معطوب أو مدخول.

والمضحك أن د. الغذامى، رغم ذلك كله، يقول (ص٥٧ وما بعدها) إن شهرزاد كانت تمارس على شهريار الرجل سلطة اللغة. أى أن الأنثى كانت تملك اللغة كما يملكها الرجل فى تلك العصور، أى قبل زمن الكتابة، وتتسلط بها عليه وتهبه عن طريقها سكينة الروح وشفاء النفس طبقا لكلامه (ص٦١– ٦٢)، وأنها قد مارست فى "ألف ليلة وليلة" كل شىء من الإبداع اللغوى شعرا وأمثالا وخيالا وتمثيلا (ص٦٨)، وهو ما ينقض كل ما قاله من قبل. بل إنه ليجعل "ألف ليلة" كلها نصا أنثويا (ص٦٨، ٧٢)، بما يعنى أن اللغة ليست ذكورية دائما، فها هو ذا نص لغوى ساحر يتسلط على الرجال ويغيرهم إلى ما تريده المرأة، وفى نفس الوقت هو نص أنثوى. فالنص عنده تأليف أنثوى، وهو ما يعنى

أن الكتابة (بمعنى التأليف، وهو المهم) كانت معروفة لدى النساء حتى لو كان الرجل هو الذى يدون ما تكتب المرأة كما هو الحال هنا حسب كلامه (ص٦١، ٦٨) . لقد قال ذلك فى البداية فى شىء من التردد، ثم عاد فقاله بيقين لا أدرى من أين له به (ص٨٠- ٨١، ٨٣) . ليس ذلك فقط، بل إن المرأة التى ألفته قرأت، حسب كلامه، المئات من أمهات الكتب العربية والإسلامية (ص٧٠) . كذلك فالكتاب يثبت أن المرأة أفضل من الرجل فى كل شىء (ص٨٥)، وهو ما ينقض كل ما قاله من أساسه، إذ ها هو ذا مجتمع ذكورى يقبل أن تؤلف امرأة كتابا تثبت فى قصة من قصصه (هى قصة "تودد" الجارية) أن المرأة أفضل من الرجل ولا يفكر الرجل فى مصادرة الكتاب أو البحث عن مؤلفته لمعاقبتها . وطبعا نحن لا نؤمن بأن مؤلفة الكتاب هى شهرزاد، بل هو تأليف رجالى كما هو معروف، إلا أننا نأخذ المؤلف بما يقول لنبين ما فى كلامه من تناقض غير مقبول، وأن ما يكتبه لا يعدو أن يكون فقاقيع فكرية إن كان للفكر صلة بما يقول د . الغذامى. ثم إن جميع القصص التى خلفتها لنا الثقافة الإسلامية تقريبا هى قصص كتبها رجال وموجهة إلى الجمهور بنوعيه رجالا ونساء، وهو ما يعنى أن الحَكْى لم يكن مقصورا على المرأة، بل كان يمارسه الرجل على عكس ما يزعم الكاتب من أن الحكى وظيفة أنثوية. بل إن كثيرا من أبطال "ألف ليلة" هم الذين يروون بالفعل قصصهم لا شهرزاد .

ويتصايح الغذامى وأمثاله دوما بأن المرأة مقموعة قمعها الرجل، مع أن المرأة لم تكن يوما مقموعة بالمعنى الذى يقصدونه، فهى الحبيبة والخطيبة والابنة والزوجة والأم والأخت والجارة والخاطبة والطبيبة والممرضة والمدرسة والمحامية والشاعرة والكاتبة والإدارية، فهل كل هؤلاء مقموعات؟ وماذا نفعل بالأشعار التى تصورها قِبْلة قلب الرجل وحلم خياله ومحور وجوده وسر سعادته؟ ثم هل من الممكن أن كل زوجه كان يقمع زوجته على طول الخط فلا يأخذ رأيها ولا يستعين بها فى أى من أموره؟ وحتى لو كان يردد ما قد يقلل من قيمتها فى بعض الأحيان فحقيقة الأمر أن هذا من الأشياء التى يرددها الواحد منا، لكنه فى الواقع يسير على سنة أخرى غير ما يقول؟ والرجل قد يضيق بخلفة البنت، لكنه بعد قليل تغلبه مشاعر الأبوة والحنان والحب والخوف عليها والعمل على توفير حاجاتها وتزويجها . أما الأم فكان لها دائما وأبدا الاحترام والإجلال. . . كذلك فما سجله ابن الجوزى فى كتابه: "أخبار النساء" فى "باب ما جاء فى خلق النساء" من أوصافهن فى كل وضع وشكل وخلق ومنظر يدل على مدى اهتمام الرجل العربى بها ولا يمكن أن يكون دليلا على قمعه لها . وحتى لو كانت فى الظاهر خاضعة فإنها كثيرا ما تكون مخضوعا لها من جانب الرجل رغم ما قد يبدو من ضعفها . انظر مثلا إلى قول مى زيادة فى كلامها عن مُتْحَف اللُّوفْر: "هذا قصر الملك- الشمس، الذى كان يهاب صولة النساء

فى حين كان أصحاب التيجان يهابونه"[١] . ويُذْكَر أن القائد الفرنسى نابليون بونابرت قال لابنه يوما : أتعلم يا بنىّ أنك أقوى إنسان فى هذا العالم؟ فقال ابنه: وكيف يا أبى؟ قال نابليون: أنا أَحْكُم العالم، وأمك تحكمنى، وأنت تحكم أمك. وفى رواية أخرى أن قائل هذا الكلام أحد القواد الأثينيين. وفى كثير جدا من الأحيان كانت النساء ذوات سلطان قوى فى قصور الخلفاء العباسيين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين: الحرائر منهن والجوارى على السواء، وكذلك الأمر فى الغرب. وليس الذى صنعته مارى أنطوانيت، التى كانت السبب الحاسم فى انفجار الثورة الفرنسية ضد حكم زوجها لويس السادس عشر، ولا الذى صنعته مارى أنطوانيت الثانية، سوزان ثابت، بحسنى مبارك وبرجال الدولة بل بالدولة كلها، وكان سببا رئيسيا لقيام الثورة المصرية الأخيرة، بالذى يخفى على أحد . ودعنا من الكلام عن الفنانات والراقصات والمومسات والدور الذى يلعبنه فى أوساط كبراء الدول وينفِّذْن من خلاله ما يشأن دون حسيب أو رقيب. كما قامت بسبب المرأة الحروب كما فى حرب طروداة، التى اشتعلت بسبب هيلانة، والحرب التى اشتعلت واستمرت أربعين عاما بين قبيلتى بكر وتغلب فى الجاهلية بسبب البسوس خالة كليب، والحرب التى دارت بين المسلمين فى المدينة وبين اليهود بسبب المرأة التى ربط أحفاد القردة والخنازير ذيل ثوبها فى السوق فانكشفت سوأتها، وكما فى فتح عمورية بسبب المرأة التى اعتدى عليها الروم فى مدينة من مدن الحدود بينهم وبين الدولة العباسية، فصرخت: وامعتصماه! وكم ارتكبت جرائم قتل بسببها، إذ أغرت بيلاطسَ الحاكم الرومانى فى فلسطين قبيل دعوة المسيح عليه السلام الفتاةُ سالومى بنت زوجته فجَزَّ رقبة يحيى عليه السلام، كما حرضت إحدى جميلات الخوارج رجلا منهم على قتل علىّ بن أبى طالب، فقتله. وعندنا أيضا بلقيس والزباء وسجاح وكاهنة البربر وشجرة الدر والملكات الكثيرات اللاتى حكمن بلادهن فى أنحاء العالم .

ومن الناحية الأخرى لا ينبغى أن ننسى أن الرجل أيضا يمكن أن يكون مقموعا وتشترك فى قمعه المرأة كما هو الحال فى حالة فيصل أحد أبطال رواية "بنات الرياض"، الذى كان يحب ميشيل الأمريكية السعودية، ثم حين فاتح أمه برغبته فى الاقتران بها ثارت عليه ورفضت الفكرة، وكانت هى أول عائق فى سبيل تحقيق سعادته بحجة التقاليد وما إلى ذلك. ومثله فى ذلك فراس فى نفس الرواية. وأحيانا ما يطلِّق الرجل زوجته التى يهيم بها نزولا على إرادة أمه. فهذا قمع له على أيدى النساء . كما كان كثير من زوجات الملوك يقمعنهم فى غير قليل من الأحيان وينزلونهن على رغبتهن دون

[١] انظر أحمد الصاوى محمد/ باريس/ دار الكتب المصرية/ ١٣٥٢هـ- ١٩٣٣م/ ٢٨٣ من مقال لمى زيادة عنوانه: "باريس فى يوم الذكرى" .

أن يملكوا لما يقلن رفضا . وبالمثل تتحكم كثير من الزوجات فى أزواجهن ويقمعنهم. فليس القمع، إن كان هناك قمع عام للمرأة ولم تكن المرأة راضية بالوضع لا ترى فيه غضاضة وتراه شيئًا عاديا ولا تجده قمعا ولا يحزنون، هو من الرجل للمرأة دائما ، بل قد يكون من المرأة للرجل أيضا .

كذلك ينبغى التفرقة بين القمع المزعوم فى كثير من الحالات وبين قِوَامة الرجل على زوجته. فالحداثيون، الذين يهرفون بما لا يعرفون ويروجون ما يُطْلَب منهم ترويجه لمصلحة بعض الجهات، يخلطون بين هذا وذاك. نعم نحن مع قوامة الرجل على المرأة، لكننا فى ذات الوقت لسنا ولا يمكن أن نكون مع قمع الرجل للمرأة، بمعنى حرمانها من حقوقها وإهانتها وتحقيرها والنظر إليها على أنها أدنى فى الإنسانية من الرجل أو التطير بها على أساس أنها شؤم أو أن مشورتها تؤدى إلى خراب البيوت. . . إلى آخر هذا الهراء السمج، أما نشوزها على زوجها دون سبب سوى الاستجابة لما يروجه ويَزِنّ به على آذانها شياطين الإنس المدخولو الضمير الفاسدو النية فهذا ليس من الحقوق النسائية فى شىء، بل هو فراغ فى العين والعقل والقلب والضمير، والعياذ بالله. وإلا فهل كانت أمهاتنا وجداتنا وعماتنا وخالاتنا مقموعات لا قيمة لهن فى نظر أزواجهن ويعاملونهن كما لو كن حيوانات لا إنسانات؟ معاذ الله أن يكون هذا هو الوضع.

ومن تناقضات د . الغذامى أيضا التى تدل على الافتقار إلى التفكير المحكم اندفاعه (ص٧٢) فى الهجوم الصاعق على شهريار لأنه كان يقتل كل ليلة فتاة، وامتداحه فى نفس الوقت المجتمع النسائى الذى كان يقتل كل ولد يولد لأية امرأة منه وترحيبه وسروره الشديد بذلك (ص١١٢- ١١٣)، مع أن جريمة شهريار لا تتسامى إلى جريمة ذلك المجتمع النسائى كما هو واضح، إذ أقصى ما كان يفعله هو قتل زوجاته لما قاساه من خيانة بعضهن له، فى حين أن النساء فى تلك المجتمعات قد نَفَيْنَ الرجال تماما ، فكن يقتلن كل وليد ذكر، ويستقبلن بالليل الرجال ينامون معهن ثم ينصرفون بعد ذلك عن البلد . ألم أقل إن الأمر يحتاج إلى تشريح نفسى يضع الأمور فى نصابها فنعرف لم كل هذا العداء لجنس الرجال تظاهرا بالعطف على جنس النساء والزعم بأنهن مظلومات مقموعات، على شِنْشِنَة الغربيين، الذين يسعدون حينما يجدون من بين ظهرانينا نحن العرب والمسلمين من يردد كلامهم الذى يَدَّعُونه علينا وعلى مجتمعاتنا وقيمنا وديننا وأوضاعنا ؟

ومن الغريب غير المفهوم أن يصف د . الغذامى (ص١١٣- ١١٤) ما قاله القزوينى فى"آثار البلاد وأخبار العباد" عن الجزيرة التى لا يسكنها سوى النساء وعن تلقحهن من الريح ومن ثمار شجرة عندهن يأكلنها فيحبلن، بأنه خيال من خيالات النساء ردا على تعسف الرجال معهن، إذ أردن ألا

يكون للرجال فى حياتهن وجود، مع أن راوى القصة رجل هو القزوينى لا امرأة، كما أنه لم ينقلها عن امرأة، بل هى قصة منتشرة يرويها الجميع، ورواتها هم الرجال لأن الرجال فى تلك العهود كانوا هم الرحالة الذين يسافرون إلى البلاد البعيدة ويعودون فيحكون مثل تلك الحكايات. ولقد نص القزوينى نفسه على أن رجالا من الصين هم الذين أَتَوْا بخبر هذه الجزيرة بتكليف من ملكهم. لكن د. الغذامى يتجاهل هذا كله وينسب اختراع الحكاية إلى النساء، اللاتى يزعم أنهن إنما ابتدعنها انتقاما من جنس الرجال.

ومن المضحك، ومعظم ما يكتبه د. الغذامى مضحك، أنه يجعل من "ألف ليلة وليلة" ردا أنثويا قويا على الفحولة الذكورية عند العرب (ص١١٤)، مع أن أصلها فارسى لا علاقة له بالعرب من بعيد ولا من قريب. ولكن متى كان د. الغذامى يهتم بمنطق أو عقل أو تاريخ؟ على أنه إذا كان فى الكتاب بعض حكايات تنتصر للمرأة فكثير من حكاياته يحمل على المرأة حملة شعواء ويصورها خائنة مستعدة للانحراف مع أول سانحة، ويرسم للرجل لوحات ساطعة تظهره بطلا مقداما ومَلِكا كريما وقائدا مغوارا وزوجا شهما وتاجرا بارعا ورحالة مغامرا لا يأبه بالأخطار وراوية فاتن القصص والحكايات... إلخ. فيا هل ترى ماذا يقول د. الغذامى فى هذا؟

وفى الصفحتين السابعة والستين والثامنة والستين يقول الغذامى: "تقوم "ألف ليلة وليلة" على الحَكْى (المشافهة) بين امرأة وزوجها. وهذا يعنى تحديد المجال حسب حدود المسافة ما بين اللسان والأذن، وما بين الجسد والجسد. والعلاقة بين المرسِل والمرسَل إليه هى علاقة زواج وإفضاء، والحدود بينهما تضيق وتتقارب إلى الملامسة والمهامسة. وهذا هو مجال الأنثى، التى يعمل اللسان بالنسبة لها بوصفه آلة الاتصال والتعبير الوحيدة. وليس للمرأة فى زمن الحَكْى (ما قبل زمن الكتابة) سوى اللسان وسيلة وأداة للاتصال. وتختلف وظيفة هذه الآلة عن حالها عند الرجل، فالرجل يستعمل اللسان للخطابة والاتصال الجماهيرى، أما المرأة فتحكى فى مجال محدد ومؤطَّر مثل لسان شهرزاد، الذى يتجه إلى مستمع محدد وفريد. وهذا هو المجال الأنثوى بحدوده المرسمة المقررة". هذا ما قاله د. الغذامى نصا، وواضح أنه لم يحدد لنا متى بدأ زمن الكتابة، بل أطلق الكلام إطلاقا على عادته فى ترك قلمه يسير على هواه دون أن يلجمه بلجام المنطق، وإن كان لنا أن نفهم من خلال كلامه أن "ألف ليلة وليلة" تنتمى إلى ما قبل زمن الكتابة، وإلا ما قال إن حكايات شهرزاد تنتمى إلى زمن الحكى والمشافهة[1]. وبطبيعة الحال هذا كلام فى الهجايص لأن الكتابة معروفة قبل ذلك بأحقاب وأحقاب، والكتب موجودة

[1] كرر الغذامى القول بأن شهرزاد تنتمى إلى زمن ما قبل الكتابة أكثر من مرة كما فى ص٥٧ مثلا.

فى الحضارة البشرية منذ قرون طوال. وهذا مما لا يجهله أحد، إلا أن د. الغذامى، على طريقته فى الافتتان بالألفاظ دون مبالاة بما تعنيه، يقول عكس ذلك تماما. كذلك فمعنى كلام الغذامى هو أن وظيفة المرأة فى ذلك الزمن وما قبله هى الحكى فقط، والحكى الفردى لرجل واحد. فهل هذا صحيح؟

لقد كان عندنا فى الجاهلية كواهن وخطيبات كالشعثاء وكاهنة ذى الخُلَصَة والكاهنة السعدية والزرقاء بنت زهير والغيطلة القرشية وزبراء كاهنة بنى رِئام وسجاح وسلمى الهمدانية وكاهنة ذى الخُلَصَة وعفيراء[١]، وكن يخاطبن الرجال والنساء على السواء. كما أن عدد الخطيبات فى الحضارة الإسلامية إلى ما قبل "ألف ليلة وليلة" غير قليل. ومن الخطب النسائية فى تلك الحقبة خطبة سَفّانة بنت حاتم الطائى بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخطبة الخنساء فى تحريض أولادها على القتال، وخُطَب عائشة فى الانتصار لأبيها وفى رثائها له وعند مقتل عثمان وفى المربد وفى وقعة الجمل وفى البصرة، وخطب عكرشة بنت الأطرش وأم الخير بنت الحريش والزرقاء بنت عدىّ فى صفين، وهن شيعيات. ويجد القارئ خطبهن فى الجزء الأول من كتاب "جمهرة خطب العرب" لأحمد زكى صفوت. وفى الجزء الثانى من هذا الكتاب و"بلاغات النساء" لابن طيفور على سبيل المثال خُطَبٌ لعائشة والزهراء وزينب وأم كلثوم بنتى على وحفصة أم المؤمنين وأروى بنت الحارث بن عبد المطلب فى حضرة معاوية توبخه وتعترض على بعض ما وقع منه، وسودة بنت عمارة الهمدانية ترد عليه حين شمت بها لوقوفها مع على ضده، وصفية بنت هشام المنقرية، وسودة بنت عمارة، وأم سنان بنت خيثمة، وبكارة الهلالية، وأم البراء بنت صفوان، ودارمية الحجونية، وامرأة أبى الأسود الدؤلى، إلى جانب خطب ووصايا لبعض الأعرابيات ممن لم تردنا أسماؤهن. ثم لا ننس أن الشاعرات كثيرات يُعْدَدْن بالعشرات، وربما بالمئات. كما أن الفقيهات والمحدثات كن يعلّمن جموعا كبيرة من الرجال والنساء ولا يخاطبن رجلا واحدا عكس ما يقول د. الغذامى، وهو ما ينسف كل دعاواه فى هذا الصدد.

ثم ما القول إذا عرفنا أن مبدعى "ألف ليلة وليلة"، بما فيها شخصية شهرزاد ذاتها هم من الرجال كما نعرف، وكما هو واضح من زاوية السرد ورؤية الأشياء والأشخاص فى ذلك الكتاب، إذ هى زاوية رجالية بامتياز، فضلا عن أن تحليل الغذامى يقول إن وظيفة المرأة هى الحكى، والحكى لرجل واحد، فى حين أن "ألف ليلة وليلة" هى حكايات مكتوبة منذ كانت لا تزال فارسية لم تعرَّب بعد. ثم إن الكتابة والكتب كانت معروفة عند المسلمين قبل أن يعرفوا تلك الحكايات بأزمان.

---

[١] انظر د. شوقى ضيف/ العصر الجاهلى/ ط٢٤/ دار المعارف/٢٠٠٣م/ ٤٢٢.

والمضحك أن د . الغذامى، بعد ذلك كله، ينسى ما قاله عن أن المرأة فى "ألف ليلة وليلة"، متمثلةً فى شهرزاد، إنما تمارس الحكى لرجل فرد، فيؤكد فى موضع آخر من كتابه (ص١١٤) بأن ما فعلته شهرزاد إنما هو كتابة اقتحمت عالم الرجال واحتلت مدوناتهم وكتبهم، ضاربا عرض الحائط بكل ما طنطن به من قبل.

ويقول الغذامى أيضا (ص٥٩- ٦٠) إن شهرزاد، بتأليفها "ألف ليلة" قد نجحت فى معركتها مع الرجل، إذ عرفت كيف تستخدم اللغة وكيف تجعلها مجازا محبوكا ومشفَّرا، منتقلة بهذا من موقف المهزوم إلى موقف النّد. والغذامى هنا يتصور أن هذه أول مرة تشترك المرأة مع الرجل فى استخدام اللغة، وكأنها لم تكن تستخدم اللغة منذ أول الخليقة، وكأنها لم تكن شاعرة وحَكَّاءة منذ وقت طويل، بل وكأنها هى فعلا مؤلفة "ألف ليلة وليلة"، خالطا على هذا النحو الساذج بين قيام شهرزاد بالسرد داخل الكتاب وبين تأليفها للكتاب ذاته، مع أن هناك فرقا كفرق السماء عن الأرض بين هذا وذاك. ومع هذا فإنه، انطلاقا من الإيهام بأن شهرزاد هى مؤلفة الكتاب، يشبّه الشكل القصصى فيه بالجسد الأنثوى. فكما أن الجسد الأنثوى يتوالد ويتناسل فكذلك تتوالد الحكايات فى الكتاب متناسلا بعضها من بعض، وذلك رغم أن الكتاب صناعة رجالية. ثم ما معنى أن الجسد الأنثوى يتوالد ويتناسل؟ أليس التوالد والتناسل مما يعم الرجال والنساء جميعا، ويعم الحيوانات والنباتات أيضا؟ لكن متى كان د. الغذامى يبالى بأصول المنطق أو حقائق الحياة ووقائع التاريخ؟ إن الغذامى، كما أقول دائما، لا يبالى أين تقع كلماته ولا أن تكون مخالفة لكل الأصول والحقائق والوقائع. أرأيت قطارا منطلقا دون فرامل يفكر فى الحقائق والوقائع أو فيما يعتقده الناس أو ينكرونه؟ فهذا هو حال د. الغذامى إذا تكلم أو كتب. لا مبالاة عنده بعقل أو منطق. لا اعتبار عنده لأى شىء. إنه يكتب لأن شهوة الكلام لديه غلابة، فهو يريد أن يتكلم، والسلام. ليس مهما أن يقول شيئا صحيحا ولا نافعا ولا متسقا مع المنطق ولا محترما للعقل. إنه يشتهى الكلام اشتهاء قاهرا. المهم أن يضع فى ذهنه أن يؤلف كتابا، ثم ينطلق بسرعة القطار وبعنف وابور الزلط محطما كل ما يقابله فى طريقه غير متنبه إلى أنه يدوس العقل والمنطق ويكتسحهما اكتساحا. إن لذة الكلام لديه تغطى على كل شىء آخر.

كذلك من تناقضات الغذامى التى لا تنتهى أنه، بعد كل هذا المديح الهائل الذى كاله كيلا للمرأة ولكتاب "ألف ليلة" بوصفه نصا أنثويا تسلطت به المرأة على الرجال وأخضعتهم لما تريد، يعود (ص٧٥) فيقول إن هذا الكتاب قد أُلف لترجيح كِفَّة الذكور على كِفَّة النساء. ومع ذلك يقول عقيب هذا إن الكتاب يصور النساء ذوات مكانة جليلة عند أزواجهن وأبنائهن. فانظر إلى مقدار التناقض الذى يعج

به الكتاب وتعج به سائر كتابات د. الغذامى إلى حد التغثية! ثم إن سخافات الكتاب لا تنتهى هنا، إذ نراه يقول (ص٨٠) إن مؤلفى "ألف ليلة" قد خجلوا من وضع اسمهم عليها لأنها مروية على لسان المرأة، مع أنه من المعروف فى الأدب الشعبى كله أن مؤلفيه مجهولون لأن كل نص من نصوصه لا يؤلَّف دفعة واحدة، بل يبدأ أولا عملا شفاهيا، ثم ينمو مع الأيام بإضافة كل جيل شيئًا إلى ما ورثه عن الأجيال السابقة حتى ينتهى به الأمر إلى التثبيت الكتابى. وهذا ملحوظ فى المواويل والسير الشعبية والأمثال. ويلحق بها كتاب "ألف ليلة وليلة"، إذ هو إبداع شعبى. وعلى كل فإن كلام الغذامى الأخير هو ضربة فى الصميم لكلامه السابق الذى امتدح به شهرزاد بوصفها مبدعة الحكايات فى الكتاب. ولكن لا ينبغى أن يشغل القارئُ نفسَه بهذا التناقض والتهافت، فهكذا كان د. الغذامى، وهكذا هو الآن، وهكذا سيظل بمشيئة الله ما بقى من عمره، أطال الله عمره حتى نجد شيئًا نكتب عنه ونضحك منه. وهو لا يعجبه أبدا فى الرجال العجب ولا الصيام فى رجب، فهو دائم التشكى من الرجال، وكأن بينه وبينهم ثأرا، إذ عندما اقتحمت المرأة ميدان الكتابة، طبقا لما قاله من دعاوى فارغة، ظل يشكو من أن ميدان الكتابة محكوم بقوانين ذكورية (ص٤٧). والسؤال الآن هو: ترى لماذا لا تحاول المرأة تغيير تلك القوانين حتى يسكت أمثاله عن تلك الشكوى التى يزعجنا طوال الوقت بها؟

وبالمثل يزعم د. الغذامى (ص١٠٠) أن المكاتبة فى المجتمع العربى قديما كانت فى الشر والفحش لا غير، وأن النساء لم يكنَّ يعرفن الكتابة بل المكاتبة، وفى الشر والفحش بطبيعة الحال. ويستدل على ذلك بنص كتبه الجاحظ (ص١٥٧ أيضا) سنورده توا، مع أن الجاحظ إنما يتحدث عن مكاتبة القيان لعشاقهن لا المكاتبة بوجه عام، وإلا فقد كان ثمة مكاتبات بين الرسول وولاته، وبينه وبين الملوك من حوله. كما أن هناك مكاتبات بين العلماء بعضهم وبعض، وبين الملوك والملوك، وبين الخلفاء وولاتهم وقوادهم، وبين الأصدقاء بعضهم وبعض، وبين المواطنين والمصالح الحكومية، وبين الزوج وزوجته، وبين الحبيب وحبيبته... فكيف تواتى الغذامى نفسه على كتابة هذا الكلام المتهافت؟ ثم إن الكتابة ليست هى المقابل للمكاتبة، بل المكاتبة نوع من أنواع جنس الكتابة كما هو معلوم.

على أية حال ها هو ذا ما قاله الجاحظ عن المكاتبة مما يعتمد عليه الغذامى فى زعمه الباطل: "والمقيّن يأخذ الجوهر ويعطي العَرَض، ويفوز بالعين ويعطي الأثر، ويبيع الرّيح الهابّة بالذهب الجامد، وفلذ اللجين بالعسجد. وبين المرابطين وبين ما يريدون منه خرط القتاد لأن صاحب القيان لو لم يترك إعطاء المربوط سؤله عفةً ونزاهةً لتركه حذقًا واختيارًا وشُحًّا على صناعته ودفعًا عن حريم ضيعته لأن العاشق متى ظفر بالمعشوق مرةً واحدة نقص تسعة أعشار عشقه، ونقص من برّه ورِفْده بقدر ما

نقص من عشقه. فما الذي يحمل المقيّن على أن يهبك جاريته، ويكسر وجهه ويصرف الرغبة عنه؟ ولولا أنه مثلٌ في هذه الصناعة الكريمة الشريفة لم يسقط الغيرة عن جواريه ويُعْنَى بأخبار الرقباء، ويأخذ أجرة المبيت ويتنادم قبل العشاء، ويُعْرِض عن الغمزة، ويغفر القبلة، ويتغافل عن الإشارة، ويتعامى عن المكاتبة، ويتناسى الجارية يوم الزّيارة، ولا يعاتبها على المبيت، ولا يفضُّ ختام سرّها، ولا يسألها عن خبرها في ليلها، ولا يعبأ بأن تُقْفَل الأبواب، ويُشَدَّد الحجاب، ويُعَدّ لكلّ مربوطٍ عُدَّةً على حدة، ويعرف ما يصلح لكلِّ واحدٍ منهم، كما يميّز التاجر أصناف تجارته فيسعّرها على مقاديرها، ويعرف صاحب الضياع أراضيه لمزارع الخضر والحنطة والشعير. فمن كان ذا جاهٍ من الرُّبطاء اعتمد على جاهه وسأله الحوائج. ومن كان ذا مال ولا جاهَ له استقرض منه بلا عينة. ومن كان من السُّلْطان بسبب كُفِيَتْ به عادية الشُّرط والأعوانٍ، وأُعلنت في زيارته الطبول والسّراني، مثل سلمة الفُقّاعي، وحَمْدون الصّحنائي، وعليّ الفاميّ، وحجر التّوْر، وفقْحة، وابن دجاجة، وحفْصويه، وأحمد شعْرة، وابن المجوسيّ، وإبراهيم الغلام. فأيُّ صناعة في الأرض أشرف منها؟ ولو يعلم هؤلاء المسمَّوْن فرق ما بين الحلال والحرام لم ينسبوا إلى الكشْخ أهلها لأنّه قد يجوز أن تباع الجارية من المليئ فيصيب منها وهو في ذلك ثقةٌ، ثم يرتجعها بأقلّ مما باعها به فيحصل له الرّبح، أو تُزوَّج ممن يثق به ويكون قصده للمتعة. فهل على مزوّجة من حرج؟ وهل يفرُّ أحدٌ من سعة الحلال إلاّ الحائن الجاهل؟ وهل قامت الشهادة بزناء قطّ في الإسلام على هذه الجهة؟ . . . ". وفضلا عن ذلك ليس هذا كلام الجاحظ بل كلام بعض الناس الذين ذكرهم فى مقدمة رسالته عن القيان، ولعلهم من القيانين. كما أن أبا الثناء الآلوسى إنما تكلم عن الكتّابة لا المكاتبة، ودعا إلى منع النساء من الكتّابة، الكتّابة بإطلاق، وعنوان مخطوطه هو: "الإصابة فى منع النساء من الكتّابة" (انظر ص١٥٧).

كذلك يقول د. الغذامى (ص٣٠– ٣١) فى زعم من مزاعمه المتهافتة إن الرجل هو الذى يقدم المرأة فى الأفلام وغيرها بوصفها جسدا محضا، متجاهلا أن النساء اللاتى التحقن بعملية الإخراج السينمائى مؤخرا يفعلن أيضا الشىء ذاته مثل إيناس الدغيدى[١]، كما أن ممثلات السكس يفتخرن بذلك ويعترضن على أى رجل ينتقدهن. ثم إن الغالبية من الرجال العاديين، لا الدعاة والمصلحين والوعاظ والعلماء فقط، يُهيبون بالنساء اللاتى يتاجرن بأجسادهن إلى التوبة، إلا أن الغالبية منهن لا يستجبن إلى دعوة الرجال لهن بترك صناعة الإغراء والتزام أسلوب محترم من العيش لا يختزلهن فى إثارة الشهوة

---

[١] أما قبل هذا فكان الإخراج مهمة رجالية، فكان من السهل على الغذامى أن يلصق التهمة بالرجال، وكأن النساء ليست عندهن شهوة جنسية مثل ما عند الجنس الخشن.

فقط. كذلك ففى كل مكان فى العالم توجد بيوت دعارة تشرف عليها وتديرها نساء قوادات، ولا علاقة للرجال بها. وهناك الآن كاتبات عاريات القلم كليلى البعلبكى وغادة السمان وأحلام مستغانمى وفضيلة الفاروق وسلوى النعيمى وإلهام منصور وسوسن السودانى وعالية ممدوح وزينب حفنى ورجاء الصانع ووردة عبد الملك وعفاف البطاينة وليلى الأطرش وليلى العثمان وبلقيس حميد حسن وجمانة حداد يتحدثن عن هذا الجانب بجرية صادمة، وبعضهن يوغل فى هذه الحرية إلى آماد لا يمكن تصورها. وهذا عندنا نحن العرب فقط، وهن مجرد أمثلة لا يقصد بها الاستقصاء، فما بالنا بالآداب العالمية، والغربية منها بالذات؟

ونظرة سريعة إلى المعاجم الخاصة بذلك الضرب من الأدب ترينا صحة هذا الذى نقول، إذ إن كثيرا من النساء يشاركن فى هذا اللون من الكتابة العارية. فهل يقول الغذامى إن الرجال هم الذين أجبروهن على ذلك؟ وماذا يقول كذلك عن السحاق؟ أهو أيضا مما يكره الرجال النساء على ممارسته؟ وما رأيه فى الكاتبات السحاقيات وكثرتهن فى الآداب العالمية؟ هل الرجال وراء ذلك أيضا؟ وأمامى الآن، وأنا أكتب هذه السطور، معجم " Historical Dictionary of Lesbian Literature"، لمريديث ميلر، وهى أستاذة أمريكية سحاقية فيما يبدو، وتكتب عن المؤلفات الغربيات اللاتى تدور كتاباتهن حول ذلك النوع من الشذوذ الجنسى. وما رأيه فى إرشاد مانجى السحاقية البانجلادشية الكندية التى تقدم برنامجا فى التلفاز الكندى تدعو فيه إلى الشذوذ الجنسى لواطا وسحاقا، وأَلَّفَتْ أو أُلِّف لها كتاب تدعو فيه إلى تعديل الإسلام على طريقتها هذه الشاذة، وتجرّم كفاح الفلسطينيين لاسترداد حقوقهم المهدرة فى وطنهم وتتهمهم بالإرهاب، وتناصر الصهاينة، وتهاجم القرآن وتسخر من المسلمين، وتفتخر بأمها لأنها تتفهم وضعها وتبارك سحاقيتها؟ وما رأيه أيضا فى د. أمينة ودود، التى قرأتُ فى ترجمتها بالنسخة الفرنسية من موسوعة "الويكيبيديا" ما يقال من أنها تبارك الشذوذ الجنسى وتقول بتحليله؟ أأمضى فى هذا الموال النتن؟ أم هل هذا يكفى فى أن يعرف القراء كيف أن د. الغذامى لا يمكن أن يكتب شيئا منضبطا فيه عقل ومنطق حتى فيما هو واضح تمام الوضوح لا يحتمل جدالا ولا مراء؟ وبالمناسبة فهؤلاء اللاتى ذكرتهن هنا هن من النساء اللاتى يتمردن على الرجال. أقول هذا حتى لا يتحجج الغذامى ومن على شاكلته بأنهن يخضعن للرجا ل، مع أن مثل تلك الحجة هى حجة عليهم لا لهم، لأن معناها أن النساء لا يستطعن أن يكن مستقلات فى أخلاقهن وتصرفاتهن، وهو ما ينفونه بشدة.

ثم هل النساء ملائكة مبرأة من الشهوات والانحراف، والرجال أولاد ستة وستين؟ نعم هناك رجال يستأهلون الضرب بما فى القدم، ومنهم أولئك الكتّاب السعوديون مدعو الليبرالية الذين فضحتهم الكاتبة السعودية د. نورة الصالح منذ عدة سنوات حين ذكرت أن كل همهم فى اجتماعاتهم بهن بعيدا عن العيون هو إغراء النساء اللاتى يصدقن ليبراليتهم بشرب الخمر والتفلت من الدين والتحلل الأخلاقى، وأن هذا هو كل ما يفهمونه أو يطبقونه من الليبرالية[١]. بل لقد ازداد هذا الوضع فى عصرنا الحالى حيث

---

[١] هذا هو نص مقال "لماذا هربت من الليبرالية؟"، الذى فضحت فيه نورة الصالح خبايا الليبراليين السعوديين: "قضيت سنوات طويلة أومن بقيم الليبرالية: أدافع عنها وأناضل في سبيلها، وأدبج الصفحات في جمالها. كانت الليبرالية هي الخيار الوحيد المطروح في الساحة! لقد آمنتُ أنه بقليل من التعديل ستتوافق هذه الليبرالية الغربية مع الدين الإسلامي وستكون مقبولة للناس وستكتسح المجتمعات، وستحكم العالم العربي والإسلامي. وكطفلة صغيرة تضفر جدائلها على الأمل الموهوم بلعبة جميلة تقضي وقتا في أحضانها ذهبتُ أحلم! كنت أظن أن دعاوَى العدل الذي تصدح به الليبرالية هي دعاوى حقيقية، وأن حقوق الإنسان هي معصرة الليبرالية الخالصة، وأن الحرية والمساواة التي يُنادَى بها آناء الليل وأطراف النهار هي قيم حقيقية تستحق التضحية وبذل النفيس في سبيلها. لقد توهمت لسنوات طويلة ألا خيار سوى هذه الليبرالية، فذهبت لذلك أدافع في كتاباتي الصحفية عن الليبرالية وعن أبطالها وعن كُتّابها ومفكريها. كنت، كما هم كل الليبراليين العرب، أمريكية الهوى يشدني المجتمع الأمريكي، وتعجبني منظوماته الفكرية والأدبية والسياسية والاقتصادية. كنت أقرأ لفكرهم أكثر مما أقرأ في صفحة واقعنا وحضارتنا وديننا. لفترة طويلة صدقت أن الليبرالية هي الحل، وأنها ستكون مقبولة للناس، وأنها ما سيحفظ للناس حقوقها، وأنها ما سيردع الحكام والساسة عن التطاول على حقوق الضعفاء.

كنت أقرأ لكل الكتّاب الليبراليين في السعودية، فأظن أنهم معي على ذات الطريقة، وعلى نفس الهدف، يكتنفهم الهمّ نفسه الذي يكتنفني، ويؤرقهم ما يؤرقني. كنت أصدق، يا لضيعة العقل، أنهم صادقون في دعاواهم، مخلصون في نصحهم، أمناء في مطالبهم. صدقت كل ما يقولونه، وأمنت على كل ما تجود به قرائحهم. لم يكن لديَّ خيار آخر، فالخيار الآخر هو "الإسلامويون" كما يسميهم أستاذي السابق! كانت صورة الإسلامويين في خيالي باهتة متخلفة متعجرفة. ولا تلوموني، فهذا ما تعلمته على يد الليبرالية. لم أكن لأصدق، ولو حلف لي العالم كله، أنه قد يوجد إسلاموي يهتم بحقوق الإنسان أو يفهمها على الأقل! بل ودون مبالغة ما ظننت أن هناك مثقفاً قد يرضى بإطلاق لحيته أو تقصير ثوبه، أو أن مثقفةً قد تلبس قفازاً أسود وعباءةً وتغطي وجهها في عصر الفضاء والإنترنت! لقد كانت هذه القشور تصدني عن الحقيقة، إضافةً إلى بعض التجاوزات التي تحدث من رجال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفظاظتهم أحيانًا.

صَدَّقْتُ أن كل من يرى أن الحل هو الإسلام إنما يطرح مصطلحا غير حقيقي، وأنَّه إنَّما يريد من وراء طرح هذا المصطلح مكسبا سياسيا. لقد كان كل من ينادي بتطبيق الشريعة مجرما في نظري. هذا كله رغم أنني أحب الإسلام وتاريخه وحضارته، لكنه حب أجوف لا دليل عليه ولا طريق إليه. قضيت السنوات الطويلة أقرأ في كتب فلاسفة عصر النهضة الغربيَّة، وفي أدبهم وفكرهم ومطارحاتهم، حتى ما عاد في صدري مكان لسواهم! التحقت بإحدى جرائدنا التي توسط

لِي عندها أحد أساتذتي الليبراليين ممن يكتبون فيها، وذهبت أكتب في سحر الليبرالية وجمالها، لكن بطريقة ملتوية خوفًا من مقص الرقيب، وخوفاً من وصمي بالنفاق أو تكفيري من قبل الإسلامويين.

في الجريدة بدأت خيوط الوهم تتكشف أمام ناظري. اتصل بي، من خلال البريد، الكثير من الليبراليين والليبراليات للتواصل ودعم التوجه ا لليبرالي بزعمهم وخلق جبهة ليبرالية تنسق فيما بينها وتتعاون في سبيل أهداف الجميع. طوال هذه المدة لم أكن لأترك الصلاة، فقد كانت من المحرمات الكبيرة في حياتي. لكنني منذ أن تعرفت على بعض الكاتبات الليبراليات وجدت عندهن تفريطا رهيبا في الصلاة. بل وبعض الجريئات منهن يطلقن على المثقفة المواظبة على الصلاة بعض ألقاب "المطاوعة" التي تتظاهر بالمزاح وتخفي اللمز! لم يتوقف الأمر عند الصلاة، بل إنني بدأت أشم بين بعض الزميلات والزملاء الليبراليين شيئًا من رائحة المشروبات والعلاقات غير المشروعة. صحيح أن الأمر لم يكن عاما بين الجميع. لكن البقية لم تكن ترى أن هذا شيء خطير، بل تراه مجرد خيار شخصي يجب عدم إعطائه أكبر من حجمه. هجر الصلاة والمشروبات والعلاقات غير المشروعة رأي شخصي! لم أستطع بتاتا تصور ذلك. المهم هناك أيضا ممارسات أخرى، لكن أنزه آذانكم عن قولها في هذا الشهر الكريم. بصراحة لم تكن شعرة الانفصال الأولى هي "خلاف فكري مع الليبراليين"، لكنها كانت صدمة "الانحطاط السلوكي" بينهم. هالني جدا، ولا زال، هذا الانحطاط الأخلاقي الكبير بين شباب وفتيات الليبراليَة في وطني، وبدأ زعم المصداقية والشرف والأمانة الذي يدَّعونه ليل نهار يتزعزع عندي. بدأت تتنازعني الشكوك حول مصداقية دعاة الليبرالية في بلادي، وبدأت أفتح عيني جيدا.

تكشف لِي الكثير جدا من الأسرار من خلال كتاباتي في الجريدة واتصالي بالليبراليات والليبراليين ومحاورتهم. اكتشفت أن هناك علاقات بين بعض الكتاب والكاتبات برغم أن البعض منهم متزوجون! اكتشفت لقاءات دورية مشبوهة في استراحات خارج المدينة تُدَار فيها أشربة محرمة، ورقص للفتيات في حضور كتاب وكاتبات بعضهم معروف في الصحافة، وأكثرهم ناشط فقط في الكتابة الإنترنتية. اكتشفت أن هناك الكثير من اللقاءات غير المشروعة تُعْقَد خارج المملكة. بعض تلك اللقاءات كانت تتم على خلفية معارض الكتاب خارج المملكة أو في البحرين على خلفية عرض سينمائي! صارت كلمة "معرض كتاب في الخارج" و"سينما في البحرين" تثير في خيالي الكثير من الذكريات المؤلمة لشبان وفتيات مخدوعين لا زلت أتذكر بداياتهم النقية. اكتشفت خداع بعض القائمين على الصفحات ممن نظنهم شرفاء وأمناء وأنقياء. أحد المحررين الليبراليين استدرج فتاة كانت تراسله وينشر لها رسائلها بعد التعديل والتحوير، وحين انكشفت فعلته في دائرة ضيقة تدخَّل مالك الجريدة الذي يرتبط بعلاقات قوية مع بعض النافذين، واستطاع لملمة الموضوع حرصا على سمعة الصحيفة! اكتشفت أن أحدهم يكتب بأسماء أنثوية ويطرح مواضيع مثيرة ومغرية لجلب أكبر عدد من الكُتّاب. وهذا، على فكرة، مشهور جدا حتى إن بعض الكاتبات يمازحنه بمناداته بالاسم الأنثوي الذي يكتب به!

اكتشفت أن الليبرالية التي ينادون بها هي حروف يتداولونها، يمررونها على البسطاء والسذج، فلم أجد أشد منهم ديكتاتورية وتسلطا وأحادية في الرأي. فَكِّرْ أن تعارض أحدهم أو إحداهنَّ أمام جمع من الناس، وانظر كيف يجيبون على تلميحاتك! اكتشفت أن الكثير من الكُتّاب الليبراليين هم طلاَّب مال وجاه وشهرة لا أقل ولا أكثر، وأنهم مستعدون للتخلي عن الكثير من قناعاتهم في سبيل ليلة حمراء في مكان ما! قلة قليلة من الكُتّاب الليبراليين الشرفاء يُعَدُّون على الأصابع كان يزعجهم الذي يحدث، لكنهم لا يستطيعون تغيير شيء. أحدهم سألته مرة عن الذي يحدث وكيف

اشـتدت دعوة النسوية واستقلال النساء تماما عن الرجال بما يقطع الطريق على أى مكابر يزعم أن الرجال هم المسؤولون عن انحراف النساء . إننا لا نحمّل النساء تبعة انحراف الرجال، وبالمثل لا نقبل تحميل الرجال مسؤولية انحراف النساء . وأيا ما يكن الأمر فما العيب فى أن ينظر الرجل إلى المرأة مثلما تنظر هى أيضا إليه جنسيا وعاطفيا ؟ أليس هذا سببه أن الله قد خلق البشر رجلا وامرأة؟ وإلا فلماذا لم يخلقهما نوعا واحدا يجد كل فرد منه اكتفاءه فى ذاته دون التطلع إلى النصف الآخر ؟ وما الفرق إذن بين الرجل والمرأة إذا كانت نظرة كل من الجنسين إلى الآخر كنظرته إلى أحد أفراد جنسه؟ ولماذا لا يكتفى أفراد كل من الجنسين بصداقتهم لأبناء جنسهم إذن؟

إن كثيرا من اهتماماتنا نحن الرجال والنساء، انتبهنا إلى ذلك أو لم ننتبه، تدور حول الجنس والحب: الملابس والغناء والشعر والقصة والمسرحية والمقال والأفلام وجمع المال والالتفات فى الشوارع والطموح وأحلام اليقظة وأحلام المنام. والآن انظر إلى الغذامى (ص٤٠) كيف يتهم العقاد بأنه ينكر على

نكافحه، فرد عليَّ: أتصدقين أنني بدأت أفقد ثقتي بالمشروع برُمَّته، وأنني بدأت التفكير في التوقف والانعزال عن هذه البيئة الموبوءة؟ ولو أخبرتكم باسمه لاندهشتم! على أنه لا يزال يحتفظ بعلاقات دبلوماسية جيدة مع بقية الزملاء والزميلات الليبراليين. اكتشفت أن أحد رؤساء التحرير يُوعِز لكتّاب جريدته طالبا منهم طرح مواضيع مثيرة مثل تأجيج الجمهور ضد الهيئة، وحجاب الوجه، والاختلاط، وسياقة المرأة! والسبب في طلبه هذا أنه يقول إن جريدة "الوطن" نجحت في كسب جماهيريةٍ بطرْقها لهذه المواضيع! هكذا هي عقلية بعض رؤوساء تحريرنا!

أدهشني تسابق الليبراليين السعوديين على طلب ود أمريكا بطريقة وقحة لا تحترم مشاعر الجماهير، وهو ما كنت أنكره دائما وأدافع عنه وأقول إنه زعم من الإسلامويين وتلفيقهم، وتلك عقدة المؤامرة التي لا يرون الأمور إلا من خلالها . لكن الذي حدث أمام عيني غيَّر كل شيء، وكان كالقشة التي قصمت ظهر البعير! نظرتُ في العالم العربي حولي، وذهبتُ أرى مَنْ هم أهل الخط الأول في الدفاع عن كرامة الأمة والأوطان، ومن هم الذين يمسكون بدفة الحكم ويتحالفون معه. وجدت أن الليبراليين في مصر وتونس والمغرب والأردن والعراق والكويت والسعودية والبحرين وقطر والجزائر، وفي طول العالم العربي وعرضه، هم من يطبلون للحكام، ويستخفون بأية حركات معارضة، وخصوصا المعارضة الإسلامية! سبحان الله! أهذه الليبرالية التي نشأت على الحرية والمساوة؟ ما الذي حدث لي ولم يجعلني أرى قبلاً كل هذا الهزال الذي فيها، وكل هذا الكذب والدجل التي نمت عليها كل هذه الطحالب الميتة؟ على الجانب الآخر رأيت الإسلامويين، رغم ضعفهم إعلاميا، هم الأقوى والأشرف، وهم الذين يبذلون دماءهم في سبيل الأوطان، وضد الهجمة الصليبية على أوطاننا . وجدتهم في فلسطين الكريمة وفي العراق وفي أفغانستان. لقد كانوا خط الدفاع الأول ضد التوسع الأمريكي. تساءلت : مالي لم أر ليبراليا واحدا وجدوه صدفة يدافع عن أوطان المسلمين المحتلة؟ مجرد نفاق للسلطة، وشهرة إعلامية، ورفاه مالي، وتفريط في الصلاة، ومشروبات، وعلاقات غير مشروعة. هذه هي قصة الليبرالية في وطني، ولا ينبِّئك مِثْلُ خبير!" .

المرأة جمالها وجاذبيتها، عازيا ذلك إلى الغريزة الجنسية. والحق أن العقاد لم ينكر على المرأة جمالها، بل كان يناقش قول من يَرَوْن أن المرأة ذات ذوق جمالى راقٍ بحجة أنها جميلة، فكان جوابه أنه ليس لازما أن يكون الشخص الجميل ذا ذوق جميل. ثم استطرد قائلا إن من الفلاسفة والعلماء الغربيين الكبار من لا يَرَوْن المرأة جميلة البتة كشوبنهاور، الذى يرجع جاذبيتها إلى ما فى نفس الرجل من الشهوة والغريزة، أو يَرَوْنها جميلة لكن الرجل فى نظرهم أجمل منها كدارون. فالعقاد لم يكن يعرض رأيه بل رأى بعض مشاهير الغربيين. والغريب رغم ذلك كله أن الغذامى قد سبق أن ذكر فى موضع آخر من كتابه (ص٢٩) أن العقاد يرى أن النساء قد خلقن جميلات لإمتاع عيون الرجال، بالضبط مثلما يمتع عيونهم منظر الفاكهة. وهو كلام ليس له من معنى إلا أن العقاد يقر إقرارا صريحا لا مواربة فيه بجمال المرأة.

لقد كان العقاد مفتونا بالمرأة رغم إيمانه القوى بتفوق الرجل عليها فى العقل والقوة العضلية والقدرة على تحمل أثقال الحياة الباهظة وما إلى ذلك. وفى أشعار أديبنا ومفكرنا العملاق قصائد كثيرة تتغنى بالمرأة وجمالها وفتنتها وتصف تدلهه فى هواها، مع استعصامه فى نفس الوقت بكبريائه أمام تلك الفتنة. كما أن روايته العبقرية: "سارة" شاهد لا يُرَدّ ولا يُصَدّ على صدق ما نقول. دعنا من حوادث الرواية وحواراتها ووصفها لجمال البطلة وعواطف همام نحوها، وتعالَوْا بنا إلى الفصل الذى وقف فيه العقاد يتحدث بلسان الفلسفة والحكمة عن قوة حواء ومقدرتها على الإطاحة بكل ما يقوله المصلحون والمشترعون والوعاظ والعُبَّاد والزُّهَّاد فى التحذير من فتنتها وسحرها. فهذا الفصل العجيب وحده كاف لنسف أى وهم أو إيهام بأن العقاد يرى المرأة كائنا غير جميل. فما بالنا لو عرفنا أن العقاد قد كتب مقاله الآنف الذكر وهو فى بداية ثلاثيناته، إذ كتبه سنة ١٩٢٣م طبقا لما هو مكتوب فى هامش عنوان المقال فى كتاب "مطالعات فى الكتب والحياة"، أى حين كان فى عز رجولته تفتنه المرأة وتبرجل عقله وعقل كل رجل فى هذه السن، ولم يَشِخْ بعد إلى الدرجة التى يمكن أن يتحجج معها متحجج معاند بأنه كان قد زهد فيها وفى جمالها ولم يعد يرى لها شيئًا من السحر.

وأنا، بَعْدُ، من أنصار الفكرة القائلة بأن المرأة لم تكن ليكون لها أى تأثير على الرجل بالغا ما بلغ جمالها كما نعرف الجمال الآن ونقدره لولا أن الله سبحانه قد نَظَّم كونه بحيث إنه متى رأى الرجل المرأة فُتِن بها وجرى ريقه ودق قلبه، وأخذ يلهث وراءها يريد الفوز بها. ولو كان عز وجل قد أجرى كونه على نظام آخر غير الذى نعرفه ما كنا لنهتم بالمرأة الجميلة (الجميلة بمقاييسنا على الوضع الحالى) أو ننفعل بجمالها أو نفكر فيها، بل لكنا ننفر منها ونشعر بالغثيان عند رؤيتها، ويكون أول ما نفكر فيه هو الهرب منها والاستغاثة بالناس أن يأتوا وينقذونا من براثنها. لكن لا ينبغى أن يفهم القارئ من كلامى

هذا أننى أقصره على المرأة وجمال المرأة، بل أعممه على كل شىء فى الوجود، فأنا أومن تماما بما يقوله الإمام الغزالى، ثم أخذه لوك وهيوم وغيرهما من فلاسفة الغرب وحوروه شيئًا من التحوير، من أن النار مثلا ليس من طبيعتها الإحراق، بل هى تحرق لأن الله أراد لها أن تحرق. ولو كان سبحانه وتعالى شاء لها أن تكون بردا وسلاما على من يَصْلاَهَا لكانت بردا وسلاما عليه. . . وهكذا.

ويزعم د. الغذامى (ص٩٣)، فيما يزعم، أن الجارية تودد بطلة إحدى قصص ألف ليلة فى غلبتها للرجال فى حوارها معهم تختلف عن نموذج المرأة الذى كان معروفا آنذاك فى كتب الأدب. وهو زعم متهافت، إذ تمتلئ كتب الأدب بالحكايات التى تنتصر فيها المرأة على الرجل: من ذلك مثلا ما رواه المرزبانى فى كتابه: "أشعار النساء" للمرزبانى، إذ يقول: "هاجى النابغة الجعدي ليلى الأخيلية فقال لها:

ألا حَيّيَـــــا ليلى وقولا لهــــــا: هَــلاَ		فقـــــدْ ركِبـــتْ . . . أغرَّ محجَّــلا

فقالت ترد عليه، وهما قصيدتان له ولها، فغلبته بقولها:

وعَيَّرْتنـــــــي داءً بأمـــك مثلــــــه		وأيُّ جـــوادٍ لا يقال لها: هَـــــلاَ؟

. . .

وأخبرني عبد الله بن يحيى قال: حدثني محمد بن جعفر، قال: حدثنا ابن أبي سعد، قال: حدثني أبي الحسن الموصلي عن سلمة بن أيوب بن مسلمة الهمذاني فقال: كان جدي عند الحجاج فذكر أن امرأة قد دخلت عليه فسلمت فرد عليها، وقال: من أنت؟ قالت: أنا ليلى. قال: صاحبة توبة بن حُمَيّر؟ قالت: نعم. قال: فماذا قلتِ فيه لله أبوك؟ قالت: قلت:

فإنْ تكـــنِ القتلى بَوَاءً فإنّكـــــــم		فتًـــــى ما قتلتُم آل عوفِ بن عامـــــر

وذكر منها أبياتا، فقال لها أسماء بن خارجة الفزاري: أيتها المرأة، إنك لتصفين هذا الرجل بشيء ما تعرفه به العرب. قال: فقالت: أيها الرجل، هل رأيت توبة؟ قال: لا. قالت: أصلح الله الأمير. فوالله لو رأى توبةَ فوَدَّ أن كل عاتق في بيته حامل من توبة. قال: فكأنما فُقِئَ في وجه أسماء حَبّ الرمان. فقال له الحجاج: وما كان لك ولها؟ . . .

أخبرني علي بن عبد الرحمن عن علي بن يحيى الأطروش بن إسحاق عن أيوب بن عباءة، قال: حدثني الهيثم بن عدي، قال: دخلت ليلى الأَخْيَلِيّة على الحجاج، فقال لأصحابه: ألا أخجلتُها لكم؟ قالوا: بلى. قال: يا ليلى. قالت: لبيك أيها الأمير. قال: أكنت تحبين توبة بن الحُمَيِّر؟ قالت: نعم أيها الأمير. وأنتَ لو رأيته لأحببتَه".

وفى "الأغانى": "أخبرنا إبراهيم بن أيوب عن ابن قتيبة، قال: بلغني أن ليلى الأخيلية دخلت على عبد الملك بن مروان وقد أَسَنَّتْ وعجزت، فقال لها: ما رَأَى توبة فيك حين هَوِيَك؟ قالت: ما رآه الناس فيك حين وَلَّوْك. فضحك عبد الملك حتى بدت له سن سوداء كان يخفيها".

وفى "تزيين الأسواق فى أخبار العشاق" لداود الأنطاكى: "وأدركت الخنساء الاسلام، وحسن إسلامها، فقالت لها عائشة يوما: أتبكين صخرا وهو في النار؟ فقالت: هو أشدُّ لجزعي عليه وأَدْعَى للبكاء. فعُدَّ من الأجوبة المسكتة

. . .

ومنهم غسان بن جهضم، وكان مفتونا بابنة عمه أم عقبة لأنها كانت من أجمل النساء وأحياهن وأفضلهن خصالاً. حضرته الوفاة فجعل ينظر إليها ويبكي، ثم قال لها: إني منشدك أبياتا أسألك فيهن عما تصنعين بعدي، وأعزم عليك أن تصدقيني. فقالت: قل، فوالله لا أكذبك. فأنشد:

أخبـــري بالـــذي تريديـــن بعـــدي:		مـــا الذي تضمـــريـــن يا أم عقبـــه؟
تحفظيني من بعد موتـــي لمـــا قـــد		كان مني من حسـن خلـــق وصُحْبَـــه
أم تريديـــــن ذا جمـــال ومـــال		وأنا في التـــراب في سجـــنِ غُرْبـــه؟

فأجابته:

قـــد سمعنـــا الذي تقول، وما قـــد		خفتَه يا خليـــل مـــن أم عقبـــهْ
أنا مـــن أحفظ النســـاء وأرعـــا		هن ما قـــد أَوْلَيْتَ من حسن صحبهْ
سـوف أبكيـــك ما حييـــتُ بشجـــو		ومـــراثٍ أقولهـــا وبنُـــدْبـــهْ

فقال:

أنا واللّـــه واثـــق بكِ، لكـــن		ربمـــا خفـــت من غـــدر النســاءِ
بعد موت الأزواج يا خيـــر مـــن عُـــو		شِرَ، فارعَيْ حقـي بحسـن وفـــاءِ
إنني قد رجـــوت أن تحفظـــي العهـــد		فكوني، إن مِـــتُّ، عنـــد رجائـــي

فلما مات خُطِبَتْ من كل جانب، فقالت:

سأحفظ غسانًا علـــى بعـــد داره		وأرعـــاه حتى نلتقي يوم نُحْشَـــرُ
وإني لفي شغل عـــن النـــاس كلهـــم		فكفُّـــوا، فما مثلي من الناس يَغْـــدِرُ
سأبكي عليـــه ما حييـــتُ بعَبْـــرَةٍ		تَجُـــول علـى الخدين مني فتَكْثُـــرُ

فلما طالت الأيام قالت: من مات فقد فات، وأجابت الخاطب. فلما كانت الليلة التي زُفَّتْ

فيها جاءها في النوم فأنشد:

غدرتِ ولم ترعَـــــيْ لبعلـــك حرمــــة		ولم تعرفي حقا، ولم تحفظـــي عهـــــدا
ولم تصبـــــري حَوْلاً حفاظًـــا لصاحـــب		حلفتِ له يوما، ولم تنجـــزي وعـــــدا
غـــــدرتِ به لمـــا ثوى في ضريحــــه		كذلك يُنْسَى كـــل من سكن اللحــــدا

فانتبهت مرعوبة كأنما كان معها، فقالت النساء لها: ما دهاك؟ فقالت: ما ترك غسان في الحياة أرَبًا ولا في السرور رغبةً. أتاني في المنام فأنشدني هذه الأبيات. ثم جعلت ترددها وتبكي، فشاغلنها بالحديث، فلما غفلن أخذت شفرة فذبحت نفسها، فتعجبن منها".

وفى "ثمرات الأوراق فى المحاضرات" لابن حجة الحموى (ق٨- ٩هـ): "حُكِيَ أن عُلَيَّة بنت المهدي كانت تهوى غلاما خادما اسمه طَلٌّ، فحلف الرشيد ألا تكلمه ولا تذكره في شعرها، فاطلع الرشيد يوما عليها وهي تقرأ سورة "البقرة": "فإن لم يُصِبْها وابلٌ فالذي نَهَى عنه أميرُ المؤمنين".

قيل: دخلت امرأة على هارون الرشيد، وعنده جماعة من وجوه أصحابه، فقالت: يا أمير المؤمنين، أقرَّ الله عينك وفرَّحك بما آتاك وأتم سعدك. لقد حكمتَ فقَسَطْتَ. فقال لها: من تكونين أيتها المرأة؟ فقالت: من آل برمك، ممن قتلتَ رجالهم وأخذتَ أموالهم وسلبتَ نوالهم. فقال: أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله ونفذ فيهم قَدَره، وأما المال فمردود إليك. ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه فقال: أتدرون ما قالت المرأة؟ فقالوا: ما نراها قالت إلا خيرا. قال: ما أظنكم فهمتم ذلك. أما قولها: أقر الله عينك، أي أسكنها عن الحركة. وإذا أُسْكِنَت العين عن الحركة عميتْ. وأما قولها: وفَرَّحَك بما آتاك فأخذتْه من قوله تعالى: "حتى إذا فرحوا بما أُوتُوا أخذناهم بغتة". وأما قولها: وأتم الله سعدك فأخذتْه من قول الشاعر.

إذا تـــــمَّ أمـــــرٌ بدا نقصــــه		ترقّـــبْ زوالاً إذا قيـــل: تَـــــمّْ

وأما قولها: لقد حكمتَ فقَسَطْتَ فأخذتْه من قوله تعالى: وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا. فتعجبوا من ذلك...

وحُكِيَ أن بعض الملوك طلع يوما إلى أعلى قصره يتفرج فلاحت منه التفاتة فرأى امرأة على سطح دار إلى جانب قصره لم ير الراءون أحسن منها، فالتفت إلى بعض جواريه فقال لها: لمن هذه؟ فقالت: يا مولاي، هذه زوجة غلامك فيروز. قال: فنزل الملك وقد خامره حبها وشغف بها. فاستدعى بفيروز وقال له: خذ هذا الكتاب وامض به إلى البلد الفلانية، وائتني بالجواب. فأخذ فيروز الكتاب وتوجه إلى منزله فوضع الكتاب تحت رأسه. فلما أصبح ودع أهله وسار طالبا لحاجة الملك،

ولم يعلم بما قد دبره الملك. ثم إنّه لما توجه فيروز قام الملك مسرعا وتوجه مختفيا إلى دار فيروز فقرع الباب قرعا خفيفا، فقالت: امرأة فيروز: من بالباب؟ قال: أنا الملك سيد زوجك. ففتحت له، فدخل وجلس، فقالت له: أرى مولانا اليوم عندنا. فقال: جئتُ زائرا. فقالت أعوذ بالله من هذه الزيارة، وما أظن فيها خيرا. فقال لها: ويحك! إنني أنا الملك سيد زوجك، وما أظنك عرفتِني. فقالت: يا مولاي، لقد علمت أنك الملك، ولكن سبقتك الأوائل في قولهم:

سأترك ماءكم من غير وردٍ		وذاك لكثرة الورّاد فيهِ
إذا سقط الذبابُ على طعامٍ		رفعتُ يدي ونفسي تشتهيهِ
وتجتنب الأسود ورود ماءٍ		إذا كان الكلاب وَلَغْن فيهِ
ويرتجّ الكريم خَميصَ بطنٍ		ولا يرضى مساهمةَ السفيهِ

وما أحسن يا مولاي قول الشاعر:

قل للذي شَفّهُ الغرام بنا		وصاحب الغدر غير مصحوبِ:
والله لا قال قائلٌ أبدًا:		قد أكل الليث فضلة الذيبِ

ثم قالت: أيها الملك، تأتي إلى موضع شرب كلبك تشرب منه؟ فاستحى الملك من كلامها وخرج وتركها".

على أن د. الغذامى لا يكتفى بذلك، بل يدعي (ص٩٤) أن ثقافة الجارية تودد تختلف عن ثقافة المرأة فى ذلك العصر، مع أن الجوارى أولئك كن يثقّفْن ثقافة جيدة حتى يزددن قيمة فى نظر من يشتريهن. ففى كتاب "الحيوان"مثلا: "قال العتبي ذاتَ يومٍ لابن الجهم: ألا تتعجَّبُ من فلانٍ؟ نَظَر في كتاب "الإقليدس" مع جاريةِ سَلْمَوَيْه في يومٍ واحد وساعة واحدة، فقد فرغتِ الجاريةُ من الكتَّاب، وهو بَعْدُ لم يُحكِم مقالةً واحدة، على أنَّه حُرٌّ مخيَّر، وتلك أمَةٌ مقصورة، وهو أحرصُ على قراءةِ الكتابَ من سَلْمَوَيهِ على تعليمِ جارية. قال ابن الجهم: قد كنت أظنُّ أنَّه لم يفهم منه شكلاً واحدًا، وأراك تزعم أنَّه قد فرغ من مقالة. قال العتبي: وكيف ظننتَ به هذا الظنَّ، وهو رجلٌ ذو لسان وأدب؟ قال: لأنِّي سمعتُه يقول لابنِه: كم أنفقتَ على كتاب كذا؟ قال: أنفقت عليه كذا. قال: إنَّما رَغَّبَني في العلم أني ظننتُ أنِّي أنفق عليه قليلاً وأكتسِب كثيرًا. فأمَّا إذا صرتُ أنفِق الكثيرَ، وليس في يدي إلا المواعيدُ، فإنِّي لا أريد العلمَ بشيء".

ثم لا تقف مزاعم د. الغذامى المتهورة عند هذا الحد، بل ينطلق فيدعى (ص١٠٠) أن الجهل فى تلك العصور كان زينة للحرة، فى حين كانت الثقافة زينة الجارية. ترى ألم يقرأ ما كتبه أبو الفرج عن

ثقافة سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة مثلا أو ما ذكرته المراجع الأندلسية عن ولادة ونزهون وحميدة وغيرهن من آنسات الأندلس وسيداتها ذوات الثقافة الرفيعة؟ ألم يبلغه ما سجلته كتب الطبقات والتاريخ عن مئات السيدات المسلمات اللاتى كن يشتغلن بالفقه والحديث أو ينظمن الشعر؟ ألم يطالع كتاب "الأغانى" مثلا فيرى كيف كانت ثقافة نساء الخلفاء والدرجة العالية التى بلغتها تلك الثقافة؟ ألم يسمع عن علية بنت المهدى مثلا؟ ولم يكنّ مع هذا استثناء من القاعدة، وكل ما هنالك أن المسلم لم يكن يحب الكلام عن زوجته على الملإ. وقد سبق أن فصّلنا القول فى تلك النقطة بعض التفصيل، فمن ثم نكتفى بهذا، ولا نطيل القول فيه مرة أخرى.

ومع ذلك لا يبدو لى الغذامى مدافعا عن المرأة ولا عاطفا عليها بقدر ما هو كاره للرجال، وكأن له ثأرا عندهم يريد أخذه، وهو ما يحتاج إلى دراسة تحاول الوصول إلى سبب اتخاذه هذا الموقف الغريب. انظر مثلا (ص١٠٦ وما بعدها) إلى شماتته بالنَّظَّام والرمز إليه بـ"الفحل" تهكما واستهزاءً، وتأكيده المستفز أن جارية قد انتصرت عليه، وكأن الكلام حقيقى لا تخيلات عامية فى حكاية من حكايات "ألف ليلة وليلة" لا أصل لها ولا حقيقة. والمضحك أن الجارية إنما تعلمت ما وصل إليه أمثال النظام بعقولهم الكبيرة ثم عادت فوجهت إليهم أسئلة مأخوذة من هذا الذى وصلوا إليه. وهى أسئلة ساذجة تقوم على الحفظ والتلقين والإلغاز ليس إلا، ولا تدل على علم صحيح، بل هى مجرد معلومات ترصها رصًّا. ومع هذا يشمخ بها الغذامى، وكأن النظَّام قد عجز فعلا أمام الجارية. وهو تصرف لا يليق بالباحثين الجادين. كذلك نراه (ص١٨٠) وما حولها يتطوح كالدراويش مناديا بتأنيث اللغة ومنتظرا اللحظة التى تتأنث فيها فعلا، وكأن اللغة مذكرة ويمكن أن تُجْرَى لها عملية جراحية كالتى تجرى لبعض الرجال المخنثين فيصيرون نساء، ويشمت ببطل رواية لأحلام مستغانمى لأن الكاتبة قد جعلته مبتور اليد والرِّجْل ناقصا عاجزا لا يستطيع أن ينال من المرأة شيئًا. كما وصفه (ص١٨٥ وما قبلها وما بعدها إلى ١٨٨) بأنه مخصى. وكلامه كله حقد سام على الرجال ليس فيه شىء طبيعى. والمفروض أن يكون أقصى ما يريده، إن لم يكن فى الأمر حالة نفسية تستدعى الدراسة، هو المناداة بأن تكون اللغة للجنسين كليهما. وهذا إن سلمنا أنها ذكورية كما يزعم. أما أن يبتهج كل هذا الابتهاج بتأنيث اللغة ويشمت كل تلك الشماتة بالرجال فهذا يستدعى البحث والتحليل. والعجيب أنه ينعطف فجأة فى كلامه فيقول (ص٢٠٧) بتأنيث اللغة أو أنسنتها بحيث تعبر عن الجنسين معا. أما كان من الأول؟ علاوة على أنه قالها عرضا ومتأخرة وغير واضحة، وواضح أنه قالها دون قصد ومن وراء قلبه.

ومن مظاهر الخلل فى التفكير لدى د. الغذامى أنه يأتى إلى مثال أو اثنين فيجعل منهما قانونا أو قاعدة عامة. وهى طريقة فى التفكير ينبغى أن يربأ أى باحث حقيقى بنفسه عنها. لكن ماذا نفعل فى حكمة الله، التى شاءت أن يكون د. الغذامى هكذا؟ لنأخذ مثلا اتخاذه (ص١٢٤) مثالَىْ جورج إليوت وجورج صاند قاعدة عامة فى أن النساء إذا أردن الكتابة تخفَّيْنَ وراء مظهر الرجال. وهذه عبارته بنصها وفصها: "ما زالت الثقافة تؤكد أن الرجل استطاع على مر الزمن إحكام سيطرته على اللغة، وذلك بتذكيرها وتذكير مستخدميها. ولذا فإن المرأة، لكى تكتب وتمارس اللغة، لا بد أن تكون رجلا. وهذا بالضبط ما فعلته النساء فى مهرجان القيس، وهو ما فعلته جورج إليوت وجورج صاند حيث توسلتا بأسماء الرجال لكى تدخلا إلى عالَم اللغة والكتابة". وهو ما يُفْهَم منه أن الوضع كان هكذا طوال التاريخ، وأن ما صنعته الكاتبتان ذواتا العقل الشاذ والمخ اللاسع[١] ليس إلا اتباعا للسنة

[١] بالمناسبة كان جد صاند ابن حرام، وزوجها أيضا ابن حرام وخشنا وشريبا للخمر. وكان أبوها، وهو من طبقة النبلاء الفرنسية، رجلا عسكريا خليعا مستهترا. وقد تزوج بامرأة شعبية متشردة كانت حاملا بجورج صاند عند دخوله بها. وكانت صاند تلبس ملابس الرجال لكونها، كما تقول، أبعث على الإحساس بالراحة، وأقل فى النفقات من ملابس نساء طبقتها، وتدخن الطباق فى الأماكن العامة، وتعيش حياة متحررة منحلة دارت فيها على حل شعرها قبل وبعد انفصالها عن زوجها. وكانت قد بدأت ترتدى ملابس الرجال بمجرد خروجها من الدير فى باريس وعودتها إلى الريف عند جدتها لأمها لملاءمة تلك الملابس لركوب الحصان واصطياد الأرانب البرية، ورغبة منها فى غزو قلوب شبان المنطقة. أى أنه لا علاقة لاسترجالها الملابسى بممارستها للكتابة لأنها فى ذلك الحين لم تكن قد شرعت تكتب بعد، بل لم تكن قد تزوجت. وكان تدخينها الطباق وارتداؤها ملابس الرجال وغير ذلك من تصرفاتها الغريبة يستفز مجتمع باريس القرن التاسع عشر، كما كانت تهاجم نظام الزواج وتدافع عن الزوجة التى تترك زوجها وتمارس الحب مع من يهواه قلبها. ينظر فى ذلك ترجمتها فى النسختين الإنجليزية والفرنسية من موسوعة "الويكيبيديا"، وفى ط٢٠١٠ من "الموسوعة اليونيفرسالية" الفرنسية، وفى ذات الطبعة من الموسوعة البريطانية، وفى موسوعة "لاروس" المشباكية الفرنسية. وفى المادة الخاصة بها من النسخة الفرنسية من موسوعة "الإنكارتا" نجد أنها ليست هى التى أطلقت على نفسها اسم "جورج صاند" بل اقترحه عليها أحد الصحفيين. وفيها أيضا أنها اختارت اسم "جورج" لأنه يذكرها بمنطقة بيرى، التى تربت فيها، ولما فيه من ارتباطات بريطانية كما تقول. وفى ترجمة جورج إليوت بالنسخة الإنجليزية من موسوعة "الويكيبيديا" نقرأ أن كل النساء الكاتبات فى عصرها كن يستعملن أسماءهن الأنثوية الحقيقية: " Female authors were published under their own names during Eliot's life"، وهو ما نجده أيضا فى النسخة الفرنسية: " Les auteurs féminins de cette période aient pu publier librement sous leur vrai nom"، مما ينسخ ما قاله د. الغذامى عن هذا الموضوع تماما. بل إن كاتب ترجمتها فى "الموسوعة البريطانية" يذكر أنها فى مستهل حياتها الأدبية كانت تستعمل اسمها الحقيقى: "ماريان" فى التوقيع

الكونية القهرية التى تحرم على الكاتبات والأديبات أن يحتفظن بأسمائهن النسائية، وتوجب عليهن أن تبحث كل واحدة منهن عن اسم أحد الخناشير لاصطناعه بدلا من اسمها الرهيف الرقيق. ولكى يعرف القارئ أن كل ما يقوله الغذامى فى هذا الصدد غير قائم على أساس أحب أن أقول له إن كل الناس قد عرفوا سريعا أن جورج صاند هو اسم الأديبة الفرنسية أماندين أورور لوسى دوبان: Amandine Aurore Lucie Dupin، وأن جورج إليوت هو اسم الكاتبة الإنجليزية مارى آن إيفانس: Mary Ann (Marian) Evans. أما ما يفعله النساء فى السعودية فى المهرجان المذكور من ارتدائهن ملابس الرجال واتخاذهن الشوارب مثلهم فهو احتفالات شعبية كما وضّح هو نفسه فى موضوع آخر من الكتاب، ولا علاقة له باللغة ولا بالكتابة، إلا أن د. الغذامى، كشنشنته التى لا تفارقه أبدا ما قام ثَبِيرٌ فى مكانه وما بزغت الشمس من المشرق واختفت فى المغرب، يخلط الأمور بعضها ببعض كى يدير الرؤوس ويلخبط العقول، فيظن السذج أن تحت القبة شيخا، أما من رزقهم الله شيئا من الفهم فيقولون له: دعك من هذه الألاعيب. لقد دفنّاه معا!

فما رأيه فى آلاف النساء اللاتى استخدمن اللغة مبدعات عندنا وفى كل أرجاء العالم منذ قرون وقرون، وظللن محتفظات بحقيقتهن لم يصطنعن شيئا من أمور الرجال؟ وما باله لو قلنا له مثلا إن الصحفية نادية عابد، التى كانت تكتب مقالات عاطفية جريئة فى مجلة "روز اليوسف" فى الستينات كانت فى حقيقة أمرها رجلا؟ أى على العكس مما يقول. ومثل ذلك ما كتبته الكاتبة السعودية د. نورة الصالح فى مقال لها نشرته منذ سنين بعنوان "لماذا هربت من الليبراليين؟" وموجود فى كثير من المواقع المشباكية الآن، وقالت فيه عن صحفى سعودى: "اكتشفتُ أن أحدهم يكتب بأسماء أنثوية ويطرح مواضيع مثيرة ومغرية لجلب أكبر عدد من الكُتّاب. وهذا، على فكرة، مشهور جدا حتى إن بعض الكاتبات يمازحنه بمناداته بالاسم الأنثوي الذي يكتب به!".

وما رأيه فى أن مى زيادة كانت تتخفى فى بداية امرها تحت اسم "إيزيس كوبيا"، وهو اسم امرأة لا رجل؟ وكانت د. عائشة عبد الرحمن تكتب باسم "بنت الشاطئ". وبالمناسبة كان هناك شاعر مصرى ينشر قصائده بتوقيع "ابن الشاطئ". وكان الصحفى المصرى رائد عطار يكتب باسم "مصطفى عدنان". ومثله الصحفى محجوب عمر، الذى كان يكتب فى جريدة "الشعب"، وكنا نظنه مجاهدا فلسطينيا مسلما يقيم بالقاهرة، ثم عرفنا بعد ذلك أنه طبيب مصرى نصرانى، وأن اسمه

على كتاباتها. ومع هذا نقرأ فى ترجمة صاند فى "الويكيبيديا" الفرنسية أن بعض الكاتبات قد اقتفين إثر تلك الأديبة الفرنسية فى اصطناع أسماء الرجال، مثل دلفين جيراردان ومارى أجو.

الحقيقى "رؤوف نظمى ميخائيل". وعلى غلاف الطبعة الأولى من روايته: "زينب" فضَّل د. محمد حسين هيكل أن يكتب "مصرى فلاح" بدلا من اسمه الحقيقى. وحين كنت فى الدوحة منذ سنوات سمعت بشاعرة قطرية تطلق على نفسها لقب "صدى الحرمان". وكان الكاتب الإنجليزى (إريك آرثر بلير: Eric Arthur Blair) يوقع ما يكتبه باسم "جورج أورويل". وبعض الكتاب يكتفى بوضع الحروف الأولى من اسمه واسم أبيه واسم أسرته. وكانت جورج صاند تكتب مقالاتها الأولى بالاشتراك مع جيل صاندو بتوقيع "Jules Sand". ومعروف أن هناك أسماء قلمية (pen-names, pseudonyms\ noms de plume, pseudonymes) يتخذها بعض الكتاب والكاتبات لا صلة بينها وبين الأسماء الحقيقية لمتخذيها. كما أن هناك مهنا تقتضى أن يستعمل أصحابها، أو يحب بعض مزاوليها أن يستعملوا، أسماء غير أسمائهم الرسمية كالرهبان والراهبات والممثلين والممثلات والقوادين والمومسات والجواسيس ورجال المخابرات وضباط المباحث وبياعى المخدرات وشيوخ المنسر... فهل يستطيع الغذامى أن يفسر لنا هذا الوضع، الذى لا علاقة له بذكورة أو أنوثة؟ وما رأيه فى أن هناك كاتبات الآن يكتب لهن رجال يتخفَّوْن وراءهن؟ وما رأيه فى الرجال الذين يُضْبَطون متخفِّين وراء النقاب متظاهرين بأنهم نساء لسبب أو لآخر كالرغبة فى الاختفاء عن أعين الشرطة أو التسلل إلى دنيا الحريم والتمتع بالنظر إليهن عاريات أو شبه عاريات أو معاشرتهن جنسيا فى الحرام دون خوف من زوج أو أب مثلا، وهو ما لا علاقة له بالكتابة من قرب أو من بعد؟ وهناك من يرى أن جورج إليوت قد اتخذت هذا الاسم الرجالى لتبتعد عن عالم الشهرة كى لا يتطرق أحد إلى علاقتها مع الفيلسوف جورج هنرى لويس، الذى كان متزوجا[١].

ويمضى د. الغذامى زاعما أن مى زيادة وجيلها هن أول من دخل من النساء اللغة كاتبات لا حاكيات، وبالنهار لا بالليل، كشهرزاد. وقد اختار عام ١٨٩٢م تاريخا لهذا باعتباره تاريخ أول مجلة

---

١ انظر المادة المخصصة لها فى النسخة العربية من موسوعة "الويكيبيديا". وفيها نقرأ أيضا: "في العام ١٨٥١ قابَلَتِ الفيلسوفَ جورج هنري ليوس، الذي كان متزوجا في ذلك الوقت، وفي العام ١٨٥٤ قررا أن يعيشا معا بالرغم من ذلك وسافرا معا إلى برلين. وبعد عودتهما عاشا في لندن، لكن بعيدا عن مجتمع الكتاب. وفي ذلك الوقت قررت هي أن تتخذ الاسم: "جورج إليوت"، ونشرت أول رواية كاملة لها بهذا الاسم في العام ١٨٥٩ بعنوان "Adam Bede"، وحققت تلك الرواية نجاحا مباشرا وفوريا. لكن تلك الرواية أطلقت العديد من التكهنات حول هذا الكاتب الجديد، لكن في النهاية وبعد فترة اعترفت ماري آن بأنها هي جورج إليوت، فكان لذلك الخبر تأثير قوي على قرائها الذين صدموا بمعرفة تفاصيل حياتها الشخصية". والجملة الأخيرة إشارة إلى سلوك إليوت المتحلل الخارج على الأعراف والأخلاق الجنسية المستقيمة.

نسائية عربية (ص١٢٨) . فأما بالنسبة لتاريخ أول مجلة نسائية عربية فهو صحيح، وهو التاريخ الذى أصدرت فيه الكاتبة اللبنانية هند نوفل فى الإسكندرية مجلة "الفتاة"[١] . إلا أننا قد سبق أن بينا أن المرأة العربية، ومثلها الأجنبية، كانت تكتب وتبدع منذ قرون وقرون. وفى الجاهلية عندنا عدد كبير من الشاعرات، وبعض الخطيبات. بل لقد كانت المرأة تكتب فى الصحف والمجلات قبل ظهور الصحافة النسائية، إذ كانت الصحف التى يصدرها الرجال مشرعة الأبواب لهن دون أية عوائق. والعجيب أن الغذامى، هنا ولأول مرة، يقر بأن المرأة العربية كانت مبدعة منذ قديم الزمان، إلا أنه يحاول أن يتفلفص من الحلقة التى تضيق على عنقه فيقول إنها لم تكن تبدع إلا رثاء للرجل (ص١٢٩) . يريد أن يقول إنها فى هذا لم تكن مستقلة حرة. لكن الرجال هم أيضا كانوا يرثون، فهل كانوا عبيدا فى رثائهم؟ كما أن المرأة لم تكن راثية فقط، بل هاجت الرجل وأحبت وافتخرت وغنت مشاعرها الفردية. . . وكان الكاتب قد زعم (ص١٢٨) أن مى زيادة دفعت ثمن هذا الاقتحام غاليا . يقصد أنها لم تتزوج، ثم جُنَّت فى أواخر حياتها، أو على الأقل قيل: إنها جُنَّتْ، وأُدْخِلَتْ مستشفى المجاذيب فى لبنان. وبالمناسبة فالذين أثاروا قضية دخولها المستشفى وكتبوا عن مأساتها ودَعَوُا السلطات اللبنانية للتدخل وفك كربتها هم الرجال، الذين يتهمهم الغذامى بكل نقيصة ويشمت بهم ويسخر منهم ويسمى ثقافتهم: "ثقافة الفحل" مرددا هذا المصطلح السخيف مرارا وتكرارا حتى ليخيّل هذا التكرارُ المسئمُ للقارئ أن الغذامى يكره الفحولة والفحول كراهية العمى. لكن لا بد أن نعرف أن مى كانت ضحية ظروفها الشخصية، إذ أرادت فى البداية أن تظل ملكة على عروش قلوب الجميع فخسرت كل شىء . ثم إنها وقعت بعد ذلك فى حب جبران، الذى كان يعيش على بعد آلاف الأميال فى أمريكا فى وقت كان السفر بين العالم العربى وتلك البلاد شيئًا صعبا ، ولم يكن جبران مستعدا للعودة إلى الشرق ولا له فى الزواج أرب، وهو ما أكده المؤلف (ص١٥٥) . ثم جاء أقاربها الطامعون فى ثروتها فحجروا عليها وجنَّنوها . فما صلة دخولها عالم الكتابة بهذا؟ ولماذا لا تنظر يا د . غذامى إلى هذا الأمر من جهته الأخرى لترى كيف أحرزت مى زيادة فى أعين الرجال مكانة عظيمة واحتراما ضخما ، ونالت اعترافهم بروعة إبداعها ، ولم يعادوها أو يقللوا من شأنها ، بل أفردوا لها صفحة مضيئة ساطعة فى تاريخ الأدب العربى. وهذا كله يهدم ما قلته عن احتقار الرجال للمبدعات ممن النساء .

---

١ انظر د . إسماعيل إبراهيم/ الصحافة النسائية فى الوطن العربى/ الدار الدولية للنشر والتوزيع/ ١٩٩٦م/ ١١ .

أما ما زعمه الغذامى (ص١٤٢) من أن الرجال حاربوا المرأة الكاتبة واتهموها بأن الرجل يكتب لها فمبالغة مقيتة، لأن هذه التهمة لم تثر إلا فى حالات قليلة تستدعيها كثير من الشواهد، وإلا فلماذا لم تُتَّهَم بتلك التهمة شاعرات العرب أو خطيباتهم القديمات؟ ولماذا لم تتهم بذلك عائشة التيمورية أو ملك حفنى ناصف أو مى أو لبيبة هاشم أو وداد سكاكينى أو بنت الشاطئ أو سهير القلماوى مثلا؟ ومن جهة أخرى فإن الشك فى نسبة عمل أدبى إلى صاحبه ليس مقصورا على شك الرجال فى النساء، بل كثيرا ما تشك النساء فى إنتاج زميلاتهن الأدبى ويتهمنهن بأن وراءه رجلا، كما أن الرجال كثيرا ما يتهمون رجالا أمثالهم بأنهم ليسوا أصحاب الأعمال المنسوبة إليهم. وما الشك فى الشعر الجاهلى على سبيل المثال بالذى يجهله أحد. والحق أن الرجال، على العكس مما يقول د. الغذامى، قد أخذوا بيد المرأة وجاملوها، وإلا فكيف نفسر مثلا تردد كبار الكتاب على صالون مى وكتابتهم عنها، وكذلك كتابتهم عن وداد سكاكينى وسائر الكاتبات والشاعرات العربيات والأخذ بأيديهن؟ وهم أيضا الذين نادَوْا بمساواتها وتحريرها من الظلم الواقع فى بعض البيئات عليها. وما دمنا بصدد الحديث عن جورج إليوت فإن هذه الكاتبة البريطانية قد لقيت تشجيعا عظيما من عشيقها الفيلسوف العالم الناقد جورج لِيوس لولاه لربما لم تبدع كل هذه الروايات التى أبدعتها، أو على الأقل: لم تكن لتبدعها بهذه الثقة وبتلك السهولة. وبسبب عطفه عليها ورغبته فى نجاحها كان حريصا ألا تَطَّلِع على أى نقد لكتاباتها. وقد ظهر أثر ذلك فى حياتها بمجرد أن مات، إذ اعتزلت الكتابة إلى أن ماتت بدورها. كما أن جون كروس، المصرفى الأمريكى الذى اقترن بها فى أواخر حياتها بعد أن تخطت الستين، قد كتب ترجمة لحياتها وشخصيتها[١]. ولا شك أن هذا وذاك يدلان على عكس ما يريد د. الغذامى إيهامنا به من أن الرجال يبغضون النساء الكاتبات ويتمَنَّوْن لهن الفشل. والعجيب أن الغذامى نفسه يستشهد (ص١٧٢ فما بعدها) بما تقوله كاتبة عن تشجيع الرجال للنساء، وعدم تشجيع المرأة لزميلتها. ومع هذا نراه يوجه التهمة للرجل لا إلى المرأة، وهو ما سبق أن قلت إنه يحتاج إلى دراسة نفسية.

ثم لقد كان هناك عشرات المبدعات فى عصر مى وقبل عصر مى، وتزوجن وكَوَّنَّ أُسَرًا، ولم يُجْنَنَّ. كما أن من الرجال الكاتبين من جُنُّوا كديسيموس اليونانى، وكان ناقدا، وجعيفران، ومانى (مصرى جاء إلى بغداد أيام المتوكل)، وأبى بكر الموسوس، وبرذعة الموسوس (صاحب المعتضد)، وخالد الموسوس، وهو شاعر كاتب، وجعفر سيبويه الموسوس (من عصر كافور)، وسوسنة أبى الغصن

---

[١] انظر المادة الخاصة بها فى طبعة ٢٠٠٦م من موسوعة "الإنكارتا" فى نسختّيها الإنجليزية والفرنسية، وموسوعة "لاروس" الفرنسية المشباكية. وللعلم كانت جورج إليوت تعضد الحركة الصهيونية. ألا خيبة الله عليها!

الموسوس، وشحطون الموسوس (بغدادى)، والوراق الموسـوس، وكان وراقا فى دكان علان الشعوبى، وأبى حيان الموسوس (شاعر بصرى)، ومصعب الموسوس، وهو شاعر كتب عنه ابن المعتز فى "الشعر والشعراء"، والحسن بن عون الموسوس (شاعر من القرن الرابع الهجرى)، وديك الجن، ونجيب سـرور وإسماعيل المهدوى. فما المشكلة إذن؟ ويجد القارئ أخبار مجانين الأدباء العرب القدامى عند الجاحظ وابن المعتز وأبى حيان التوحيدى وصلاح الدين الصفدى وابن شـاكر الكتبى وغيرهـم. ولابن حبيب النيسابورى كتاب كامل اسمه: "عقلاء المجانين".

ومن المضحك أنه، بعد كل هذه الاتهامات الغذامية للرجال، ينبرى د . الغذامى مؤكدا أن كل ما كتبته الكاتبات لم يخرج بالمرأة من سجنها اللغوى الذى حبسها فيه الرجل، اللهم إلا أحلام مستغانمى، فهى الوحيدة التى استطاعت التحرر كما يقول (ص١٨٠) . وهذا يعنى أن جميع كتابات عائشة التيمورية ومى ووداد سـكاكينى وأمينـة السعيد وبنت الشـاطئ والقلمـاوى ونـازك الملائكة وعاتكة الخزرجى وجليلة رضا وفدوى طوقان ورضوى عاشـور وغيرهـن وغيرهـن هـو تضييع للوقت دون الوصول إلى الانعتاق. فقط ما كتبته مستغانمى فى "ذاكرة الجسد" هو الاستثناء الوحيد الناجح، مع أنهن كلهن كتبن عن مشاعر المرأة أما وزوجة ومحبة. . . ومنهن من تجرأن ومضين فى الاتجاه المتمرد الذى يحبه ويحبذه د . الغذامى. ومع كل ما طنطن به الغذامى عن تأنيث اللغة نفاجاً به، كعادته التى لا يقطعها أبدا، يقول إن بطلة أحلام مستغانمى فى روايتها: "ذاكرة الجسد"، وهى البطلة التى أنثت اللغة فى رأيه وأتت بما لم تأت به الأوائل والأواخر معا، تنتهى بالزواج من رجل عجوز متزوج من امرأة أخرى (ص٢٠٤) نزولا على رغبة عمها الذى كان يتطلع إلى إحراز وجاهة. أهذا هو الانتصار السـاحق الذى أحرزته البطلة فى "ذاكرة الجسد"؟ أليس بهذه الطريقة قد ذهب كل ما قاله المؤلف فى الهواء؟

ويمضى د . الغذامى فى غرائبه المضحكة فيفرق (ص١٣١) بين الحَكْى والكتابة قائلا إن الحكى يتجه إلى الداخل، بينما تتجه الكتابة إلى الخارج. ورغم أنى لا أستطيع تحقيق معنى هذا الكلام المثير للقهقهة أرى أنه لا فرق بين هذه وذلك، فكلاهما كلام: هـذا أداته القلم، وذاك أداته اللسـان، والاثنان يخاطبـان الآخـرين. ويمكن تحويل كليهمـا إلى صـورة الآخـر متـى أردنا . ومما يزعمـه أيضـا أن الكتابـة تستخدم فيها الكاتبـة ضـمير المتكلم، وكأنها حين تحكى لا تقـول: "أنا" أبدا . فأى اضـطراب فكرى هذا؟ كما يقول إنها حين تكتب تتحول من مضاف إلى غيرهـا كـ"أم فلان" إلى مضاف إليها فيقال: "صالون مى" و"كِتَاب مى" . وهذا، والحق يقال، كلام لا يدخل العقل. ترى هـل هنـاك فرمـان عثمـانى بمنع الناس أن يقولوا: "حكايات شـهرزاد" مثلما يمكنهم أن يقولوا: "صـالون مى، وكتـاب مى"؟ ثم أم

يسمع سيادته بـ"جميل بثينة وكثير عزة وقيس ليلى وقيس لبنى وابن قيس الرقيات وصريع الغوانى وعيسى بن مريم وابن اللتبية (من عمال رسول الله)، وشريك بن سحماء (صحابى) وابن ميادة (شاعر من مخضرمى الدولتين)، وشبيب بن البرصاء وأرطأة بن سهية (والثلاثة شعراء إسلاميون من غطفان)، ومحمد بن الحنفية (ابن على)، وابن سيابة (فى الأغانى)، وابن القوطية (المؤرخ الأندلسى)، وابن عائشة (لأكثر من واحد من العلماء وغيرهم)، وابن الداية كاتب سيرة أحمد بن طولون، وابن الداية (أمير يمنى فى أيام الدولة الرسولية)، ومجد الدين بن الداية الحلبى (أيام الأيوبيين)، وسابق الدين عثمان بن الداية (صاحب شيزر)، وابن هند وابن آكلة الأكباد (لمعاوية)، وأبى الزهراء (رسول الله)، وأبى عمارة (حمزة بن عبد المطلب)، وأبى عزة الجمحى، وابن مقطّعة البظور (محارب قرشى قتله حمزة فى بدر)"؟ وهذا أشد وأعنف، إذ المضاف هنا هو الرجل نفسه، فضلا عن أنه مضاف إلى امرأة. كما أنهم كانوا يقولون: طُرَّة سُكَيْنَة، وطبق أم على، و(شابل) طاجن سِتّه، وبيت عاتكة (التى أتعزل). ثم إن أم فلان كان يقابلها أبو فلان، إذ كان نظام العرب الاجتماعى قائما، فيما هو قائم، على تكنية الرجال والنساء على السواء، وليس النساء وحدهن. أرأيت، أيها القارئ، كيف أنه ما من شىء يكتبه الغذامى إلا ويجىء مفعما بالثقوب والثغرات الواسعة التى ليس لها من علاج؟ ومن تلك الثقوب التى لا علاج لها فى كتابات د. الغذامى قوله مرارا إن الرجل لا يتناول المرأة فى كتاباته إلا بوصفها جسدا (ص١٨٩، ٢٠٣ مثلا)، مع أن المرأة تتخذ فى كتابات الرجل صورا مختلفة ما بين أم وأخت وبنت ومحبة وزميلة وجارة وتلميذة وأستاذة وزوجة وموضوع للشهوة وموضوع للغيرة وموضوع للفخار وموضوع للحنان وموضوع للشفقة وموضوع للعبرة وموضوع للاحتذاء وموضوع للشهامة والنبل... إلخ.

ومع كل ما كشفناه من تهافت فكر د. الغذامى نرى هناك من يتحدث عن ذلك الفكر حديث الإجلال والتبتل. ومنهم كاتبة من اليمن اسمها نضال الإيريانى وقعتُ لها، فى مجلة "غيمان" الفصلية فى العدالتاسع شتاء ٢٠٠٩م، على مقال عن كتاب "المرأة واللغة" تتناوله فيه بوصفه درة عبقرية لم يجد الدهر بمثلها. ومما جاء فى هذا المقال الذى يخلو من المنطق تماما، وليس فيه إلا التحمس للخراب والدمار والشقشقة بالمصطلحات الفارغة التى ليس لها رصيد فكرى مما هو بفكر الغذامى ولغته أشبه، قولها فى ختامه: "وهكذا تتضح لنا وجهة نظر الكاتب أكثر من ذي قبل في قوله: "الخراب الجميل"، الذي اتخذه عنوانا للفصل السابع، وقصد بذلك هدم "فحولة" اللغة واسترداد أنوثتها لإعادة القِسْمة اللغوية من جديد، وبطريقة عادلة! واستشهد المؤلف على هذا "الانقلاب اللغوي"، على حدّ تعبيره، الذي أحدثته الأنثى في مدينة اللغة، برواية "ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي، إذ يرى أن الكاتبة

نجحت في إعلان الأنوثة وتقديمها كقيمة لغوية في وجه الموروث اللغوي "الفحولي" العريق، وأحدثت بذلك هذا النوع الجميل من الخراب، الذي يدعو إليه المؤلف ويحث المرأة على القيام به، وإن كان يرى أن نجاح أحلام مستغانمي اقتصر فقط على "تأنيث اللغة"، ولم يتعده إلى "تأنيث الذاكرة" . وهذا من شأنه أن يجعل الذات المؤنثة تقع، دون وعي، ضد ذاتها، وتظل اللغة ضد الأنثى وأنوثتها على حدّ تعبيره. لهذا دعا، في الفصل الثامن والأخير، إلى تأنيث الذاكرة وأنسنتها لتكون للجنسين على حد سواء و"على الدرجة نفسها من الإفصاح والتمثيل"، وأعلن بذلك عن معركة مرتقبة بين "الأنوثة" و"الفحولة" على ميدان اللغة لاقتسام المواقع بالتساوي دون إجحاف بالحقوق وتحقيق العدالة. وذلك لن يتمّ، من وجهة نظره، سوى عن طريق اكتناز الذاكرة الثقافية باللفظ والمعنى المؤنث، الشيء الذي لم يتحقق بعد، وإن كانت "المرأة الجديدة تسير باتجاهه بوعي واضح وإبداعية واثقة" . وهكذا بصّر المؤلف المرأة بالكيفية التي يجب عليها اتباعها عند الحفر في ثنايا اللغة لاستخراج ما يخصها من كنوز. فهل ستستجيب المرأة الكاتبة لدعوته، وتسارع إلى حمل معاول الهدم والخراب لتُعْمِلها في اللغة وفي الذاكرة لتعيد إعمارها بطريقة أبدع جمالا وأكثر عدلا وأسمى رقيا وحضارة؟ أتمنى ذلك" . ولن أحاول تحليل هذا الكلام الذى يشبه رُقَى الجن والعفاريت، إلا أننى لا أستطيع أن أمر مرور الكرام ولا اللئام على قولها نقلا، عن د . الغذامى، إن مستغانمى رغم نجاحها فى"تأنيث اللغة" لم تنجح فى "تأنيث الذاكرة" مما كان من ثمرته أن بقيت اللغة معادية للأنثى وأنوثتها . هل فهمت، أيها القارئ الكريم، شيئا من هذا الكلام العفاريتى؟ ترى كيف تصير اللغة مؤنثة وتظل رغم ذلك ضد الأنثى وأنوثتها ؟

هل الثقافة العربية تحتقر المرأة ؟

وقع فى يدى منذ وقت غير بعيد بحث وجيز يقع فى نحو ستين صفحة بعنوان "الجنوسة والخطاب البلاغى" يتناول فيه أحد الزملاء وضع المرأة فى الحضارة العربية الإسلامية من خلال بعض النصوص التراثية مركزا على نصوص معينة منها يغلب على الظن أنه قد أقبل على بحثه وفى نيته البحث عنها وعن أشباهها بغية إثبات ما انتهى إليه فى ذلك البحث، وهو أن "العلاقة بين الرجل والمرأة كما تصورها البلاغة لا تصدر فى الغالب عن التراحم والتوادّ والمشاركة الوجدانية والعقلانية والمساواة، ولكنها قائمة على علاقة أشبه بالحرب والصراع تتخذ فيها المرأة أدوات الحرب من كيد واحتيال. كما أنها قائمة على اعتبار المرأة وعاء يفرغ فيه الرجل شهوته ويحفظ جنينه، فضلا عما فيها من استعلاء من جانب الرجل، وانسحاق من جانب المرأة. إنها بلاغة تحط من قدر الأنثى" وتجعلها حيوانا وجمادا لا كائنا إنسانيا له كرامته واحترامه (ص٤٨) . وهو ما يعنى أن العرب والمسلمين كانوا قوما متوحشين لا يعرفون أية أشواق عليا فى علاقتهم بالمرأة ولا يفكرون إلا فى إفراغ شهواتهم فيها، ولا تعرف بيوتهم سكينة ولا سلاما ولا حبا، بل حربا ضارية ضروسا تأتى على كل معنى كريم وعاطفة نبيلة. وللأسف لا يترك البحث شيئا من النصوص التى استشهد بها من تلك الثقافة أو أحدا من الأشخاص الذين ساق لهم شيئا من أقوالهم إلا وحمّلها وحمّلهم التبعة فى تلك العلاقة المنحطة التى كانت تربط بين الرجال والنساء حتى العصر الحديث. كما يزعم البحث أنه سوف يفكك تلك العلاقة إلى عناصرها الأولى كى يعرف القراء مدى ما فيها من انحطاط وتخلف ولاإنسانية فيعملوا على تصحيح مسارها، بالاستضاءة بمنجزات الحضارة الغربية الحديثة طبعا .

ومعنى ذلك أننا، نحن المسلمين، على مدار تاريخنا كله حتى عصرنا هذا الحالىّ، لم نكن نعرف شيئا من إنصاف المرأة ولا نيلها أيا من حقوقها، وأن حضارتنا لا علاقة لها بقيم المساواة بين الرجال والنساء على الإطلاق. فكأن القرآن والرسول لم يقولا شيئا فى هذا الصدد، ولم يفعل المسلمون للمرأة شيئا طوال الأربعة عشر قرنا الماضية. وهو كلام فى منتهى الخطورة، إن صح، لأنه لا دلالة له إلا على أن العرب والمسلمين متخلفون عن ركب الحضارة والإنصاف، وأنهم وحوش يكرهون المرأة ويسيئون بها وبقدراتها بل وبإنسانيتها الظن، ولا يعرفون منها إلا أنها وعاء لتفريغ الشهوة ليس إلا. أى أنها فى نظرهم مجرد جسد، ثم لا شىء آخر.

ولست أقصد بهذا الكلام تحقير الشهوة الجنسية، إذ هى نعمة من النعم الإلهية، فضلا عن أنها سر الحياة والوسيلة الوحيدة لاستمرار النوع البشرى، بل كل ما أريد الإشارة إليه هو إبراز ما يقوله

الزميل فحسب، وإلا فَقَدْ بان لكل ذى عينين ولكل غير ذى عينين أن الرهبانية التى تعرفها بعض الأديان الأخرى وينكرها الإسلام إنكارا عنيفا هى باب من أبواب الشيطان مهما علت الدعاوى وتشنجت الصيحات دفاعا عنها وتزيينا لها، وبخاصة بعدما افتضح الرهبان والقساوسة وانهتكت أستارهم وأسرارهم وظهر للقاصى والدانى اعتداءاتهم على الصبيان والنساء فى دور عبادتهم، فى الوقت الذى يتشدقون فيه بالزهد فى الدنيا وملذاتها، على حين يشبعونها فى ظلام نفاقهم البغيض.

لقد كانت المرأة الأوربية فى العصور الوسطى محرومة من حق التملك والتعليم، وظلت حتى وقت قريب محرومة من تولى معظم الوظائف، التى ما زالت أبواب بعضها مغلقة فى وجهها حتى الآن. بل كان الرجل فى بعض مناطق ألمانيا حتى نهاية القرن التاسع عشر يستطيع أن يبيع زوجته كأية سلعة. وفى فرنسا كان على النساء أن يغطين رؤوسهن فى الأماكن العامة حتى ذلك التاريخ أيضا. كذلك لم يكن للمرأة الغربية حتى بداية القرن العشرين الحق فى أن تدير عملا اقتصاديا، اللهم إلا من خلال وكيل يقوم هو بما تريد. كما لم يكن لها أى سلطان على أولادها دون إذن الزوج. وبالمثل لم يكن من حقها الحصول على الطلاق. وفوق ذلك كان رأى القساوسة فيها شديد السوء طوال العصور الوسطى. ليس ذلك فحسب، بل كانت آدميتها محل شك كبير فى الغرب إلى وقت قريب بتأثير الكنيسة. وكانت طوال التاريخ حتى العصر الحديث قعيدة بيتها، ولا تشارك فى الحياة العامة[١]. ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن المرأة الغربية، حين تتزوج، تفقد ذاتيتها، إذ تتخلى عن لقب أسرتها وتتخذ بدلا منه لقب أسرة زوجها، وهو ما لا تعرفه بحمد الله المرأة العربية والمسلمة، اللهم إلا فى البيئات التى تقلد الغربيين تقليد القرود متصورة أنها بذلك تلحق بركب التحضر رغم أنها بذلك التصرف إنما توغل فى التخلف. وأى تخلف أشد من أن تفقد المرأة ذاتيتها وتتلقب بلقب الزوج؟

ثم ظهر الاتجاه النسوى فى الغرب واستفاض فى العالم كله تقريبا. وكان يدعو فى بداية الأمر إلى رفع الغبن عن المرأة، ثم اشتد فدعا إلى المساواة مع الرجل، وإن كان بعض الداعيات به يشتطظن فيخرجن عن حد العقل إلى التهوس والهلوسة! وتعود بداية حركة المناداة بحقوق النساء فى الغرب وتسويتهن بالرجال إلى نهاية القرن الثامن عشر، على حين تم ذلك فى الإسلام منذ نزول القرآن وفيه الآيات التى تدعو إلى احترام المرأة وإعطائها حقوقها من مثل قوله تعالى: "ولهن مِثْلُ الذى عليهن بالمعروف"، وإن جعل للرجال عليهن درجة هى درجة القِوَامة والإشراف لا درجة التسلط والاستبداد

---

[١] انظر مادة "النسوية، وfeminism، وféminisme" فى "الموسوعة العربية العالمية والموسوعة البريطانية والويكيبيديا والإنكارتا الإنجليزية والفرنسية والموسوعة اليونيفرسالية الفرنسية وموسوعة لاروس الفرنسية".

والتعسف. وإلى جانب ذلك أتى الإسلام بشىء لم تعرفه أية حضارة حتى الآن. ألا وهو أن التعلم، سواء بالنسبة إلى الرجل أو المرأة، ليس حقا لهما يمكنهما أن يأخذاه أو يهملاه إذا أرادا، بل هو فرض عليهما لا بد لهما من تأديته، وإلا أثما. بل إن الرسول قد أكد أن الأب إذا كان له من البنات ولو بنتا واحدة فأحسن تربيتها وتعليمها وتزويجها كتبت له الجنة. وهو ما لا وجود له فى أية حضارة لا فى القديم ولا فى الحديث. ومن حق المرأة فى الإسلام أن يكون لها رأى فيمن يتقدم لخِطبتها، وأن تطلب الخُلع من زوجها متى كرهت عشرته.

وفى القرآن أيضا نلاحظ أنه سبحانه وتعالى يقرن النساء والرجال فى جَدِيلة واحدة على أساس تساويهما فى الحقوق والواجبات كما هو الحال فى قوله عز شأنه: "فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ" (آل عمران/ ١٩٥)، "وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا" (النساء/ ١٢٤)، "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (النحل/ ٩٧)، "مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ" (غافر/٤٠). ذلك أن الرجل والمرأة جميعا مخلوقان من نفس واحدة: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرًا وَنِسَاءً". والرجال والنساء بعضهم من بعض: "فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ" (آل عمران/ ١٩٥)، وبعضهم أولياء بعض: "وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ" (التوبة/ ٧١). وهم سواء فى تحمل المسؤولية وتلقى الجزاء: "إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا" (الأحزاب/ ٣٥). وهو ما عبر عنه الرسول فى أكثر من حديث كقوله: "النساء شقائق الرجال". وهذا كله، وهو غيض من فيض، لم تطلبه امرأة ولا حزب نسائى أو مؤسسة تتعصب للنساء، بل نزل به ابتداءً الوحىُ الأمينُ على قلب الرسول الكريم ليكون به من المبشرين. وهذا فرق آخر بين حقوق المرأة فى ديننا وبينها فى الأديان والأنظمة السياسية الأخرى.

ومن هنا وجدنا كارين أرمسترونج الراهبة البريطانية السابقة تؤكد أن تحرير النساء كان يملك على الرسول عليه السلام لُبَّه، إذ حرَّم القرآنُ تحريما قاطعا وَأْد البنات، وقرَّع العرب على نفورهم من

إنجاب الإناث، وأعطى النساء حقوقا شرعية فى الميراث والطلاق لم يكن فى يد نظيراتهن الغربيات منها شىء إلى القرن التاسع عشر، فضلا عن تشجيعه لهن على المشاركة فى شؤون الأمة وفى التعبير عن رأيهن بطلاقة[١].

وعلى نفس الشاكلة تقول آنى بيزانت (Annie Besant) فى كتابها: " The Life and Teachings of Muhammad"[٢] مشيرة إلى الأوهام التى يعتقدها البريطانيون حول الإسلام رغم أن الإسلام يتفوق على ما عندهم من أنظمة اجتماعية تفوقا هائلا، وبخاصة فيما يتعلق بحقوق المرأة وإنصافها، إذ أعطاها الإسلام حق طلب الطلاق والحصول عليه مثلما جعل لها حق قبول من يتقدم لطلب يدها أو رفضه دون أى إكراه. كما أشارت إلى ما يسود المجتمعات الغربية من نفاق عفن يتمثل فى وهم التمسك بزوجة واحدة على حين يعدد الرجال خليلاتهم بلا حدود بخلاف الإسلام، الذى نظم عملية التعدد وجعل حدها الأقصى أربعا وكفل لها جوا نظيفا طاهرا، فضلا عن تكليف الأب والأخ والابن بالإنفاق على المرأة بدلا مما يحدث فى بريطانيا مثلا حيث تُلْقَى المرأة فى الشارع متى لم تجد ما تنفقه على احتياجاتها:

"You can hear in England today good, kindly people saying of Islam that it denies to woman the possession of a soul. You can find others stating that the religion is evil, because it sanctions a limited polygamy. But you do not hear as a rule the criticism which I spoke out one day in a London Hall where I knew that the audience was entirely uninstructed, I pointed out to them that monogamy with a blended mass of prostitution was a hypocrisy and more degrading than a limited polygamy. Naturally a statement like that gives offence, but it has to be made, because it must be remembered that the law of Islam in relation to women was until lately, when parts of it have been imitated in England, the most just law, as far as women are concerned, to be found in the world. Dealing with property, dealing with rights of succession and so on, dealing with cases of divorce, it was far beyond the law of the West, in the respect which was paid to the rights of women. Those things are forgotten while people are hypnotised by the words Monogamy and Polygamy, and do not look at what lies behind it in the West— the frightful degradation of thousands of women who are thrown into the streets when their first protectors, weary of them, no longer give them any assistance".

---

[1] Karen Armstrong, A History of God, Ballantine Books, New York, 1994, PP. 157- 158.

[2] Theosophical Publishing House, Madras, 1932.

وبالمثل تبدى المستشرقة الإيطالية لورا فيشيا فاجليرى إعجابها بما أعطاه الإسلام للمرأة فى ذلك الوقت المبكر من حقوق كحقها فى الإرث، وحقها فى القبول أو الرفض لمن يتقدم طالبا يدها، وحقها فى احترام زوجها إياها، وحقها فى الحصول على مهر، وحقها فى إعالة قرينها لها حتى لو كانت غنية، وحقها فى التملك وفى إدارة ما تملكه إدارة مباشرة بنفسها لأنها كائن بشرى كامل الأهلية القانونية. أما بالنسبة إلى الحجاب فتنفى فاجليرى أن يكون المقصود به تقييد حرية المرأة أو إهانتها، مؤكدة على العكس من ذلك أن الهدف من ورائه تجنيب الرجال فتنة الخلاعة، وحماية المرأة من شهوات الرجال، وهو ما جعل تجارة البغاء المنظمة مجهولة تماما في البلدان الإسلامية كما تقول، إلا حيثما كان للأجانب سلطان. ثم تُرْدِف قائلة إنه إذا كان أحد لا يستطيع أن ينكر قيمة هذه المكاسب فيتعين علينا أن نستنتج أن الحجاب كان مصدر فائدة لا تقدر بثمن للمجتمع الإسلامي[١].

وقد لاحظت أن فى البحث الذى نحن بصدده خبطا كثيرا يتبدى، ضمن ما يتبدى، فى اقتطاف عبارة من هنا أو ههنا ولَىّ رقبتها كى تنظر فى الاتجاه الذى يريده الباحث، مما لا صلة بينه وبين المنهج العلمى الصحيح رغم تكرار الحديث فيه عن وجوب اصطناع المناهج البحثية الحديثة فى سبيل الوصول إلى الحقيقة. وهو مثال صارخ على ما أقوله دائما من أن العبرة ليست فى الاستعانة بهذا المنهج أو ذاك، بل أولا وقبل كل شىء بإخلاص الباحث ونقاء غرضه وحرصه على أن يبذل كل ما لديه من جهد لبلوغ الحقيقة، إذ إن المنهج، أى منهج، لا يتحدث من تلقاء نفسه، بل نحن الذين ننطقه: فإن كنا نريد الحق فإننا سوف نجتهد غاية الاجتهاد فى درك هذا الحق دون أن نتدخل فى فرض رؤيتنا على الواقع. أما إن كان الأمر بخلاف هذا فلن نألو جهدا فى سبيل تقويل النصوص ما لم تقله ولا يمكن أن تقوله، فضلا عن أنه سوف يتم التركيز من قبل ذلك على نصوص بعينها وإهمال نصوص أخرى من شأنها، لو أوردناها، أن تفضح تحيزنا وتعصبنا لما لدينا من أفكار مسبقة دخلنا بها بحثنا، وفى نيتنا أن نُفْهِم القراء أنها النتائج التى أدانا إليها البحث العلمى المجرد.

ومما ذهب فيه السيد الزميل بعيدا عن القصد ظَنُّه أن قول ابن منظور التالى فى مادة "أنث" فى لسان العرب إنما يعنى أن العرب كانت تسوى بين المرأة والجمادات. يقول ابن منظور: "وفي التنزيل العزيز: "إن يَدْعُون من دونه إلا إناثًا"، وقرئ: "إلا أُنُثًا"، جمع إناث، مثل تمار وتُمُر. ومَن قرأ "إلا إناثًا" قيل: أَراد إلا مَواتًا مثل الحَجَر والخَشَب والشجر والمَوات. كلُّها يخبر عنها كما يُخْبر عن المؤَنث. ويقال للمَوات الذي هو خلاف الحَيوان: الإناثُ". فهذا الكلام يعنى لدى زميلنا أن العرب كانت تسوى بين

---

[١] انظر كتابها: "دفاع عن الإسلام"/ ترجمة منير البعلبكى/ دار العلم للملايين/ ١٠٦.

المرأة والجماد . وهذا كلام غريب لم أسمع به من قبل، وقد استفزنى إلى مراجعة المعجم المذكور فوجدت ابن منظور يقصد أن كلمة "إناثا" فى الآية السابقة التى تتحدث عن توجه المشركين للأصنام بالدعاء لا تعنى أن تلك الأصنام مؤنثة الجنس، إذ هى فى الحقيقة جماد فلا تُذَكَّر من ثَمَّ ولا تؤَنَّث، اللهم إلا اعتبارا لا حقيقة، فشَرَح الآية بما يفيد أن المشركين يعبدون من دون الله جمادات لا روح فيها ولا حياة، وهو ما يوضح أنهم فى عبادتهم للأصنام عديمو العقل فاقدو المنطق. أى أن ابن منظور قد لفت القارئ فى شرحه للآية إلى معنى من معانى "إناث" غير شائع، مثلما لفت الزبيدى فى "تاج العروس" الأنظار إلى معنى آخر لكلمة "أنثى" مجهول لدى الناس كلهم تقريبا، ألا وهو "المنجنيق".

قال الزبيدى، وهو ما قاله ابن منظور تقريبا، لكن على نحو أزيد وأوضح وأكثر تفصيلا: "وفي التنزيل العَزِيز "إِنْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاّ إِنَاثًا" . وقُرِىءَ "إلاّ أُنُثًا": جمع إِنَاثٍ، مثْل نِمَار ونُمُر، وقرأَ ابنُ عبّاس: "إِنْ يَدْعُونَ من دُونِهِ إلا أُثُنًا" . قال الفرّاءُ: هو جَمْع الوَثَن كـ"الأَنَاثَى" كعَذَارَى. جاءَ ذلك في الشّعْر. من قرأَ: "إلاّ إِنَاثًا"، أَرادَ "المَوَات" الذي هو خِلافُ الحَيَوَان كالشَّجَر والحَجَر والخَشَب، عن اللّحْيَانِيّ. . . (و)يقَال: هذه "امْرَأَةٌ أُنْثَى" إِذا مُدِحَتْ بأَنَّهَا "كامِلَةٌ" من النّساءِ، كما يُقَال: رجُلٌ ذَكَرٌ، إِذَا وُصِفَ بالكَمَال، وهو مجاز" .

ولعل القارئ قد تنبه أيضا إلى أن المرأة حين توصف فى لغة الضاد بأنها "أنثى" فمعناه أنها حازت صفة الكمال بين بنات جنسها، وهو ما لم يلتفت إليه الزميل لأنه كان مشغولا بما يخدم فكرته التى أعدها سَلَفًا وأقبل بها على موضوعه جاهزة فيما أرجح. وشىء آخر لا ينبغى أن يفوتنى هنا، وهو أن "الرجولة" تشمل الرجال والنساء جميعا، فالرَّجُل رَجُلٌ، والمرأة رَجُلَةٌ. كما أن كلمة "رَجُل"، التى شاع استعمالها للذكور من البشر دون الإناث إنما تعنى فى أصل استعمالها "الراجل"، أى الذى يسير على رجليه، فلا فضيلة لأصل هذا الاسم على اسم "المرأة" أو "الأنثى" كما ترى. ومن هنا قال العرب: "جاءنا فلانٌ حافيًا رَجُلاً"، أى راجلاً، طبقا لما يقوله الزبيدى فى ذات المادة. كذلك يمكن، بطريقة السيد الزميل، أن نقول إن كلمة "الذَّكَر" التى تطلق على جنس الرجال هى فى الواقع إهانة لهم، وأى إهانة! إذ هى تطلق على عضو الرجل. ومعنى هذا أن اللغة قد اختزلت الرجل فى عضوه الجنسى لا أكثر، فلا عقل ولا عاطفة ولا ضمير، بل عضو تناسلى فقط. لكننا لا نذهب هذا المذهب فى الشرح والتأويل. كما أن لكلمة "رُجْلَة" (التى تعنى عادةً "الرجولة") معنى آخر هو أن يشتكى الواحد منا رجله. أى يصاب فيها فيتألم ويشكو. وهو، على النحو الذى يتناول به الأمورَ زميلُنا العزيز،

معنى يسىء إلى الرجولة. لكننا هنا أيضا لا نقول بهذا، إذ اللغة أكثر تعقيدا من أن نستنطقها المعانى بهذا الأسلوب فى كل الأحوال.

ويلاحَظ على زميلنا أنه يقتطع عبارة من هنا، وعبارة من هناك، ثم يركّب تلك العبارات بطريقته الخاصة فإذا بها تنطق بأن العرب كانوا يرون المرأة جمادا يفتقر إلى الحياة. ومن ثم كان افتقارها إلى النطق والبيان والبلاغة أمرا عاديا تماما (ص٩- ١٠ مثلا). وهو يستشهد بتفسير بعض المفسرين لقوله تعالى حكاية عن الكفار فى وصف النساء: "مَنْ يُنَشَّأُ فى الحِلْيَةِ"، إذ يشرح الزمخشرى ذلك بأن جنس المرأة إنما "يتربى في الزينة والنعمة. وهو إذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم ومجاراة الرجال كان غير مبين، ليس عنده بيان، ولا يأتي ببرهان يحجُّ به من يخاصمه، وذلك لضعف عقول النساء ونقصانهنّ عن فطرة الرجال. يقال: قلما تكلمت امرأة فأرادت أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها"، ناسيا أن الكلام فى الآية ليس هو كلام الله عز شأنه ولا حتى كلام المسلمين، بل كلام المشركين، الذين كانوا يبغضون خِلْقة الإناث ويرونها عارا وشنارا، بل كان بعضهم يئد ابنته التى رزقه الله بها فيدسّها فى التراب. وقد قال المشركون هذا الكلام عن النساء على سبل الإنكار والسخرية.

وللأسف فإن بعض المفسرين ينسى هذه الحقيقة ويذهب فيشرح الآية بطريقة من يتصور أنها كلام الله وحكمه سبحانه على جنس المرأة. فمن ذلك قول الطوفى فى تفسير الآية طبقا لما أورده الأستاذ الزميل عنه: "كَنَّى عن النساء بملازمتهن التَّحَلِّىَ وبالعِىِّ وعدم الإبانة فى الخصام لضعف قوتهن العقلية". أى أن الله هو الذى كَنَّى فى الآية عن النساء بما كنى به عنهن تعبيرا عن عِيِّهن وعجزهن عن الإبانة، وكأنه سبحانه قد خلقهن خُرْسًا. فهل يعقل هذا؟ ألم يقل القرآن عن الإنسان جميعه: ذكوره وإناثه، رجاله ونسائه: "الرحمن * خلق الإنسان * عَلَّمه البيان"؟ فكيف يقول فى موضع إنه قد علم المرأة البيان مثلما علم الرجل، ثم يقول فى موضع آخر إنها بطبيعتها غير مبينة، وضعيفة القوة العقلية؟ حاشا لله أن يفعل هذا، وإلا فلم قال الرسول عن النساء إنهن شقائق الرجال، أى الشق الآخر لهم المقطوع من ذات القماشة؟ ولم جعل القرآن الكريم الرجال والنساء بعضهم من بعض كما جاء فى الآية ١٩٥ من سورة "آل عمران"، مثلا؟ ثم لو كان الأمر على ما توهمه أولئك المفسرون فلم دافع الإسلام عن المرأة وسفّه أحلام المشركين، الذين كانوا يبغضون ولادتها، وحث على تكريمها وأخذ بناصرها وسوى بينها وبين الرجل، بل خصها بمزيد من الاهتمام لم يحظ به الرجل؟ ثم إذا كانت المرأة ضعيفة القوة العقلية إلى هذا الحد فكيف تحاسَب إذن ما دام وُسْعُها العقلى بهذا الضعف المزرى؟ ألم يقل سبحانه وتعالى: "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها"؟

كذلك يقول الزميل إن الزمخشرى ينزّل المرأة منزلة غير العاقل، فقد فسر سر استعمال الاسم الموصول: "ما" عِوَضًا عن "مَنْ" فى قوله عز شأنه فى الآية السادسة من سورة "المؤمنون": "إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم" بأنه لما كان المقصود هنا هو الإناث استخدم لهن الاسم الموصول لغير العاقل: "فإن قلت: هلا قيل: مَنْ مَلَكَتْ أيمانُهم؟ قلت: لأنه أريد من جنس العقلاء ما يجري مجرى غير العقلاء، وهم الإناث". ولا شك أن الزمخشرى قد أخطأ التعليل، وإلا لوجدنا القرآن ينحو هذا المنحى فى التعامل مع المفردات التى تدل على النساء، إلا أنه لم يفعل هذا قط.

كما أن عندنا قوله تعالى فى الآيات التالية: "وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا" (النساء/ ٣٦)، "وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ" (النحل/ ٧١)، "ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" (الروم/ ٢٨)، حيث قُصِد بـ"ما ملكت أيمانكم" العبيد عموما رجالا ونساء لا النساء فقط، بما يدل على أن "ما" ليست خاصة بالنساء وحدهن. ومن ثم فلا معنى لما قاله الزمخشرى عن دلالة هذا الاستعمال على إلحاق العرب جنس النساء بغير العاقل.

أما فى الآيتين التاليتين فالمقصود بملك اليمين هم الرجال وحدهم. ومن هنا نجد "وما ملكت أيمانهن" بإضافة "ملك اليمين" هذه المرة للجنس اللطيف لأن المقصود هم العبيد الرجال الذين تملكهم النساء: "وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (النور/ ٣١)، "لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا" (الأحزاب/ ٥٥). وهو ما يضرب تفسير الزمخشرى لهذا الاستعمال القرآنى فى مقتل.

ليس ذلك فقط، بل إن القرآن فى قوله تعالى من سورة "الليل": "وما خَلَقَ الذَّكَرَ والأنثى" قد استخدم الاسم الموصول: "ما" للدلالة على الله سبحانه. فما قول عالمنا الجليل فى هذا؟ لقد ذكر النحويون أن "ما" قد تستخدم للعاقل مثلما تستخدم لغيره. وهو نفسه يقول ذلك، إذ كتب فى تفسير هذه الآية ما يلى: "وَمَا خَلَقَ: والقادر العظيم القدرة الذي قَدَر على خلق الذكر والأنثى من ماء واحد . . . وقرأ ابن مسعود: والذي خلق الذكر والأنثى. . ."، وهو ما يدل على تسرع الزمخشرى فيما قال عن إلحاق المرأة بغير العاقل بسبب استعمال القرآن "ما" لها.

قد يقال إن الأستاذ الزميل إنما عرض ما يقوله البلاغيون القدماء عن المرأة، فهو ناقل لكلامهم ليس إلا. لكن فات من يقول هذا أن القدماء لم يقولوا كلهم هذا ولا أن من قال هذا منهم كان يقصد المعنى الذى فسره به السيد الزميل، أو لم يقل سواه، بل هناك كلام طيب كثير عن المرأة فى تراثنا، وكان ينبغى أن يورد الزميل كلا الكلامين. أما أن نورد جانبا واحدا من الكلام ونهمل الجانب الآخر فهذا معناه أن الصورة التى نقدمها لموقف القدماء من المرأة صورة مضللة. ولسوف نأتى مما أُثِر عن القدماء بما يجرى عكس هذا المجرى تماما، فضلا عما قاله القرآن والحديث. ولا يعقل أن المسلمين جميعا قد أهملوا وصايا قرآنهم وأحاديث رسولهم وعَمُوا وصَمُّوا تماما عنها وانطلقوا فى وادٍ يعاكس الوادى الذى تسير فيه تلك النصوص الكريمة. إن معنى هذا أنهم على بَكْرَة أبيهم كانوا يتوخَّوْن مناقضة الإسلام أو كانوا كلهم فى أحسن الأحوال لا يفهمونه. وذلك أمر لا يسوغ فى العقل بحال.

فهذا هو الزمخشرى يقول مثلا عن المرأة فى تفسير الآية ١٩٥ من سورة "آل عمران" إن قوله عز شأنه "مّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ" هو "بيان لعامل "بَعْضُكُم مّن بَعْضٍ"، أي يجمع ذكوركم وإناثكم أصل واحد، فكل واحد منكم من الآخر، أي من أصله، أو كأنه منه لفرط اتصالكم واتحادكم". وحتى لو أخذنا بما يقوله بعض المفسرين القدماء، ومنهم هو نفسه، من أن حواء قد خُلِقَتْ من ضلع آدم كما هو الحال فى النص التالى الذى يتناول فيه رحمه الله تفسير الآية الأولى من سورة "النساء": "يا أَيُّها ٱلنَّاسُ: يا بني آدم. خَلَقَكُمْ مّن نَّفْسٍ واحِدَةٍ: فَرَّعَكم من أصل واحد، وهو نفس آدم أبيكم. . . والمعنى: شَعَبَكم من نفس واحدة هذه صفتها، وهي أنه أنشأها من تراب، وخلق زوجها حواء من ضلع من أضلاعها"، فهذا معناه أن حواء قد خُلِقَتْ على شاكلة زوجها: فى الخطوط العامة، مع الاختلاف طبعا فى عدد من التفاصيل التى لا يمكن نكرانها مما نعرفه جميعا: فهى مثلا تحمل، والرجل لا يحمل، إذ لها رحم، وليس له. وهو أقوى منها عضليا وأكثر تحملا لمشاق الحياة وأطول بالا. وهى بارزة الصدر والأرداف، وهو لا. وهى طويلة الشعر، وهو قصيره. وعضوها التناسلى يختلف عن عضوه. وهى بوجه عام سريعة

الانفعال، وهو أكثر أناة. وهى تحتاج حمايته، وهو عادة لا يحتاج هذا منها . أما العقول والعواطف والمشاعر فهى مشاعة بين الاثنين، وإن كان لها لدن كل منهما نكهتها التى تميزها عن نظيرتها لدى الآخر، وإلا فلم خلق الله البشر نوعين اثنين ولم يجعلهما خلقا وحيد النوع يتولد ذاتيا دون حاجة كل نوع بل لهفته الجارفة إلى الالتحام بالآخر؟

أما أنا فأفهم الآية على أساس أن الله تعالى قد خلق آدم وحواء كليهما من نفس واحدة هى النفس البشرية التى تتحقق فيها خصائص النوعين جميعا، ثم لما شعبها نوعين ذهب كل نوع بخصائصه التى تميزه عن النوع الآخر، مع السمات العامة المشتركة بين الذكر والأنثى. وأحسب أن تفسير الآية على هذا النحو أكثر استقامة وأدنى إلى التوافق مع تركيب الكلام فيها . وأما تفسير من فسرها من العلماء على أن المرأة مخلوقة من ضلع آدم فأغلب الظن أنهم يرددون ما ورد فى ثانى إصحاحات سِفْر "التكوين" من العهد القديم، إذ نقرأ فيه: "[٢١] فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَمَلأَ مَكَانَهَا لَحْمًا . [٢٢] وَبَنَى الرَّبُّ الإِلهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. [٢٣] فَقَالَ آدَمُ: «هذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنِ امْرِءٍ أُخِذَتْ»" .

وربما اعتمد بعض العلماء على الحديث الشريف الذى يقول: "استوصُوا بالنساء، فإن المرأة خُلِقَتْ من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه. فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج. فاستوصوا بالنساء"، فيفسرون الضلع بأنه ضلع آدم رغم أن الحديث يخلو تماما من أى ذكر أو إشارة إلى آدم. وحتى لو كان المقصود أنها فعلا خلقت من ضلع من أضلاع آدم، فما علاقة هذا بكونها معوجة؟ الحق أننا لو جرينا على هذا الفهم لقلنا إن أخلاق الإنسان وتفكيره ومشاعره ينبغى أن تكون كلها طينا فى طين، ولا يمكن أن تنظف أبدا، ما دام هو مخلوقا من الطين. وهل يقول بهذا عاقل؟ ولنفترض أنها فعلا قد خُلِقَتْ من ضلع آدم، ومن ثم لا بد أن تكون معوجة، أفلا ينبغى أن يكون الاعوجاج بالأحرى فى قَوَامها مثلا بدلا من طبعها ومزاجها ما دام الضلع شيئًا ماديا يناسبه القوام، الذى هو شىء مادى، ولا يناسبه المزاج لأنه نفسى عقلى؟ ثم لماذا لا نقول أيضا على أساس من هذا التوجيه إن المرأة إنما خُلِقَتْ من ضلع آدم لتصد عنه الغوائل كما تفعل الأضلاع مع الشخص، إذ تحمى جنبيه من الصدمات والوخزات العنيفة؟

أما أنا فأفهم الحديث على أنه تصوير مجازى لغلبة عواطف المرأة عليها، فهى تنفعل وتتحكم فيها عواطفها أكثر مما هو حال الرجل. أما قول الإمام النووى، فى شرحه لحديث مسلم: "لولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر"، إن حواء هى المسؤولة عن السقوط من الجنة، إذ زين لها إبليس الأكل من الشجرة

وأغواها فأخبرت آدم بها فأكل منها، فلا أدرى كيف واتته نفسه به، وقد حسم القرآن الأمر بأن إبليس قد غرر بآدم وزوجه معا لا بحوّاء وحدها ثم أكملت هى الأمر بإغراء زوجها . بل إن القرآن ليركز الضوء على آدم فقط عند حديثه عن العصيان والغَوَاية: "فعصى آدمُ ربَّه فغَوَى" . يؤسفنى أن أقول إن هذا أثر من آثار الإسرائيليات، إذ هو موجود فى العهد القديم، وإن كان سفر "التكوين" يجعل الحية لا إبليس هى التى توسوس لحواء على ما هو معروف.

وعودا إلى ما كنا بسبيل الحديث عنه نسوق ما ساقه الزمخشرى مثلا فى "أساس البلاغة" من تعبيرات مجازيّة قالها العرب فى حق المرأة تدل على أنهم كانوا يقدرونها، فكنت أحب للزميل العزيز أن يتنبه إليها وإلى ما تدل عليه. قال الزمخشرى: "ومن المجاز: مَنْ أُمّ مثواك؟ وبلغت الشَّجَّةُ أُمَّ الدماغ، وهي الجلدة التي تجمعه. . . وما أشبه مجلسك بأُمّ النجوم، وهي المجرة لكثرة كواكبها . وهو من أمهات الخير: من أصوله ومعادنه"، "ويقال للصَّدَفة: أُمّ تُومَة"، "وفلان يتوسد أذرع بنات الليل، وهي المُنَى" . ويمكن أن نضيف إلى ذلك أيضا: "أمهات الكتب"، و"لم ينبس ببنت شفة"، و"هذا من بنات أفكارى" . . . إلخ. وفى "أساس البلاغة" أيضا: "هذه امرأة أنثى: للكاملة من النساء"، ويقول العربى: "حلبتُ بعيرى"، وهو يريد الناقة، مما يدل على أن البعير والناقة (أى ذكر الجمل وأنثاه) عند العربى سيان فى مثل هذا الأمر الذى يختص بالأنثى، ولا مدخل للذكر فيه بأى حال. وفى "أساس البلاغة": "قال بدوي لآخر: هل لك بيت؟ أي امرأة"، فجعل المرأة هى البيت كله، أى البناء وما يحويه من أثاث وناس.

وإذا كان زميلنا يأخذ على العرب القدماء تشبيههم المرأة أحيانا بالحيوان أو النبات أو الجماد ظنًّا منه أن هذا خاصّ بها وحدها وأنه دليل على تحقيرهم لها وإخراجهم إياها من عالم الإنسانية إلى عالم الحيوانات والنباتات والجمادات، فما رأيه فى المجازات التالية: "فلانٌ جُحَيْش وَحْده، وعُيَيْر وَحْدِه: في ذم المستبد برأيه والمستأثر بكسبه. . . وقد يستعار للمُهْر والغزال ويُشْتَقّ منه للصبي. قال المعترض الظفري:

قتلنا مَخْلَـــدًا وابْنَــيْ حــراقٍ		وآخَـــرَ جَحْوَشًـا فوق الفَطِيـم"؟

كذلك فكثيرا ما يشبَّه سيد القوم وقائدهم بـ"الكبش" كما فى قول عمرو بن معديكرب يذكر منازلته لخصمه فى الحرب:

نازلـــتُ كبشهمـــو، ولـــم		أرَ من نِـــزَال الكـــبش بُـــدّا

وكقول لبيد بن ربيعة فى الحرب أيضا:

بِكَتَائِبٍ تَرْدِي تَعَــــــــــوَّدَ كَبْشُهَـــــــتا		نَطْـــحَ الكِبَــــــاشِ كَأَنَّهُــــنَّ نُجُــــومُ

أقول هذا لأن زميلنا قد ظن أن تكنية العرب عن المرأة بالنعجة معناه أنهم يَرَوْنها لا تستقل بنفسها ولا بأمرها، بل تحتاج إلى من يرعاها ويضبطها ويقوم بأمرها وينتفع بها كما هو حال النعجة (ص٣٦) . فهل يجد القارئ يا ترى فرقا بين النعجة والكبش من هذه الناحية؟ أم إن الكبش هو الذى كان يقوم قديما بأمر صاحبه العربى ويرعى شؤونه ويسعى لاكتساب الرزق ثم يقسمه بعد هذا بينه وبين صاحبه؟

وإذا كان الأستاذ الزميل يأخذ على البلاغة العربية، كما يقول، أنها تصف المرأة بأنها "حيّة" فإن تلك البلاغة ذاتها قد وصفت الرجل بأنه "حيّةٌ ذَكَرٌ" و"حيّة الوادى" و"صِلُّ أَصْلال"؟ لكن زميلنا للأسف يسارع فيقول إنها فى حالة المرأة تشير إلى الغدر، على حين تشير فى حالة الرجل إلى الشجاعة، متجاهلا بيتا كالبيت التالى للنابغة الذُّبْيَانى:

ماذا رُزِئْنا به مـــــــن حيـــــةٍ ذَكَـــــــر		نضّاضةٍ بالرزايا صِـــــلِّ أَصْــــــلاَل؟

فهو يجلب الرزايا على من يُبْتَلَوْن، بل يُرْزَأُون، به. فهل فى هذا أى افتخار أو مدح؟ إن زميلنا إنما ينتقى ما يرى أنه يثبت فكرته التى يعمل على نشرها بين القراء من أن العرب والمسلمين كانوا يحتقرون المرأة ويسيئون إليها ويصيرونها حيوانا وجمادا ونباتا . ولهذا السبب نراه يلوى وجه الألفاظ والعبارات كى تنطق بما يريدها أن تنطق به.

كذلك كان العرب يقولون عن الرجل السيد: "ثور القوم"، وبه كانوا يكنون عَمْرَ بن معديكرب. ويقول عمرو بن معديكرب مفتخرا بمنازلته رئيس قبيلة أعدائه:

نازلـــــــتُ كبشهمـــــــــو، ولـــــــــم		أر مِـــــنْ نِـــــزَال الكبـــش بُـــدّا

وهو، حين يقول ذلك، لا يقصد بتاتا أن يهينه ويقلل من شأنه، بل يريد الإشارة إلى أنه لم يكن أمامه أى مناص من منازلة رئيسهم وقائدهم ذاته، وليس أى رجل من رجال القبيلة العادين. أى أنه هنا يفتخر بمنازلته كبش القوم، أى كبيرهم، لا أى خروف منهم. وقال على بن الجهم فى العصر العباسى مادحا:

أَنتَ كَالْكَلْــــبِ فِي حِفَــــاظِكَ لِلْــــــوُدْ		دِ وَكَالتَيْسِ فِي قِـــــراعِ الخُطُـــــــوبِ

وتقر ليلى الأخيلية الشاعرة المخضرمة بما قاله فى حقها النابغة الجعدى، الذى عيّرها بأنها فرس تنادَى بـ"هَلاَ"، فتجيبه قائلة:

أعَيَّرْتَـــــني داءً بأمّـــــــتك مِثْلُــــــهُ؟		وأيُّ جَـــــوادٍ لا يُقــــال لَـــهُ: هلا؟

بل كان بعضهم يسمَّى: "ثورا" و"جحشا" و"بَكْرا" و"عثمان" (وهو فرخ الثعبان) و"ثعلبا" و"قُرَادا" و"خروفا": كالشاعر حُمَيْد بن ثور، وجحش زوج عمة الرسول وحَمِيه، وبكر بن وائل، وعثمان بن عفان، وثعلب اللغوى المشهور، وقراد بن حنش، وابن خروف مثلا. وكثيرا ما يكنون الرجل: فَحْلا، والفَحْلُ جملٌ، أى حيوان. ولم يقل أحد إنهم يهينونه بهذه التسمية. وإذا كان زميلنا يستنكر كنايتهم عن معاشرة الرجل للمرأة بقولهم: "رَكِبَها" (ص٣٧ وما بعدها)، فإنهم يقولون أيضا: ركب فلان فلانا بالسخرية أو بالإساءة، وركبه الهم، وركبه الدَّين، وركب فلانٌ ذَنْبا، وركب رأسه، أى سار متعسفًا أمره لا يطيع مرشدا. فكما ترى فالركوب واقع على الرجل والمرأة وغيرهما على السواء. كما أننا كثيرا ما نقول عمن تسيطر عليه امرأته إن امرأته تركبه، مع ملاحظة أنها هنا فى الزراية على الرجل، بخلافها فى الكناية عن المعاشرة الجنسية. ويقول العرب: "أجررتُ فلانا رَسَنه: تركته وشأنه"، والرَّسَن هو اللجام، فكأنه دابة لها لجام. ومن ذلك أيضا: "خلع فلان رَسَنه وعِذَاره فعَدَا على الناس بِشَرٍّ". وهناك "ذؤبان العرب"، أى صعاليكهم. و"فلان فُرَيْخُ قومه"، أى مكرَّمهم. والفُرَيْخ هو الفرخ الصغير. كذلك نراهم يقولون: "المرأة راعية البيت" بما فيه الرجل طبعا، أو على الأقل: أولاده وماله وسائر أموره. وزميلنا نفسه قد أورد قول امرأة لعائشة رضى الله عنها تشير إلى زوجها وكراهيتها أن يفكر فى سواها: "أأقيّد جملى؟" (ص٤٣)، ومع هذا لم يجد فى ذلك الاستعمال شيئًا يسىء إلى الرجل مع أنه لا فرق فى الاستعمال بينه وبين التكنية عن المرأة بالناقة. إلا أنه يرفض هذا، ولا يجد غضاضة فى ذلك. ومن أسماء الرجال الشائعة عند العرب: "جندب"، أى صرصور الحقل، و"حُنَيْش"، و"حُبَاب"، وهو الحيّة، و"أسد"، و"العبّاس" من أسماء الأسد، و"أسامة" من أسماء الأسد أيضا، و"عنترة"، أى الذبابة الزرقاء، و"طاووس"، و"عكاشة"، وهو العنكبوت، و"كلب"، و"كُلَيْب".

ومن مجازاتهم التى تشبّه الرجل أو تكنّى عنه بالنبات والجماد قولهم: "زرَعَ الله ولدك للخير"، و"أَسْتَزْرِع اللهَ ولدي للبرّ"، و"فلان دعامة قومه" لسيدهم وسندهم. قال الأعشى:

كــــلا أبوينا كان فـــــرع دعامـــــــــةٍ		ولكنهـــم زادوا، وأصبحـــتُ ناقصــــا

والرجل لِبَاس المرأة مثلما هى لباسه، أى تبلغ به مخالطته إياها أن يصير كأنه ملابسها، التى تباشر جسدها كما جاء فى الآية ١٨٧ من القرآن المجيد: "هُنّ لباسٌ لكم، وأنتم لباسٌ لهنّ". وكان زميلنا قد أخذ على البلاغة العربية أنها تشبّه المرأة بـ"اللباس"، مستشهدا على ذلك بهذه الآية الكريمة (ص٣٤، ٤٦)، فما هى ذى البلاغة العربية تشبه الرجل أيضا باللباس، فما قوله فى هذا؟ ودعنا من أن انتقاده ذاك إنما يمس القرآن قبل أى شىء آخر. كما أن القرآن لا يقصر التشبيه باللباس على المرأة، بل يشرك الرجل معها فى ذلك مثلما هو واضح كالشمس من الآية. ويقول العرب كذلك: "خلعت فلانة زوجها"، وكأنه خاتم تخلعه من إصبعها وتلقيه بعيدا عنها. و"فلان رَحَى قومه"، أى سيدهم الذى يعصبون به أمرهم ويعتمدون عليه فى حل معضلاتهم. و"هو كَهْف قومه"، أى ملجؤهم. ولُقِّب خالد بن الوليد بـ"سيف الله المسلول". ومن أسماء الرجال عند العرب: "حنظلة" و"سَمُرَة" و"طلحة" و"سَلَمَة"، وهذه أسماء نباتات وأشجار، و"الفرزدق"، وهو الرغيف، و"جَبَل"، و"حزام"، و"كعب"، و"جَرِير"، والجرير هو الحبل. ومن تعبيراتهم: "رجل شِسْعُ مالٍ"، أى بارع فى استثماره (والشسع هو ما نسميه الآن: رباط الحذاء)، و"صخر"، و"جندل"، و"درهم"، و"كُمَيْت"، وهى الخمر، و"مِجَنّ"، وهذه أسماء جمادات.

أما قولُ الزميل إن العرب كانت تكنى عن المرأة بالحرث واتخاذُه ذلك عيبا يعيبهم به مستشهدا فى هذا السياق بقوله عز شأنه: "نساؤكم حرثٌ لكم، فأْتوا حرثكم أَنَّى شئتم" (البقرة/ ٢٢٣)، فهو كلام غريب، إذ ماذا يريد أن يقول من خلال الزجّ بالقرآن فى هذا الموضع؟ ليس هذا فحسب، بل يزيد فيعلق على تفسير بعضهم للأرض التى لم يطأها المسلمون فى قوله تعالى فى سورة "الأحزاب" مشيرا إلى يهود بنى قريظة: "وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها" بنساء اليهود بأن فى ذلك بقايا من أساطير ما بين النهرين، تلك التى كانت تؤنّث الأرضَ وتذكّر السماءَ، على عكس الأساطير المصرية القديمة التى كانت تؤنّث السماء وتذكّر الأرض. الله أكبر! لقد وصلت الأمور هنا إذن إلى الأساطير! مع أن المسألة لا تعدو التشبيه المباشر، إذ شُبِّه الرَّحِم بالأرض المستزرَعة، وماءُ الرجل بالبذور، فما المشكلة فى هذا؟ وأين دخل السماء هنا؟ وهذا إن كانت الأرض فى الآية معناها النساء، وهو ما لا يمكن أن يكون، إذ إن نساء بنى قريظة جمع، فهن لسن أرضا واحدة، بل أرضين كثيرة، فضلا عن أن عبارة "لم تطأوها" لا معنى لها: لأنه إذا كان المقصود أن المسلمين لم يطأوا نساء يهود بعد سبيهم لهن فما وجه الامتنان فى ذلك؟ وإذا كان المقصود أنهم لم يكونوا قد وطئوهن قبل الغزو فهذا أمر طبيعى، إذ المسلمون لم يكونوا أمة من الزناة حتى يمكن أن يجول فى خاطر أى أحد أنهم وطئوا النساء القُرَظِيّات

من قبل. ومن ثم فلا معنى للنص على ذلك فى الآية الكريمة. ولقد رجعت إلى تفاسير الطبرى والقرطبى والبغوى وابن كثير والبيضاوى والنسفى والجلالين والشوكانى فلم أجد شيئًا من ذلك، بل كان تفسير الأرض التى لم يطأها المسلمون هى البلاد المفتوحة، وليس النساء.

كذلك لا أدرى، ولست إخال أدرى، وجه العيب فى تشبيه المرأة فى آية "البقرة" بالحرث. ترى هل الحرث شىء مهين؟ إن القرآن هنا إنما يوضح للمسلمين أن أى وضع يتخذه الرجل فى معاشرة امرأته جائز ما دام يأتيها فى قُبُلها. وهذا معنى الحرث، أى الأرض التى تُسْتَزْرَع فتنبت. أما إتيان المرأة فى دبرها فوضع للبذرة فى غير حرث لأن ذلك لا يؤدى إلى تلقيح أو حمل. ولا على المسلمين بعد ذلك أن يأتوها من الأمام أو من الخلف أو من الجنب ما داموا يأتونها فى قُبُلها. المهم أن يكون الإتيان من خلال السبيل الشرعى الطاهر لا على سنة الشواذّ الأنجاس.

وأما قول زميلنا إن العرب كانوا يكنون عن المرأة بـ"النعل" (ص٤٨- ٤٩) فهل كانت هذه التكنية منتشرة بين العرب؟ أم هل استخدمها مرةً أحد الضائقين بزوجته فى بيت شعر فظُنَّ أن العرب جميعا كانوا يستعملونها فى هذا المعنى؟ ذلك أننى بحثت، عن طريق الباحث الألكترونى، فى نحو ستمائة كتاب من كتب التراث فلم أعثر عليها إلا عند الثعالبى فى كتابه: "نَثْر النَّظْم وحَلّ العقْد" منسوبة إلى عمر رضى الله عنه. وعمر بَشَرٌ من البَشَر، إذا كان قد قال ذلك فعلا فهو رأى خاص به لا يلزم غيره، وليس قرآنًا كريما. وعلى أية حال فلسنا نقول إن كل شىء كان طيبا بالنسبة إلى المرأة فى الحضارة العربية، ولا أن المرأة فى علاقتها بالرجل كانت دائما وأبدا ملاكا طاهرا، إذ لا يمكن أن يخلو مجتمع من المجتمعات من عيوب ومآخذ. لكن المشكلة تكمن فى الدعوى العريضة الطويلة التى ادعاها السيد الزميل على العرب جميعا طوال تاريخهم كله زاعما أن وضع المرأة لديهم كان فى غاية السوء والحقارة، وأنه لم يكن هناك فيما يخصها بصيص من ضوء.

بل إنه لينكر على اللغة تسميتها الزوج: "بَعْلاً"، إذ هو لا يقبل أن يكون الزوج رئيسا وقوّاما على البيت، وهو المعنى الملحوظ فى كلمة "البعل" (ص٤٩- ٥٠). وليت شعرى ماذا فى لفظ "البعل" حتى يستنكره السيد الزميل؟ أليست الأسرة شركة؟ أليست كل شركة ينبغى أن يكون لها قَيّمٌ ورئيسٌ؟ ألم يقل القرآن المجيد: "الرجال قوّامون على النساء"؟ ألم يقل: "وللرجال عليهن درجة"؟ ولنفترض أن ذلك ليس قرآنًا، فما وجه العيب فيه؟ ولماذا يراد للأسرة وحدها دون سائر الشركات أن تبقى دون رئيس؟ أم هو تمرد والسلام لوجه التمرد؟ إن القول برئاسة الرجل للبيت ليس دعوة إلى استبداده بالمرأة، بل هو تنظيم إدارى إن صح القول. وماذا فى تنظيم كهذا؟ أم ينبغى أن يترك الأمر

فوضى لا ضابط له ولا رابط؟ إن الرجل أقوى من المرأة وأقدر على تسيير أمور الأسرة، وإن لم يعن هذا أنْ تُجَرَّد المرأة من كل سلطان، إذ لها سلطانها متمثلا فى إدارة أمور المعيشة والسهر على راحة أفراد أسرتها مثلا. ولا ينبغى أن يقال هنا إنها ليست خادمة، وإلا فسوف يقال هذا عن الرجل، إذ هو أيضا يخدم أفراد أسرته فى نواحٍ أخرى. والناس جميعا، بما فيهم أفراد الأسرة، بعضٌ لبعضٍ، وإن لم يشعروا، خَدَمٌ كما قال الشاعر.

وقد أنكر زميلنا على لغة العرب أن تكنى عن المرأة بـ"الرَّحْل" فى مثل "حوَّلتُ رَحْلِى الليلة" للإشارة إلى تغيير كيفية المعاشرة الجنسية (ص٤٠– ٤١). فماذا هو قائل إذا عرف أنهم كانوا يستخدمون الرَّحْل فى التكنية عن الرجل، وعن الأمر من الأمور كذلك، أيضا؟ جاء فى كلامهم: "رَحَلْتُ الرَّجُلَ رَحْلاً وارتحلته ارتحالاً: ركبته. وعن النبي صلى الله عليه وسلم حين ركبه الحسين فأبطأ في سجوده: "إن ابني ارتحلني". ولأَرْحَلَنَّك بسيفي، ورَحَلَه بسيفه: إذا علاه به. ورَحَل الأمرَ وارتحله: ركبه. وارتحل فلانٌ أمرًا ما يطيقه".

ولقد وقف السيد الزميل إزاء تشبيه المرأة فى بعض نصوص التراث العربى بالقيد والغُلّ، وانطلق فى فاصل من الإنكار والاستنكار على العرب القدامى متهما إياهم بأن بلاغتهم "تتصور علاقة الرجل بالمرأة وكأن تحرير الرجل لا يتحقق إلا بخلاصه من المرأة وتحرره من قيدها" (ص٤٧– ٤٨). مرحى مرحى! إذن فالمظلوم، يا زميلى العزيز، هو الرجل لا المرأة! والذى كان بحاجة إلى التحرر إنما هو الرجل لا المرأة! ألست أنت الذى تقول ذلك؟ ألا ترى أنك، بهذه العبارة، قد نسفت كل بحثك الذى أدرته على أن المرأة كانت محتقرة مهانة ذليلة مستضعَفة مظلومة؟

والطريف أننى كنت أناقش زميلى العزيز منذ أيام، وكان فى زيارة شرفنى بها فى مكتبى، وجاءت سيرة النساء، فبوغتُّ بأن رأيه فيهن هو الرأى الذى يأخذه صدقا أو باطلا على العرب القدماء، فعلقت ضاحكا: ألا ترى يا زميلى العزيز المفارقة العجيبة؟ إن رأيك فى النساء لسيئ شديد السوء، بعكس رأيى أنا الرجعى المتخلف، فإنى لا أقول فيها معشار ما تقوله الآن. وضحكت، وضحك هو أيضا. وكنا قد تناقشنا فى هذا البحث قبل عدة أسابيع، فكان رأيى أنه قد ظلم التراث والتاريخ والمجتمع العربى، إذ صوره وهو يعامل المرأة معاملة غير إنسانية طبقا لبعض النصوص التى امتلخها من هنا ومن ههنا والتى لا تعبر مع ذلك عن الحقيقة حتى فى نطاق قائليها، بل هى إلى الرواسم أقرب منها إلى الواقع الفعلى. ومن هذه الرواسم، ولكن على الضفة الأخرى، قولهم: "وضع فلان كتابا"، أى ألّفه. ولا يمكن أن يخطر فى بال عاقل أنهم يؤنثون الرجل ويجعلون منه امرأة تحبل وتضع. ولو

كانت "الموضة" التى أتتنا هذه الأيام من الغرب هى موضة "الرِّجَالِيّة" لا "النسوية" لكان زميلى العزيز قد سارع إلى هذا التعبير وأمثاله واتخذه برهانا لا يصد ولا يرد على أن العربية لغة أنثوية، وجعله من ثم قضيةً ولا أبا حسنٍ لها !

وقلت له يومها أيضا إن المرأة إما أن تكون أما أو زوجة أوبنتا أو حبيبة: فأما الأم فقد كان المسلم يبرها غاية البر ويحترمها، فكيف يقال إن المرأة كانت محتقرة مهانة مهمشة مقصاة. . . إلى آخر هذا الكلام الكبير الذى ورد إلينا فى الأعوام الأخيرة من أوروبا فصار البعض يردده كما ورد فى عُلْبَته؟ وأما الزوجة فقد كان المسلم ينظر إليها على أنها عِرْضه وشرفه وكرامته، فكيف يقال إنه كان يحتقرها ويراها غير آدمية؟ ألم يكن يجرى لاهثا وراء لقمة العيش ثم يضع ما يكسبه فى يديها تتصرف به فى تسيير أمور البيت على النحو الذى تراه، وهى معززة مكرمة؟ وأما البنت فقد كان المسلم يعطف عليها ويعمل على إحسان تربيتها وتزويجها والقيام بما تحتاجه مثل الولد سواء بسواء، فكيف يُتَّهَم الآباء بأنهم كانوا قساة غلاظا أجلافا مع بناتهم؟ وأما الحبيبة فهذه حكاية وحدها، إذ كان الرجل يترامى على قدميها ويتمنى رضاها ويقدم روحه فداء لها وثمنا رخيصا لنظرة من عينيها تحييه أو تقتله قتلا. بل كان النقاد يوجبون عليه إذا نَسَبَ بها أن يبدى ضروب الذلة والخضوع حتى يكون نسيبه مقبولا، فالحب كما يقولون يخضع له الكبير والصغير والشريف والوضيع والملوك والسوقة، ليس عنه مَعْدًى. فكيف يزعم زاعم أن الرجل كان يقلل من شأنها وينزل بها إلى الحضيض الأسفل؟ فكان جواب الزميل أن المرأة التى يكتب هو عنها ويثبت وقوع الظلم عليها ليست هى الأم ولا الزوجة ولا البنت ولا الحبيبة. . . فقلت له: فما الذى يبقى من المرأة بعد ذلك؟ الحق أنه لا يبقى فى هذه الحالة يا زميلى العزيز إلا المرأة المجردة. وأين بالله عليك يمكن أن نجد تلك المرأة المجردة؟ إنها لا وجود لها إلا فى الوهم والخيال. ذلك أن الواقع لا يعرف إلا المرأة المتجسدة فى صورة أم أو زوجة أو بنت أو حبيبة. وهؤلاء لم يحتقرهن الرجل كما قلنا .

والعجيب أن السيد الزميل يقول هو أيضا هذا الذى أقوله، إلا أنه للأسف لا يمضى معه إلى آخر الشوط. قال (ص٥٢): "ويبدو أن البلاغة فرّقت بين المرأة من حيث هى جنس عام يمثل المرأة فى كل عصر ومكان، وبين أنواع خاصة من النساء، فصوّرت المرأةَ بوصفها جنسا صورة سلبية، ولكن هناك صورة أخرى تتبدى حين يكنّى بعض الكتّاب كابن العميد (ت٣٦٠هـ) والصابى (ت٣٨٤هـ) والصاحب بن عباد (ت٣٨٥هـ) وغيرهم عن البنت بـ"الكريمة"، وعن الصغيرة بـ"الريحانة"، وعن الأم بـ"الحرة والبرة"، وعن الأخت بـ"الشقيقة"، وعن الزوجة بـ"كبيرة البيت"، وعن الحرمة بـ"من وراء الستر". فليس من

شك فى أن هؤلاء وأمثالهم سيتحولون بالكناية عن المرأة وجهة أخرى تخالف ما هو مستقر فى المخيلة العربية حين يتصل الأمر بذوى قرابتهم أو المتصلين بهم (يقصد: بذوات قرابتهم أو المتصلات بهم) من بنات أو أمهات أو أخوات أو زوجات يصونهن عن الابتذال على الألسنة".

وإنى لأتساءل: وهل يقول أى أحد آخر فى ذوات قرابته شيئا غير الذى قاله هؤلاء فى قريباتهم؟ أليس كل إنسان يرى أمه وأخته وبنته وزوجته بنفس العين التى كان هؤلاء يرون أمهاتهم وبناتهم وأخواتهم وزوجاتهم بها؟ فإذا كان الأمر كذلك فهل يبقى حينئذ أحد من النساء موصوفا بالحقارة والهوان؟ وايم الحق لا. لكن زميلنا لا يريد أن يبصر الحق الأبلج. والسبب؟ السبب هو أنه، كما سبق القول، قد أقبل على بحثه، وقد عقد العزم على أن ينتهى إلى تلك النتيجة. وهذا واضح لا يحتمل مراء.

وحتى يتيقن القارئ مما قلت عن موقف الزميل ألفت انتباهه إلى أنه يقول فى الفقرة السابقة على هذه مباشرة إن من دلائل احتقار العرب للمرأة قولهم: "المرأة ريحانة لا قهرمانة"، مع أننا قد رأيناه قبل قليل يعد وصفهم للصغيرة بـ"الريحانة" تبدُّلا فى الكناية وتحولا بها من الاحتقار إلى التكريم. فبالله هل وَصْفُ المرأة بأنها ريحانة تكريم أو تحقير؟ لا بد من الرسوّ على بَرٍّ، أما ترك الأمور متأرجحة على هذا النحو فمزعج. ومع ذلك فهل كان هذا هو كلام العرب جميعا؟ فلأورد هنا للقارئ الكريم السياق الذى قيلت فيه تلك العبارة.

جاء فى كتاب "الأذكياء" لابن الجوزى فى القِسْم الذى خصصه لذكاء النساء ما يلى: "قدم الحجاج على الوليد بن عبد الملك فصلى عنده ركعتين، وركب الوليد، فمشى الحجاج بين يديه، فقال له الوليد: اركب يا أبا محمد. فقال: يا أمير المؤمنين، دعني أستكثر من الجهاد، فإن ابن الزبير وابن الأشعث شغلاني عن الجهاد زمنا طويلا. فعزم عليه الوليد أن يركب، ودخل فركب مع الوليد. فبينا هو يتحدث ويقول: "ما فعلتَ بأهل العراق وفعلتَ؟" أقبلتْ جارية فنادت الوليد ثم انصرفت، فقال الوليد: يا أبا محمد، أتدري ما قالت الجارية؟ قال: لا. قال: قالت: أرسلتني إليك أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان أن مجالستك هذا الأعرابي وهو في سلاحه، وأنت في غلالةٍ، غَرَرٌ. فأرسلتُ إليها أنه الحجاج بن يوسف. فراعها ذلك وقالت: والله لأن يخلو بك ملك الموت أحبّ إليّ من أن يخلو بك الحجاج، وقد قتل أحباءَ الله وأهلَ طاعته ظلما وعدوانا. فقال الحجاج: يا أمير المؤمنين، إنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة. لا تطلعهن على سرك، ولا تستعملهن بأكثر من زينتهن يا أمير المؤمنين. ولا تكن للنساء برَؤُوم، ولا لمجالستهن بلَزُوم، فإن مجالستهن صَغَارٌ ولؤم. ثم نهض فخرج ودخل الوليد على

أم البنين فأخبرها بمقالته، فقالت: إني أحب أن تأمره بالتسليم عليّ، فسيبلغك بالذي يكون بيني وبينه. فغدا الحجاجُ على الوليد، فقال الوليد: ائت أم البنين. فقال: أعفني يا أمير المؤمنين. قال: فلتَفْعَلَنّ. فأتاها فحجبته طويلا، ثم أذنت له ثم قالت له: يا حجاج، أنت تفتخر على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث؟ أما والله لولا أن الله علم أنك أهون خلقه عليه ما ابتلاك بقتل ابن ذات النطاقين ابن حواريّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن الأشعث. فلَعَمْري لقد استعلى عليك حتى عجعجتَ، ووالى عليك الهرار حتى عَوَّيتَ. فلولا أن أمير المؤمنين نادى في أهل اليمن، وأنت في أضيق من القرن فأظلتك رماحهم وعلاك كفاحهم، لكنتَ مأسورا قد أُخِذ الذي فيه عيناك. وعلى هذا فإن نساء أمير المؤمنين قد نفضن العطر عن غدائرهن وبعنه في أعطية أوليائه. وأما ما أشرت على أمير المؤمنين من قطع لذاته وبلوغ أوطاره من نسائه فإن يكنَّ إنما ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين فغير مجيبك إلى ذلك، وإن كن ينفرجن عن مثل ما انفرجت به أمك البظراء عنك من ضعف الغريزية وقبح المنظر في الخَلْق والخُلُق يا لُكَع فما أحقه أن يقتدي بقولك. قاتل الله الذي يقول:

أســـــدٌ علـــــــيَّ، وفي الحـروب نعامةٌ		فتخــــاءُ تنفــــر من صفيــــر الصافـرِ
هــــلا برزت إلى غزالـــــةَ في الوَغَـــــى		بل كان قلبـك في جناحَـــــيْ طائـــــرِ

ثم أمرت جاريةً لها فأخرجتْه. فلما دخل على الوليد قال: ما كنتَ فيه يا أبا محمد؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين ما سكتتْ حتى كان بطن الأرض أحبَّ إلى من ظهرها. قال: إنها بنت عبد العزيز".

إن المرأة هنا، متمثلةً فى أم البنين، إنما تبدى رأيا وتتخذ موقفا يختلف تماما عن موقف الدولة التى يحكمها زوجها، وفى موضوع هو من أشد الموضوعات خطرا كما رأينا. ليس ذلك فحسب، بل إن زوجها نفسه هو صاحب فكرة إدخالها فى الأمر. وكان يعرف مسبقا أنها سوف تنتصر على رجل دولته الكبير. ثم إنه قد افتخر بها أيما افتخار. ونأتى الآن إلى العبارة التى نحن بصددها، وهى عبارة الحجاج، ولم يكن من الممكن أن يقول غير هذا، إذ كان يدافع بها عن نفسه ويبعد خطر المؤاخذة التى حسب أنه بسبيل التعرض لها عند الخليفة. فهل كنا نتوقع منه فى ذلك الموقف سوى هذا؟ وأيا ما يكن الحال هل وافقه الخليفة على ما قال؟ بالطبع لا. لكل هذا نرى أن الزميل قد أعطى العبارة حجما أضخم كثيرا جدا من حجمها وهوّل فى النتائج التى رتبها عليها أيما تهويل.

ولنلاحظ قبل ذلك كله أن ابن الجوزى يخصص فى كتابه الحالىّ قِسْمًا لذكاء النساء ولا يقصره على الجنس الخشن وحده. بل لقد جعل المرأة فى حكايتنا هذه تنتصر على الرجل. وأى رجل؟ إنه

الحجاج بشحمه ولحمه وليس أى رجل، وهو ما يدل على خطإ ما يدعيه زميلنا . وعلى كُلٍّ فلقد كانت المرأة ولا تزال قهرمانة فى بيتها، فهى التى تدير شؤونه وتشرف على تربية الأولاد وتصرّف أمور المعيشة على النحو الذى تراه. . . وهكذا . وما ضَرَّها أن يكون الرجل هو القهرمان فى الأمور التى تقع خارج البيت فى مجتمع يقسم المسؤوليات بين الجنسين على هذا النحو؟ أم هى مكايدة للرجل حبا فى المكايدة، والسلام؟

وإذا كان الشىء بالشىء يُذْكَر فقد ساق الزميل (ص١٣) حكاية أخرى تصور عزوف رملة بنت الزبير بن العوّام عن الدخول فى الخلاف السياسى بين أخيها عبد الله بن الزبير وزوجها خالد بن يزيد بن معاوية حين عاب خالدُ أخاها بالبخل، فلاذت بالصمت، فسألها: "لم لا تتكلمين؟ أرِضًا بما قلتُه أم تنزُّهًا عن جوابى؟"، فكان جوابها: "ولكن المرأة لم تُخْلَق للدخول بين الرجال. إنما نحن رياحين للشَّمّ والضَّمّ، فما لنا وللدخول بينكم؟"، فأعجبه قولها وقبّل ما بين عينيها . وكان رأي الأستاذ الزميل أن الثقافة العربية قد ربَّت المرأة على الصمت عند اختصام الرجال وتَجَادُلهم حتى لو كان موضوع الجدال متصلا بها اتصالا حميما . يريد أن يقول إنها ثقافة "ذكورية قمعية" بالأسلوب الرطانى الجديد . والحق إن موقف رملة لموقف عبقرى. وإن ثقافةً تدفعها إلى انتهاج مثل تلك السبل لهى ثقافة راقية عظيمة شاهقة السموق. ويؤسفنى أنْ قد فات ذلك زملَينا العزيز، وإلا فماذا كان يريدها أن تفعل؟ أتردّ على زوجها مسفِّهَةً رأيه فينهدمَ البيت وتُوَلِّىَ سعادة الطرفين أم توافقه على ما قاله فى حق أخيها فتكشف عن خسة ونَذالة؟ لقد خرجت تلك السيدة الحكيمة بالصمت عن لا ونعم. فلله دَرُّها ! وهى بهذا إنما تبرهن أنها من العبقرية بمكان مكين وركن ركين لا كما يصفها زميلنا الذى يبدو وكأنه مغرم بإشعال الحرائق بين الرجال والنساء، إذ غاظه منها تلك الحكمة الألمعية.

كذلك تناسى زميلنا أن هناك كتبا فى تراثنا وفى أدبنا الحديث تتحدث عن النساء وحدهن، ومؤلفوها من الرجال، ولهذا دلالته التى لا تخفى على أن المرأة لم تكن فى ثقافتنا هينة الشأن كما يريد أن يلقى فى رُوع القراء . ومنها الكتب التى تتناول أخبار النساء وما إليها لابن الجوزى والسيوطى وأضرابهما من علماء الدين وغيرهم، وفيها يتناول مؤلفوها المرأة بالحديث عما يميزها عن الرجل وعما يُسْتَحْسَن أو لا يستحسن من صفاتها وطباعها وأخلاقها وعما تسببه للرجال من العشق والوله الذى قد يبلغ حد الجنون. ومنها أيضا "تزيين الأسواق فى أخبار العشاق" لداود الأنطاكى، و"طوق الحمامة" لابن حزم، و"مصارع العشاق" للسراج القارى، و"الكُنَّس الجوارى فى الحسان من الجوارى" للشهاب الحجازى. وهناك من خصص للنساء المبدعات جانبا من بعض كتبه، كما صنع أبو الفرج الأصفهانى

فى كتابه: "الأغانى"، ولسان الدين بن الخطيب فى كتابه: "الإحاطة فى أخبار غرناطة"، والدكتور مصطفى الشكعة فى كتابه: "الأدب الأندلسى" على سبيل المثال. وهناك من كَسَرَ كتابه كله على أدبهن، كما صنع المرزبانى فى "أشعار النساء"، والأصفهانى فى "الإماء الشواعر"، وابن طيفور فى "بلاغات النساء"، والمفجَّع البصرى فى "أشعار الجوارى"، والسيوطى فى "نزهة الجلساء فى أشعار النساء"، وعمر رضا كحالة فى "معجم أعلام النساء في عالمي العرب و الاسلام"، وبشير يموت فى "شاعرات العرب فى الجاهلية والإسلام"، وعبد البديع صقر فى "شاعرات العرب" . . . وهكذا. وهو ما ينبغى أن يلفتنا إلى تلك الحقيقة الساطعة المتمثلة فى أن النساء، قبل ذلك كله، لم يكن يجدن عائقا أمامهن إن أردن أن يخطبن أو ينظمن شعرا أو يضربن مثلا.

ونأخذ بعض الأمثلة: ففى "الإماء الشواعر" للأصفهانى نقرأ فى أول ترجمة فى الكتاب، وهى لعنان الناطفىّ، ما يلى: "وكانت أول من اشتهر بقول الشعر في الدولة العباسية، وأفضل من عُرِف من طبقتها. ولم يزل فحول الشعراء في عصرها يَلْقَوْنها في منزل مولاها فيقارضونها الشعر، وتنتصف منهم. وعُتِقَتْ بعد وفاة مولاها: إما بعتق كان منه لها أو بأنها وَلَدَتْ منه. فحدثني أحمد بن عبد العزيز الجوهري، قال: حدثنا عمر بن شبة، قال: حدثني أحمد بن معاوية، قال: سمعت أبا حنش يقول: قال لي النطافيُّ يومًا: لو جئتَ إلى عنان فطارحتها. فعزمتُ على الغُدُوّ إليها، وبِتُّ ليلتي أجول ببيتين، ثم غَدَوْتُ عليها فقلت: أَجيزي هذين البيتين! وأنشد يقول:

أَحَبَّ الملاحَ البيضَ قلبي، وإنما		أحبّ الملاح الصفر من ولد الحَبَشْ
بكيتُ على صفراءَ منهن مرةً		بكاءً أصاب العين مني بالعَمَشْ

فقالت:

بكيت عليها . إن قلبي أحبها		وإن فؤادي كالجناحين ذو رَعَشْ
تُعَنِّتنا بالشعر لما أتيتَنا		فدونك خُذْه محكمًا يا أبا حَنَشْ

أخبرني عمر بن عبد العزيز، قال: حدثنا عمر بن شبة، قال حدثني: أحمد بن معاوية، قال: سمعت مروان بن أبي حفصة يقول: لقيني الناطفيّ فدعاني إلى عنان، فانطلقت معه، فدخل إليها قبلي فقال لها: قد جئتك بأشعر الناس: مروان بن أبي حفصة! وكانت عليلة، فقالت: إني عن مروان لفي شغل!، فأهوى لها بسوطه فضربها به، وقال لي: ادخل! فدخلتُ وهي تبكي، فرأيت الدموع تتحدر من عينيها فقلت:

بكت عنان فجرى دمعها		كالدُّرّ إذ يسبق من خيطه

فقالت مسرعة:

فليــــت من يضربهـــــــا ظالمـــــــا		تيبـــس يمنـــــاه علـــــى سوطـــه

فقلت للنطافي: أَعَتَقَ مروانُ ما يملك إن كان في الجن والأنس أشعر منها !

أخبرني أحمد بن عبد العزيز، قال حدثنا عمر بن شبة عن أحمد بن معاوية، قال: قال لي رجل، تصفحتُ كتُبًا فوجدت فيها بيتًا جهدت جهدي أن أجد من يجيزه، فلم أجده، فقال لي صديق لي: عليك بعنان جارية الناطفي، فأتيتها فأنشدتها:

وما زال يشكـــــو الحب حتى حسبتــــــه		تنفس من أحشائـــــه أو تكلمـــــــا

فلم تلبث أن قالت:

ويبكـــي فأبكـــــي رحمـــــة لبكائـــــه		إذا مـــــا بكى دمعًا بكيـت له دمـــا
إلى أن رثـــــى لِـــــيَ كـــلُّ من كان مُوجَعًا		وأعرض خِلْوُ القلب عـــــني تبرمـــــا"

فانظر إلى كل هذا الاحتفاء بالشاعرة وشعرها وتسليط الضوء على ذكائها وإبداعها وحسن بديهتها وحرص الجميع على تفضيلها على غيرها من الشعراء. لكن الزميل يضرب صفحا عن هذا كله وغير هذا كله، وهو كثير لا يمكن تجاهله ونكرانه، ليقول إن الشعر عند العرب فن هين القدر على عكس الكتابة النثرية، ولهذا استطاعت النساء أن يكنّ شاعرات. وهو يحيل هنا إلى كتاب ابن الأثير: "الجامع الكبير".

ثم إنه يردّ نبوغ عنان وأمثالها من الشاعرات إلى أنهن كن إماء، فساعدهن وضعهن هذا على التمرد على الثقافة السائدة. يقصد ثقافة تهميش المرأة وإقصائها عن ميدان الأدب. بل إن كتاب ابن طيفور، الذى اعتمد عليه فى الإشارة إلى اهتمام الكتّاب العرب القدامى بإبراز الإبداع النسائى، إنما هو، فى نظره واصطلاحه، لون من "الكتابة الضد"، أى الكتابة التى تجرى على عكس ما هو شائع من التهوين من شأن المرأة والزعم بأنها لا وشيجة بينها وبين البلاغة، التى هى فى نظر أصحابها العرب ذكورية لا مدخل للإناث فيها بأى حال (ص١٩– ٢٠). وهو كلام يشى بأن زميلنا، كما سبق أن أشرت، قد دخل موضوعه وقد عزم على أن يبحث عما يساند موقفه الجاهز مقدَّما، فإن هبت الريح بما لا يشتهى وظهر أن العرب لم يهملوا بلاغات النساء وأنهم لم يكونوا يرون أنه لا شأن لهن بالإبداع الأدبى عَمِلَ على أن يُنْطِق المرجع بما ليس فيه وأعطاه دلالة هى أبعد ما تكون عنه.

وإلى القارئ البيان: فمن المعروف أن العرب كانت تغالى بالشعر مغالاة شديدة حتى لكانوا يَعْزُون عبقرية الشعراء إلى وَحْى الجن، بما يفيد أنهم كانوا يرون الشعر هِبَةً غير عادية لا يسهل على البشر أن

يحوزوها دون عون من عالم الشياطين، الذين هم مضرب المثل فى الإنجازات المعجزة. بل لقد قيل إن العرب إذا نبغ فى قبيلة من قبائلهم شاعر احتفلوا أيما احتفال وفاخروا به وتبادلوا التهانى وأقاموا الأفراح وعزفت النساء الموسيقى. ذكر ذلك ابن رشيق فى "باب احتماء القبائل بشعرائها" من كتابه: "العمدة فى محاسن الشعر وآدابه"، إذ قال: "كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائلُ فهنأتها، وصُنِعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعون في الأعراس، وتَبَاشَر الرجال والولدان لأنه حمايةٌ لأعراضهم، وذَبٌّ عن أحسابهم، وتخليدٌ لمآثرهم، وإشادةٌ بذكرهم. وكانوا لا يهنِّئون إلا بغلامٍ يولَد أو شاعرٍ ينبغ فيهم أو فرس تُنْتَج".

وسواء أخذنا هذا النص على حرفيته أو على سبيل المجاز فالمعنى فى الحالتين واضح، وهو أن العرب كانوا يعتزون بالشعر اعتزازا بالغا، ولا يساوون به فى مجال القول شيئا. ثم كيف نصدّق ابن الأثير فى زعمه أن العرب كانت تقلل من شأن الشعر بالقياس إلى الكتابة النثرية وتراه شيئا هينا فى متناول كل أحد حتى الإماء، فى الوقت الذى لم يكن عندهم كتابة تقريبا حتى يمكن القول بأنهم كانوا يضعون الكتابة النثرية فوق الشعر؟ علاوة على أن المرأة العربية فى الجاهلية والإسلام كانت تمارس الخطابة كالرجال، والخطابة نثر من النثر. قد يقال إن ابن الأثير، حين فضل النثر على الشعر، إنما كان يعبر عن رأيه هو. لكن كان ينبغى ألا نتخذ من رأيه الفردى مقياسا نحاكم به الثقافة العربية كلها ونتهمها من ثم مثل تلك الاتهامات الظالمة.

ثم إن ابن الأثير، الذى استشهد به زميلنا العزيز على أفضلية النثر على الشعر بغية التهوين من إبداع النساء الشعرى ونسبة ذلك التهوين إلى العرب القدماء، كان يرى أن الشعر عند العرب أصعب منالا وأعصى إبداعا من النثر. ففى كتابه: "المثل السائر"، وفى معرض موازنته بين الشعر والنثر ورَصْد الفروق بينهما، يؤكد أنه مما لا يحسن فى الذوق العربى أن يطوّل الشاعر قصائده ويشقق المعانى ويستوفى الكلام فيها مما هو أليق بالنثر، قائلا إن "الشاعر إذا أراد أن يشرح أمورا متعددة ذوات معانٍ مختلفة في شعره واحتاج إلى الإطالة بأن ينظم مائتى بيت أو ثلثمائة أو أكثر من ذلك فإنه لا يجيد في الجميع ولا في الكثير منه، بل يجيد في جزء قليل، والكثير من ذلك رديء غير مَرْضِيّ. والكاتب لا يُؤْتَى من ذلك، بل يطيل الكتاب الواحد إطالة واسعة تبلغ عشر طبقات من القراطيس أو أكثر، وتكون مشتملة على ثلثمائة سطر أو أربعمائة أو خمسمائة، وهو مجيد في ذلك كله، وهذا لا نزاع فيه لأننا رأيناه وسمعناه وقلناه". أى أن ابن الأثير ليس فقط هو الوحيد الذى قال فى تفضيل النثر على الشعر

ما قال، بل هو نفسه يقول بصعوبة نظم الشعر إزاء سهولة الكتابة النثرية. ومع هذا فإن زميلنا يعتمد على نص وحيد مثل هذا متخذا إياه حَكَمًا فى قضية غاية فى الحساسية والخطورة.

وفوق هذا كان الشعر عند القدماء هو ديوان العرب، إذ يشتمل على لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم وقيمهم وأديانهم وتاريخهم وحروبهم وقبائلهم وجغرافية بلادهم وأوضاع حياتهم كلها . كما أنه الملجأ الذى يعتصم به من كان يريد من العلماء تفسير القرآن. ولسنا نعلم للنثر شيئًا من هذا . فكيف يحاول زميلنا التهوين من شأن الشعر لحساب النثر كى يصل إلى تلك النتيجة الضعيفة البينة الضعف رغم أن معظم الحقائق تسير عكس اتجاه ريحه؟ يقول السيوطى فى كتابه: "الإتقان فى علوم القرآن": "قال أبو بكر الأنباري: قد جاء عن الصحابة والتابعين كثيرًا الاحتجاجُ على غريب القرآن ومُشْكِله بالشعر، وأنكر جماعة لا علم لهم على النحويين ذلك، وقالوا: إذا فعلتم ذلك جعلتم الشعر أصلاً للقرآن. قالوا: وكيف يجوز أن يُحْتَجّ بالشعر على القرآن، وهو مذموم في القرآن والحديث؟ قال: وليس الأمر كما زعموه من أنا جعلنا الشعر أصلاً للقرآن، بل أردنا تبيين الحرف الغريب من القرآن بالشعر، لأن الله تعالى قال: "إنا جعلناه قرآنًا عربيا"، وقال: "بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ" . وقال ابن عباس: الشعر ديوان العرب، فإذا خَفِيَ علينا الحرف من القرآن، الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه. ثم أخرج من طريق عِكْرِمَة عن ابن عباس، قال: إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمِسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب. وقال أبو عبيد في فضائله: حدثنا هشيم عن حصين بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عبد الرحمن بن عتبة عن ابن عباس أنه كان يُسْأَل عن القرآن فينشد فيه الشعر. قال أبو عبيد: يعني كان يستشهد به على التفسير. قلت: قد روينا عن ابن عباس كثيرا من ذلك، وأَوْعَبُ ما رويناه عن مسائل نافع بن الأزرق" .

كذلك هل يصح القول بأن الإماء، بإبداعاتهن الشعرية، إنما كن يتمردن على الثقافة السائدة؟ بأية أمارة يا ترى كان ذلك؟ وأى حزب كان ينفخ فى أنوفهن ويوسوس لهن فى آذانهن كى يتخذن هذا الطريق الوعر؟ وكيف لم تهبّ الثقافة العربية فتقمع هذا التمرد؟ وما الذى كانت تمثله الإماء فى ذلك المجتمع حتى يقال إنهن كن يتمردن على ثقافته بكل تلك الجسارة العجيبة التى لم تستطعها الحرائر، فيسكت الرجال بل يخرسون تمام الخرس؟ أليس الإماء إنما هُيّئْنَ لتسلية الرجال وإدخال السرور والبهجة على قلوبهم؟ أليس الرجال هم الذين كانوا يهيئونهن لتأدية تلك المهمة؟ فأين التمرد إذن فى هذا الأمر؟ وأنَّى لهن به؟ وكيف تسرب إليهن يا ترى؟ وهذا لو لم يكن النساء العربيات ينظمن الشعر منذ أقدم العصور. وبين أيدينا الشعر الجاهلى، ولسوف نجد فيه عددا كبيرا من النسوة الشواعر اللائى لم

يكنّ إماء، بل حُرّات بنات حُرّات. وهناك عدد من كتب الأدب التراثية تورخ للإبداع النسائى الحر فى ميدان الشعر. فما القول فى هذا؟

يقول السيوطى فى "نزهة الجلساء في أشعار النساء"، والسيوطى كما نعرف من الكتاب المتأخرين أيام كانت الحضارة العربية قد بدأت تَأْسَن وتبتعد عن القيم الإسلامية، كما أن موضوع كتابه هو الشاعرات المتأخرات، أى القريبات من زمنه، يقول ذلك العالم الجليل مثلا عن ثواب بنت عبد الله الحنظلية الهمذانية: "قال ابن الطراح: شاعرة ماجنة ظريفة. ثم روى عن بعض الشيوخ قال: كانت ثواب بنت عبد الله من أشعر النساء وأظرفهن، وكانت من ساكني همدان. فنظرت يوما إلى فتى من أولاد التجار له رواء ومنظر، وَرَدَ همدانَ في تجارة له، فأعجبها ووقع بقلبها، فتزوجته. فلما دخل بها لم يقع منها بحيث تريد، ففَرِكَتْه، وأبغضها هو، ولم يستمر بينهما وِفَاقٌ، فقالت تهجوه:

إني تزوجـــــت من أهـــل العـــراق فتًى		مُـــــرَزّءًا مـــا لـــه عـرقٌ ولا باهُ
ما غرنـــي منـــه إلا حســـن طُرّتــــه		ومنطقٌ لنســـاء الحــــي هيّـــاهُ
يقول لمـــا خــــلا بـــــي: أنت . . .		وذاك مـــن خجـــل مـــني تغشّـاهُ
فقلت لما أعـــاد القـــول ثانيــــة:		أنت الفداء لمـــن قـــد كـــان . . ."

فهل يجوز الزعم بأن الإماء وحدهن هن اللاتى كن ينظمن الشعر ويمارسن صناعة الأدب؟ وهل يجوز الزعم بأن مجتمعا يتسع صدره لهذا المجون النسائى كان يمارس مع المرأة القمع والتهميش؟ أليس مما له مغزاه أن تتسع النفوس لكتابة مثل ذلك الكلام ولسماعه والتلذذ به والإبقاء عليه؟ ولا ننس أن السيوطى كان، فى المقام الأول، عالما من علماء الدين كما هو معروف. وأنا، وإن كنت لا أرحّب كثيرا بهذا اللون من الشعر، فإن مغزاه فيما نحن بصدده واضح لا يحتمل أخذا ولا ردا. والنساء اللاتى ترجم لهن السيوطى فى كتابه هذا كثيرات العدد.

لقد سبقك، يا زميلى العزيز، د. عبد الله الغذامى إلى القول بأن الإماء هن وحدهن اللاتى كن يمارسن الأدب دون الحرائر، إذ زعم فى كتابه: "المرأة واللغة"[١] أن الجهل فى تلك العصور كان زينة للحرة، بينما كانت الثقافة زينة الجارية. وهذا نص ما قال: "لقد كان مجتمع الحكاية يسمح أو يفرض صورة الجارية المثقفة. وكانت الثقافة النسائية نوعا من الرق، وتمثل قيمة شرائية إضافية تزيد من سعر الجارية وتغرى بتسويقها. ولذا كانت الثقافة النسوية معادلا مضادا للحرية والسيادة، والمرأة الحرة لا تمارس الثقافة، سوى استثناءات يسيرة لا تشكل نسبة ذات اعتبار. وكثيرا ما يحدث التكتم على اسم

---

[١] ط٣/ المركز الثقافة العربى/ الدار البيضاء/ ٢٠٠٦م/ ٩٩– ١٠٠.

المرأة الحرة إذا ما صارت على قدر من الثقافة المحكَرة (الصواب: "المقصورة") على الجوارى، مثل حال علية المهدى. فالجوارى وحدهن المثقفات، وهن وحدهن من يحتجن إلى الثقافة. ولذا فالثقافة لهن بضاعة وتجارة مثلما أن جسد الجارية بضاعة وتجارة. ومن شأن هذا النوع من الثقافة أن يكون مادة معروضة للفحص والامتحان والتقييم. إنها إذن ثقافة كشف وعرض. ومن مسلّمات ذلك العصر أن جهل الحرة لا يضر، وربما كان مطلوبا ومفضلا، أما ثقافة الجارية فهى مطلب تجارى مُلِحّ. الجهل للحرة، والثقافة للجارية. هذا هو ظرف الحكاية وظرفها الاجتماعى". لكن ألم تقرأ، يا زميلى العزيز، أنت والغذامى ما كتبه أبو الفرج عن ثقافة سُكَيْنة وعائشة بنت طلحة مثلا أو ما ذكرته المراجع الأندلسية عن ولاّدة ونزهون وحميدة وغيرهن من الحرائر اللاتى جئن من ظهر أحرار وحرائر؟ ولم يكن هؤلاء مع ذلك استثناء من القاعدة، وكل ما هنالك أن المسلم، فيما يبدو، لم يكن يحب الكلام عن نساء بيته على الملإ.

يا زميلى العزيز، أَوَلَوْ كانت المرأة العربية بالهوان الذى تصوره فى بحثك أكان عمرو بن كلثوم يطيّر رقبة ملك المناذرة عمرو بن هند لمجرد أن أمه طلبت من أم الشاعر فى أحد المآدب الملكية أنْ تناولها طبقا بإيعاز من ابنها الملك، فعَزَّ على شاعرنا أن تبدو أمه وكأنها تخدم أم الملك، فما كان منه إلا أن سل سيفا كان فى المجلس الملكى وطير بها رقبته غسلا للعار الذى حسب أنه لصق بأمه؟ يقول صاحب "الأغانى" فى ترجمته لعمرو بن كلثوم: "قال أبو عمرو: حدثني أسد بن عمرو الحنفي وكرد بن السمعي وغيرهما، وقال ابن الكلبي: حدثني أبي وشرقي بن القطامي، وأخبرنا إبراهيم بن أيوب عن ابن قتيبة أن عمرو بن هند قال ذات يوم لندمائه: هل تعلمون أحدا من العرب تأنف أمه من خدمة أمي؟ فقالوا: نعم! أم عمرو بن كلثوم. قال: ولم؟ قالوا: لأن أباها مهلهل بن ربيعة، وعمها كليب وائل أعز العرب، وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب، وابنها عمرو، وهو سيد قومه. فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن يُزِير أُمَّه أُمَّه. فأقبل عمرو من الجزيرة إلى الحيرة في جماعة من بني تغلب، وأمر عمرو بن هند برواقه فضُرِب فيما بين الحيرة والفرات، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا في وجوه بني تغلب. فدخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند في رواقه، ودخلت ليلى وهند في قبة من جانب الرواق. وكانت هند عمة امرئ القيس بن حجر الشاعر، وكانت أم ليلى بنت مهلهل بنت أخي فاطمة بنت ربيعة، التي هي أم امرئ القيس، وبينهما هذا النسب. وقد كان عمرو بن هند أَمَر أمَّه أن تنحي الخدم إذا دعا بالطَرَف وتستخدم ليلى. فدعا عمرو بمائدةٍ ثم دعا بالطُرَف. فقالت هند: ناوليني يا ليلى ذلك الطبق. فقالت ليلى: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها. فأعادت عليها

وألحت، فصاحت ليلى: واذُلّاه! يا لتغلب! فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم في وجهه، ونظر إلى عمرو بن هند فعرف الشر في وجهه، فوثب عمرو بن كلثوم إلى سيفٍ لعمرو بن هند معلقٍ بالرواق ليس هناك سيف غيره، فضرب به رأس عمرو بن هند، ونادى في بني تغلب، فانتهبوا ما في الرواق وساقوا نجائبه، وساروا نحو الجزيرة. ففي ذلك يقول عمرو بن كلثوم: ألا هُبّي بصَحْنِك فاصْبحينا".

وفى "الروض الأُنُف" نطالع أخبار غزوة الحديبية فنرى ما كان لأم سَلَمة زوجة رسول الله عليه الصلاة والسلام من موقف عبقرى فات شرفُ اتخاذه الرجال فى ذلك اليوم. ولم يمنع كتّابَ السيرة كونُها امرأة من الإشادة بهذا الموقف العظيم الذى كان له فعل السحر فى نفوس الصحابة بعدما كانوا متصلبين لا يريدون أن ينزلوا على شروط المعاهدة التى تمت بين الرسول عليه السلام ومشركى قريش، إذ رَأَوْا فى تلك الشروط إجحافا وظلما، فمكثوا حزانى مغتاظين لا يريدون أن يتحركوا من موضعهم فيحلقوا رؤوسهم كما طلب منهم رسول الله. يقول السهيلى: "وفي غير رواية ابن إسحق من الصحيح أنه عليه السلام دخل على أم سلمة، وشكا إليها ما لقي من الناس حين أمرهم أن يحلقوا وينحروا فلم يفعلوا لما بهم من الغيظ، فقالت: يا رسول الله، اخرج إليهم فلا تكلمهم حتى تحلق وتنحر. فإنهم إذا رأوك قد فعلت ذلك لم يخالفوك. ففعل صلى الله عليه وسلم، وفعل الناس".

ومن "أخبار النساء" لابن الجوزى نقتطف الحكاية التالية، وفيها يورد ابن الجوزى، رغم ذكوريته، ما يدل على رباطة جأش المرأة وحضور بديهتها وقدرتها على إفحام الرجل، وأى رجل؟ إنه الخليفة ذاته لا أقل. وأى خليفة؟ إنه معاوية بن أبى سفيان داهية العرب: "وفدتْ عَزّة وبثينة على عبد الملك بن مروان فلمّا دخلتا عليه انحرف إلى عزّة، وقال لها: أنت عَزّةُ كُثَيِّر؟ قالت: لستُ لكُثيرٍ بعزّة، ولكنّي أمّ بكرٍ الضّمريّة. قال أتروين قول كثيرٍ فيك:

لقد زعمتُ أني تغيّرتُ بعدها		ومن ذا الذي يا عَزّ لا يتغيّرُ؟
تغيّر جسمي والخليقة كالتي		عَهِدْتِ، ولم يخبر بسرّك مخبرُ؟

قالت: لست أروي هذا، ولكنّي أروي غيره حيث يقول:

كأنّي أنادي صخرةً حين أعرضتْ		من الصّمّ لو يمشي بها العُصْم زلّتِ
صفوحًا فما تلقاك إلاّ بخيلةً		فمن ملّ منها ذلك الوصفَ مَلّتِ

ثمّ عطف على بثينة فقال لها: ما رَأى جميل حين لهج بذكرك بين النّساء كلّهن؟ قالت: الذي رأى فيك النّاس حين جعلوك خليفة من بين رجال العالمين. فضحك حتّى بدت سنٌّ له سوداء كان يخفيها، وأجزل جائزتهما وقضى حوائجهما".

ثم هذه الحكاية التالية: "دخلت ليلى بنتُ عبد الله الأَخْيَلِيّة على الحَجّاج، وعنده وجوه النّاس وأشرافهم، فاستأذنْته في الإنشاد، فأذن لها، فأنشدته قصيدةً مدحته بها. فلمّا فرغتْ من إنشاده قال الحجّاج لجلسائه: أتدرون مَنْ هذه الجارية؟ قالوا: لا نعلم، أصلح الله الأمير. ولكنّا لم نر امرأةً أكمل منها كمالاً، ولا أجمل منها جمالاً، ولا أطلق لساناً، ولا أبين بياناً، فمن هي؟ قال: هذه هي ليلى الأخيلية صاحبة تَوْبَة بن الحُمَيِّر، الذي يقول فيها:

نَأَتْـــكَ بليلى دارُهـــا لا تزورهـــا		وشَطّ نواهـــا واستمـــرّ مَرِيرُهـــا

ثمّ قال لها: يا ليلى، ما الذي رابه من سفورك حيث يقول:

وكنتُ إذا ما زرتُ ليلـــى تبرقعـــتْ		فقـــد رابني منها الغداةَ سُفُورُهـــا

قالت: أصلح الله الأمير. لم يرني قط إلا متبرقعةً. وكان أرسل إليّ رسولاً أنّه يُلِمّ بنا، ففطن الحيّ لرسوله، فأعدّوا له وكمنوا. وفطنتُ لذلك، فلم يلبث أن جاء، فألقيتُ برقعي وسَفَرْتُ له. فلمّا رأى ذلك أنكره وعرف الشرّ، فلم يزد أن سلّم عليّ وسأل عن حالي وانصرف راجعًا. فقال الحجّاج لها: لله دَرُّكِ! فهل كانت بينكما رِيبة؟ قالت: لا والذي أسأله أن يصلحك، إلى أن قال مرةً قولاً ظننت أنّه خضع لبعض الأمر، فقلت له مسرعةً هذا الشعر. وأنشأت وهي تقول:

وذي حاجـــةٍ قلنـــا لـــه: لا تُبُحْ بها		فليـــس إليها ما حَيِيتَ سبيـــلُ
لنا صاحـــبٌ لا ينبغـــي أن نخونـــه		وأنتَ لأخرى صاحـــبٌ وخليـــلُ

فلا والذي أسأله صلاحك ما كلّمني بشيءٍ بعدها استربْتُه حتّى فرّق الدّهر بيني وبينه".

ثم هذه الحكاية أيضا، وهى ترينا كيف أن المرأة، وكانت مجرد جارية، لم تكن عند صاحبها مجرد واحدة من النساء يغنى عنها غيرها، والسلام، بل هى امرأة بعينها لا يغنى غناءها امرأة أخرى، وتظل تحير قلبه بعدما باعها وتلذّعه تلذيعا حتى ليستعين على ذلك بابتهاله إلى الله وكتابة اسمها على راحة يده ورفعها نحو السماء فى كل صلاة لعل الله يستجيب له فيعيدها إليه كرة أخرى، وهو ماكان. ولنقرأ: "قال محمّد بن عبيد الزّاهد: كانت عندي جاريةٌ فبعتُها، فتبعتْها نفسي، فسِرْتُ إلى مولاها مع جماعة إخوانه، فسألوه أن يُقِيلني ويَرْبَح عليّ ما شاء، فأبى. فانصرفت من عنده مهمومًا مغمومًا، فبتّ ساهرًا لا أدري ما أصنع. فلمّا رأيت ما بي من الجهد كتبت اسمها في راحتي واستقبلت القبلة. فكلّما طرقني طارق من ذكرها رفعت يدي إلى السّماء وقلت: يا سيّدي، هذه قصّتي. حتّى إذا كان في السَّحَر من اليوم الثّاني إذ أنا برجلٍ يدقّ الباب، فقلت: من هذا؟ قال: أنا مولى الجارية. ففتحتُ، وإذا بها، فقال: خذها بارك الله لك فيها! فقلت: خذ مالك والرّبح. فقال: ما كنت لآخذ دينارًا ولا

درهمًا . قلت: فلم ذلك؟ قال: أتاني الليلةَ في منامي آتٍ فقال: رُدّ الجّارية على ابن عبيد الله، ولك الجنّة" . أولو كانت مكانة النساء عند الرجال بذلك الهوان وتلك الحقارة التى يؤكدها السيد الزميل أكانت الأمور تجرى فى القصة على هذا النحو الذى يُبْكِى العيون ويزلزل القلوب؟

وفى "أخبار النساء" كذلك: "قيل لميّة بعد موت قابوس (ومَيَّة هى محبوبة ذى الرُّمَّة الشاعر الأموى الشهير، التى تزوجت غيره فظل مشغولا بها سائر حياته إلى أن مات وهو مفتون بحبها لا يستطيع أن يسلاها): ما كان ضَرَّكِ لو أمتعتِه بوجهك قبل موته؟ قالت: منعني من ذلك خوف العار، وشماتة الجار. ولقد كان بقلبي منه أكثر ممّا كان بقلبه، غير أنّي وجدت ستره أبقَى لما في الصّدر من المودّة، وأحمدَ للعافية" .

وخذ يا زميلى العزيز هذه أيضا كى تدرك أن ما كتبتَه عن وضع المرأة العربية فى بحثك هو كلام لا رأس له ولا ذيل: فـ"مِنْ ذلك ما حكى جميلُ بن معمر العذري: أنّه دخل على عبد الملك بن مروان، فقال له: يا جميل، حدّثْني ببعض أحاديث بني عُذْرَة، فإنّه بلغني أنّهم أصحاب أدبٍ وغزلٍ. قال: نعم يا أمير المؤمنين أُعْلِمك أَنّ آل بثينة انتجعوا عن حيّهم فوجدوا النُّجْعَة بموضعٍ نازحٍ فظعنوا، فخرجتُ أريدهم. فبينما أنا أسير إذ غلطتُ الطّريقَ وأجنّني الليل، فلاحت لي نارٌ، فقصدتها حتّى وردتُ على راعٍ في أصل جبل قد انحنى عنه إلى كهفٍ فيه، فسلّمتُ، فردّ عليّ السّلام وقال: أظنّك قد غلطتَ الطّريق؟ فقلت: أجل. فقال: انزل وبِتِ الليلة. فإذا أصبحتَ وقفتَ على القصد. فنزلتُ، فرحَّب بي وأكرمني وذبح شاة وأجّج ناره، وجعل يشوي ويلقي بين يديَّ ويحدّثني في خلال ذلك. ثمّ قام بإزارٍ كان معه فقطع به جانب الخباء ومهّد لي محلاً خاليًا، فنمت. فلمّا كان في الليل سمعته يبكي إلى شخصٍ كان معه، فأرقْتُ له ليلتي. فلمّا أصبحتُ طلبتُ الإذن فأبى، وقال: الضّيافة ثلاث. فجلستُ وسألته عن اسمه ونسبه وحاله، فانتسب، فإذا هو من بني عذرة من أشرافهم. فقلت: وما الذي جاء بك إلى هنا؟ فأخبرني أنّه كان يَهْوَى ابنة عمٍّ له وأنه خطبها من أبيها فأبى أن يزوّجها إيّاها لقلّة ذات يده، وأنّه تزوّجها رجل من بني كلاب وخرج بها عن الحي وأسكنها في موضعه، وأنّه رضي أن يكون لزوجها راعيًا حتّى تأتيه ابنة عمّه فيراها . وأقبل يشكو قديم عشقه لها وصبابته بها حتّى أتى المساء وحان وقت مجيئها . فجعل يتقلقل ويقوم ويقعد، ثمّ وثب قائمًا على قدميه وأنشأ يقول:

ما بـال ميّـــةَ لا تأتـــي كعادتهـــا ؟		أعاجهـــا طربٌ أم صدّهـــا شُغُـــلُ؟
لكنّ قلبـــيَ عنكــــم ليــــس يشغلــــه		حتّى الممات ومـــا لي غيركـــم أمـــلُ
لو تعلمين الذي بي مـــــن فراقكمـــــو		لما اعتــــذرتِ ولا طـــابت لك العِلَلُ

نفسي فداؤك، قـــــد أحللتِ بي سَقَمًـــا		تكاد من حَـــرّه الأعضـــاءُ تنفصـــلُ
لو أنّ ما بيَ من سقـــمٍ علـــى جبـــلِ		لـــزال وانهـــدّ من أركانـــه الجبلُ

ثمّ قال لي: اجلس يا أخا بني عذرة حتّى أكشف خبر ابنة عمّي. ثمّ مضى فغاب عن بصري، فلم ألبث أن أقبل وعلى يديه محمول، وقد علا شهيقه ونحيبه، فقال: يا أخي، هذه ابنة عمّي أرادت زيارتي فاعترضها الأسد فأكلها. ثمّ وضعها بين يديّ وقال: على رِسْلك حتّى أعود إليك. فغاب عن نظري فأبطأ حتّى أيست من رجوعه. فلم ألبث أن أقبل، ورأس الأسد على يديه، فوضعه ثمّ قال: يا أخي، إنّك ستراني ميّتًا. فاعمد إليّ وإلى ابنة عمّي فأَدْرِجْنا في كفنٍ واحدٍ، وادفنّا في قبرٍ واحدٍ، واكتب على قبرنا هذين البيتين:

كنّا على ظهرها، والعيـــش فـــي مهـــلٍ		والشّمـــل يجمعنـــا والـــدّار والوطـــنُ
ففرّق الـدّهـــر بالتّصـــريف ألفتنـــا		فصـــار يجمعنـــا في بطنهـــا الكفـــنُ

ورُدّ الغنم إلى صاحبها وأَعْلِمْه بقصّتها. ثمّ عمد إلى خناقٍ وطرحه في عنقه، فناشدته الله: لا تفعل. فأبى وخنق نفسه حتى مات. فلمّا أصبحتُ كفّنتهما ودفنتهما وكتبت الشّعر كما أمر، ورددت الغنم إلى صاحبها وأعلمته بقصتهما، فحزن حزنًا خفت عليه الهلاك أسفًا على ما فرّط من عدم اجتماعهما".

ثم خذ هذه كذلك من نفس الكتاب، وهى تدل على ما كان العرب يَرَوْنَه من أن المرأة قد تكون أذكى من الرجل وأبرع وأدهى. ولو كنتَ أنتَ يا زميلى العزيز بطل القصة لقلتُ لك: تعيش وتأخذ غيرها: "كانت لرجلٍ في الأهواز ضيعةٌ بالبصرة، وكان يتعاهدها في حين الانتفاع بالثّمار، فتزوّج بها امرأةً. وانتهى الخبر إلى امرأته الأهوازيّة، فاستخرقت كتابا على لسان بعض إخوانه بالبصرة يعزيه في البصريّة ويقول: الحَقِ المالَ الذي خلّفْتَ ولا تتأخّر. وأعطت الكتاب لبعض الملاحين وجعلت له جُعْلا. فلمّا وصل الكتاب إلى زوجها وَجد لموتها وَجْدًا عظيمًا، وقال للأهوازيّة: أصلحي لي سفرتي، فإنّي راكبٌ إلى البصرة. ففعلت. فلمّا أصبح الغد ركب فرسه، وأعطته السّفرة، ثمّ قبضت على عِنَان فرسه وقالت له: ما تُكْثِر اختلافك إلى البصرة إلاّ ولك بها امرأة تزوّجتها! فقال لها: "والله مالي بالبصرة امرأةٌ"، للذي وقف عليه من الكتاب. فقالت له: لست أدري ما تقول. وإنّما تحلف وتقول: أيّ امرأةٍ لي غيرك طالقٌ ثلاثًا بقول جميع المسلمين. فللذي وقف عليه الرّجل من موت البصريّة قال في نفسه: تلك ماتت، فلِمَ أغيّر صدر هذه؟ فقال لها: كلّ امرأةٍ لي غيرك في جميع الأقاليم فهي طالقٌ ثلاثًا بقول جميع المسلمين. فقالت له: لا تتْعَبَنّ، فقد طَلَّقْتَ الحبيبة. فندم الرّجل وأُسْقِطَ في يديه".

أما النص التالى فيرينا كيف كان المهدىّ الخليفة العباسى يعامل بناته. يقول عبد الله عفيفى فى كتابه: "المرأة فى الجاهلية والإسلام": "هذه ابنته البانوقة أعز الناس عليه وأحبهم إليه وأوحد أهل دهرها أَنَقًا وجمالاً، فهل يجول في خيالٍ أو يخطر ببالٍ أن يُلْبسها أبوها ثياب الجند ويقدّمها بين يدي موكبه في طريقه إلى الحج، وهي في نضرة العمر وربيع الشباب، أو كما يقول الطبري "كان المهدي في موكبه يسير وابنته البانوقة تسير بين يديه في هيأة الفتيان عليها قَبَاء أسود ومِنْطَقة وشاشيّة متقلدةً السيف، وقد رفع ثدياها القباء لنهودهما"؟ فهل رأيت كيف أبرز المهدي ربيبة الخلافة وسليلة العباس وعقيلة بني هاشم ونَصَبَها للعيون في زي يجتذب الأبصار ويستقيد النظار؟ ولم تطل حياة البانوقة، بل هصرها الموت في مقتَبل الشباب، فأخلت الطريق لأختيها عُلَيّة والعباسة: فأما علية فكانت شاعرة مغنية جميلة متجملة روت لها كتب الأدب كثيرا من الشعر الغنائي، وفي كثير ما رَوَوْا تشبيبها بفتيين من مماليك الرشيد يُدْعَى أحدهما طَلاً والآخر رَشًا. وربما زجرها الرشيد فصَحَّفَتِ اسميهما: وجعلت أولهما ظِلاً، والثاني زينب، وهما تصحيف طل ورشا. ومن قولها في طل:

أيا سَرْوَةَ البستـــان، طـــال تشـــوُّقي		فهل لي إلى "ظل" إليـــك سبيـــلُ؟
متى يلتقي من ليس يُقْضَـــى خروجـــه		وليس لمـــن يَهْـــوَى إليه دخـــولُ
عسى الله أن نرتاح مـــن كربـــة لنـــا		فيلقى اغتباطًا خلـــةٌ وخليـــلُ

ومن قولها فيه كذلك:

سَلِّـــمْ علـــى ذاك الغـــزالِ		الأهيـــف الحلـــو الـــدلالِ
سلِـــم عليـــه وقـــل لـــه:		يا غُـــلَّ ألبـــاب الرجـــالِ
خليـــتَ جسمـــي ضاحكـــا		وسكنـــت في "ظـــل" الحجالِ
وبلغـــتَ منِّـــي غايـــةً		لم أدر فيهـــا مـــا احتيـــالي

ومن قولها في رشا:

وجـــد الفـــؤاد "بزينبـــا"		وَجْـــدًا شديـــدًا متعبـــا
أصبحـــتُ مـــن كلفـــي بهـــا		أُدْعَـــى سقيمـــا مُنْصَبـــا
ولقـــد كَنَيْـــتُ عـــن اسمهـــا		عمـــدا لكيـــلا تغضبـــا
وجعلـــت زينـــب ستـــرةً		وكتمـــت أمـــرا معجـــبـــا
قالـــت وقـــد عـــز الوصـــا		ل ولـــم أجـــده مذهبـــا:
واللـــه لا نلـــتَ المـــود		ة أو تنـــالَ الكـــوكبـــا

ومن قولها فيه، وقد حلف ألا يشرب النبيذ:

قـــد ثبـــت الخاتـــم في خنصـــري		إذ جـــاءني منـــك تجنيـــكِ
حـــرّمـــتُ شـــرب الراح إذ عِفْتَهـــــا		فلســـتُ في شـــيء أعاصيـــكِ
فلـــــو تطوعـــــتَ لعوَّضْتَـــــني		منـــه رضـــاب الريـــق من فيكِ
فيالهـــا عنـــديَ مـــن نعمـــة		لستُ بها مـــا عشـــت أجزيـــكِ
يا زينبـــا قـــد أرّقـــتْ مقلـــتي		أمتعـــني اللـــه بُحبّيـــكِ

وكان الرشيد يستمع غناءها غير متحرج. وذكر صاحب "الأغاني" أنها تغنت، وأخوها يُزمّر لها، بقولها:

تحَبَّـــبْ، فـــإنّ الحـــب داعيـة الحبّ		وكـــم من بعيد الدار مستوجب القـــرب
تَبصَّر، فإن حُدِّثْـــتَ أن أخـــا هـــوًى		نجـــا سالمـــا فارْجُ النجـــاة من الحبّ
إذا لم يكـــن في الحـــب سخط ولا رضا		فـــأيـــن حـــلاوات الرسائل والكُتُب؟"

وها هو ذا العباس بن الأحنف يتذلل غاية التذلل لحبيبته فَوْز ويراها ملكا متوجا على عرش قلبه لايستطيع أن يخالف لها أمرا، وحوراء من حُور الجنان ليس لها فى الفتنة والجمال نظير. وهو يستبطئ المنيَّة كلما تأخرت رسائلها إليه. بل إنه لعلى أتم استعدادٍ لإفناء نفسه إرضاء لها، فلتفعل به وبقلبه ما تشاء ما دام هذا يسعدها. فكيف يقال إن المرأة العربية كانت محتقرة من الرجل لا يراها إلا نعلا ولا تمثل له إلا وعاء يفرغ فيه شهوته دون أية عاطفة؟ لنقرإ الأبيات التالية:

أَتاني كِتـــابٌ مِـــن مَليـــكٍ بِخَطِّـــهِ		فَما أَعظَمَ النُّعْمَـــى، وَما أَضعَفَ الشُكْرا!
فظلت تُناجيـــني بِمـــا في ضَميرِهـــا		أَنامِـــلُ قَـــد خَطَّـــت بِأَقلامِها سِحْرا
وَإِنـــي لأَستَبْطِـــي المَنِيَّـــةَ كُلَّمـــا		ذَكَـــرْتُ التي لا أَستَطيـــعُ لَها ذِكْـرا
فَلَمّا تَفَهَّمْـــتُ الكِتـــابَ رَدَدتُـــهُ		إِليهـــا، وَلَـــم أَبعَث بِـــرَدٍّ لَهُ سَطْرا

* * *

وَحَـــوراءَ مِن حُـــور الجِنـــانِ مَصُونَـــةٍ		يَرى وَجْهَـــهُ في وَجهِهـــا كُلُّ ناظِـــرِ
وَقَفْـــتُ بِهـــا لا أَستَطيـــعُ إِشـــارَةً		وَلا نَظَـــرًا، وَالطَـــرْفُ لَيسَ بِصابِرِ
فَمـــا طَرَفَتْ عَينـــايَ لَمّـا تَعَرَّضَـــتْ		لِشَـــيءٍ سِـــوى إيمائِها بِالمَحاجِـــرِ
تَواقَـــفَ مَعشوقـــانِ ثُمَّ تَناظَـــرا		فَما مَلَكا فَيْـضَ الدُمُـــوعِ البَـــوادِرِ

* * *

أَمَتّيني، فَهَل لَكِ أَن تَرُدّي		حَياتي مِن مَقالِكِ بِالغُرُورِ؟
فَقَد أَحيا بِقَولِكِ لي جَوابًا:		نَعَم أَو لا، فَمُنّي بِاليَسيرِ
أَرى حُبّيكِ يَنمي كُلَّ يَومٍ		وَجَوْرُكِ في الهَوى عَدْلٌ، فَجُوري
وَإِن أَرضاكِ هَجري فَاهْجُريني		فَما أَرضاكِ يُنمِي لي سُروري

واقرأ، يا زميلى العزيز، هذه أيضا لبهاء الدين زهير، وفيها يبتهل إلى حبيبته علها ترضى، ويناديها بـ"يا مولاى"، ويجعل من حبه لها جهادا، ومن فوزه منها بنظرة فتحا مبينا:

أُحَدِّثُهُ إِذا غَفَلَ الرَقيبُ		وَأَسأَلُهُ الجَوابَ فَلا يُجيبُ
وَأَطمَعُ حينَ أَعطِفُهُ عَساهُ		يَلينُ لأَنَّهُ غُصنٌ رَطيبُ
أَذُوبُ إِذا سَمِعتُ لَهُ حَديثًا		تَكادُ حَلاوَةٌ فيهِ تَذوبُ
وَيَخفِقُ حينَ يُبصِرُهُ فُؤادي		وَلا عَجَبٌ إِذا رَقَصَ الطَّرُوبُ
لَقَد أَضحى مِنَ الدُنيا نَصيبي		وَما لِيَ مِنهُ في الدُنيا نَصيبُ
فَيا مَولايَ، قُل لي: أَيَّ ذَنبٍ		جَنَيتُ؟ لَعَلَّني مِنهُ أَتوبُ
أَراكَ عَلَيَّ أَقسى الناسِ قَلبًا		وَلِي حالٌ تَرِقُّ لَهُ القُلوبُ
حَبيبٌ أَنتَ، قُل لي، أَم عَدُوٌّ؟		فَفِعلُكَ لَيسَ يَفعَلُهُ حَبيبُ
حَبيبي فيكَ أَعدائي ضُروبٌ		حَسودٌ عاذِلٌ واشٍ رَقيبُ
وَها أَنذا وَحَقِّكَ في جِهادٍ		عَسى مِن وَصْلِكَ الفَتحُ القَريبُ
سَأُظهِرُ في هَواكَ إِلَيكَ سِرّي		وَما أَدري أَأُخطِئُ أَم أُصيبُ
أَرى هَذا الجَمالَ دَليلَ خَيرٍ		يُبَشِّرُني بِأَنّي لا أَخيبُ

وما العباس بن الأحنف وبهاء الدين زهير إلا مثالان اثنان من مئات الأمثلة من المحبين المدلهين فى هوى محبوباتهم، بل الآلافها . وكلهم مستعدون لبذل أرواحهم فداء للمحبوبة فى سبيل نظرة أو كلمة، بَلْهَ رسالة. وكنت منذ مدة غير بعيدة أراجع قصة قيس وليلى فى كتاب "الأغانى" والآلام الجهنمية التى قاساها قيس جراء حرمانه من حبيبة فؤاده وهيمانه فى البوادى يعيش مع الوحش وقد فقد عقله أو كاد، ومحاولات أبيه أن يعيد لابنه رشده، وهو يتأبى ويبتهل إلى الله أن يزيده عذابا فوق العذاب الذى يقاسيه رفضا منه أن ينسى ليلى رغم كل شىء، فكدت والله أبكى شفقة عليه. وما سبب ذلك كله؟ إنها المرأة، التى يقول زميلنا إنها كانت عند العرب مجرد نعل لا تزيد عن ذلك، أو وعاء لإفراغ الشهوة ليس إلا . واقرأ، أيها القارئ، حكاية ابن زيدون مع ولادة، والنونية العبقرية التى يندر أن يكون لها

فى الأدب، عربيه وعجميه، مثيل، والتى ألهمه إياها ما تجرعه من الصد والهجر على يد الحبيبة القاسية التى وضعها الشاعر فوق مستوى البشر. ثم يزعم زميلنا، سامحه الله، أن العرب كانوا يحتقرون المرأة ولا يرونها شيئًا له قيمة على الإطلاق.

هذا، وقد مر بنا قول زميلنا إن المرأة العربية لم تكن فى نظر الرجال بقادرة على الجدال والرد. فها نحن أولاء الآن أمام امرأة عربية، وهى مجرد مثال لكثيرات سواها، تخاصم معاوية وتَخْصِمه وتُفْحِمه هو ومن معه فى المجلس رغم أنها كانت وحيدة. وحتى لو قلنا إن الخبر مصنوع، فإن دلالته تبقى شاهدة بأن الرجال لم يكونوا يَرَوْن النساء عاجزات عن مجاوبة الرجال فى المجالس الغاصّة وإفحامهم. ففى "بلاغات النساء" لابن طيفور: "قال أبو موسى عيسى بن مهران: حدثني محمد بن عبيد الله الخزاعي يذكره عن الشعبي، ورواه العباس بن بكار عن محمد بن عبيد الله، قال: استأذنتْ سودة بنت عمارة بن الأسكّ الهمدانية على معاوية بن أبي سفيان فأذن لها. فلما دخلت عليه قال: هيه يا بنت الأسكّ! ألستِ القائلة يوم صفين:

شمّرْ كفعل أبيك يا ابن عمارةٍ		يوم الطعان وملتقى الأقرانِ
وانصر عليًّا والحسين ورهطه		واقصد لهندٍ وابنها بهوانِ
إن الإمام أخو النبي محمد		عَلَمُ الهدى ومنارةُ الإيمانِ
فَقِهِ الحتوفَ وسِرْ أمام لوائه		واقدم بأبيضَ صارم وسنانِ

قالت: أي والله ما مِثْلي من رغب عن الحق أو اعتذر بالكذب. قال لها: فما حملك على ذلك؟ قالت: حُبّ علي عليه السلام واتباع الحق. قال: فوالله ما أرى عليك من أثر علي شيئًا. قالت: أَنْشُدك الله يا أمير المؤمنين وإعادة ما مضى وتذكار ما قد نُسِيَ. قال: هيهات. ما مِثْلُ مقام أخيكِ يُنْسَى، وما لقيتُ من أحد ما لقيتُ من قومك وأخيك. قالت: صدق قولك. لم يكن أخي ذميم المقام ولا خفيّ المكان. كان والله كقول الخنساء:

وإنّ صخرًا لتأتمّ الهداة به		كأنه عَلَمٌ في رأسه نارُ

قال: صدقتِ. لقد كان كذلك. فقالت: مات الرأس، وبتر الذنَب، وبالله أسأل أمير المؤمنين إعفائي مما استعفيتُ منه. قال: قد فعلتُ، فما حاجتك؟ قالت: إنك أصبحت للناس سيدا، ولأمرهم متقلدا. واللهُ سائلك عن أمرنا وما افترض عليك من حقنا. ولا يزال يقدم علينا من ينوء بعزك ويبطش بسلطانك، فيحصدنا حصد السنبل، ويدوسنا دوس البقر، ويسومنا الخسيسة، ويسلبنا الجليلة. هذا بُسْر بن أرطاة قدم علينا من قِبَلك، فقتل رجالي وأخذ مالي. يقول لي: فُوهِي بما أستعصم الله منه وألجأ

إليه فيه. ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة. فإما عزلته عنا فشكرناك، وإما لا فعرفناك. فقال معاوية: أتهددينني بقومك؟ لقد هممتُ أن أحملكِ على قتب أشرس فأردّك إليه يُنفِذ فيك حكمه. فأطرقت تبكي، ثم أنشأت تقول:

صلـــى الإلـــه علـــى جسم تضمَّنه		قبـــرٌ فأصبـــح فيـــه العـدل مدفونا
قد حالف الحـقَّ لا يبغـــي بـــه بـــدلا		فصـــار بالحـــق والإيمـــان مقرونـا

قال لها: ومن ذلك؟ قالت: علي بن أبي طالب عليه السلام. قال: وما صنع بك حتى صار عندك كذلك؟ قالت: قَدِمْتُ عليه في رجل ولاه صَدَقَتَنا قَدِم علينا من قِبَله، فكان بيني وبينه ما بين الغث والسمين، فأتيت عليًّا عليه السلام لأشكو إليه ما صنع بنا، فوجدته قائما يصلي. فلما نظر إليّ انفتل من صلاته، ثم قال لي برأفة وتعطف: ألك حاجة؟ فأخبرته الخبر، فبكى ثم قال: اللهم إنك أنت الشاهد عليّ وعليهم أني لم آمرهم بظلم خلقك ولا بترك حقك. ثم أخرج من جيبه قطعة جلد كهيئة طرف الجواب فكتب فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم. قد جاءتكم بيّنة من ربكم، فأوفوا الكيل والميزان بالقسط، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تَعْثَوْا في الأرض مفسدين. بقية الله خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين. وما أنا عليكم بحفيظ. إذا قرأت كتابي فاحتفظ بما في يديك من عملنا حتى يقدم عليك من يقبضه منك، والسلام". فأخذتُه منه، والله ما ختمه بطِينٍ ولا خَزَمه بخِزَام، فقرأته. فقال لها معاوية: لقد لمظكم ابن أبي طالب الجرأة على السلطان، فبطيئًا ما تفطمون. ثم قال: اكتبوا لها بردّ مالها والعدل عليها. قالت: إليّ خاصٌّ أم لقومي عامٌّ؟ قال: ما أنت وقومك؟ قالت: هي والله إذن الفحشاء واللوم. إن لم يكن عدل شامل، وإلاّ فأنا كسائر قومي. قال: اكتبوا لها ولقومها".

ولا ينبغى أن ننسى شهرزاد، التى احتفى بها الرجال مؤلفو "ألف ليلة وليلة" وجعلوها تنتصر على واحد من أبناء جنسهم. ولم يكن هذا الذى انتصرت عليه شهرزاد رجلا عاديا، بل ملكا من الملوك. وخلاصة الأمر أن كتاب "الف ليلة وليلة" إنما يقوم على أنه كان هناك ملك يدخل كل ليلة بفتاة عذراء جميلة يقضى معها ليلته، ثم يقتلها فى الصباح انتقاما فى جنس النساء كله من زوجته الخائنة. وكان لذلك الملك وزير له ابنة جميلة عاقلة قرأت الكتب وسير الملوك وأخبار الأمم، وجمعت ألف كتاب من كتب التواريخ والشعر فيما يُرْوَى عنها ، فقالت لأبيها: زَوّجْنى من هذا الملك الذى يقتل فتاة كل يوم: فإما استطعت إنقاذ بنات جنسى ووضع حد لتلك الوحشية المفرطة، وإما قتلنى الملك مع من قتلهن قبلى. ولما دخل بها شرعت تقص عليه حكاية مسلية غاية التسلية والتشويق. وحين بلغت الحكاية ذروة تشويقها مع مطلع الفجر توقفت شهرزاد، ووعدته أن تكملها له الليلة القادمة. ولما كانت الليلة

القادمة صنعت ما صنعته فى أول ليلة. . . وهكذا دواليك، إلى أن حبلت من الملك وأنجبت. وهنا كان قد وقع فى حبها فلم تسمح نفسه بقتلها، فضلا عن رغبته فى الإبقاء على أم ابنه. وبهذه الطريقة نجحت شهرزاد فى الانتصار على الملك شهريار، التى تحولت شخصيته بفضل تلك الحكايات من شخصية شريرة إلى شخصية خيرة. أفلو كان الثقافة العربية تحقر من شأن المرأة أكانت تتركها تنتصر على الرجل؟ وأى رجل؟ إنه الملك ذاته! وفى أى ميدان؟ فى ميدان الحكمة والخير وحسن التدبير!

وكان الزميل قد أورد عن عمر بن الخطاب كلمة فى تحقير شأن المرأة وتشبيهها بالنعل قلتُ فيها: إن كان عمر قالها حقا إنها لرأيه هو لا يلزم أحدا سواه. لكنى فى الواقع لست مطمئنا إلى أنه قالها. أما إذا كان قد قالها رغم هذا، وهو ما أستبعده تمام الاستبعاد، فلا أحسبها فى أحسن الأحوال إلا كلمة طائرة لا تعبر عن رأيه الحقيقى فى هذا الموضوع. ذلك أن شخصية عمر ووقائع حياته لا يتفق معها هذا الرأى، فقد كان واسع الأفق نافذ النظر عميق الفهم للدين رحيما بالإنسان على شدةٍ ظاهريةٍ كانت فيه تخفى وراءها عطفا ومسامحة. ولقد جمعتُ بعض ما قاله فى النساء فوجدته لا يستقيم مع تلك العبارة الغريبة: فمثلا فى تقسيمه لأنواع النساء نجده يقول: "النساء ثلاث: هينة لينة عفيفة مسلمة تعين أهلها على العيش ولا تعين العيش عليهم. وأخرى وعاء للولد. وأخرى غُلٌّ قَمِلٌ يضعه الله فى عنق من يشاء، ويفكّه عمن يشاء"[1]. فانظر كيف يجعل النساء ثلاثة أنواع لا نوعا واحدا كما فى الكلمة الآنفة، فضلا عن أنه لم يقل إن أمر المرأة الشكسة هو فى يد زوجها: يبقيها أو يخلعها كما يحب، وفى الوقت الذى يحب، بل جعله فى مشيئة الله: إن شاء خلصه من شرها، وإن شاء تركه يَصْلَى نارها. وهذا وذاك مما يناقض ما تقوله الكلمة المذكورة.

وسمع، رضى الله عنه، امرأة فى الطواف تقول:

فمنهـــن مـــن تُسْقَـــى بمـــاءٍ مبـرَّدٍ		نُقَـــاخٍ، فَتِلْكُـــمْ عند ذلك قَـــرَّتِ
ومنهن من تُسْقَـــى بأخضـــرَ آجـــــن		أُجَـــاجٍ، ولولا خشيـــة الله فَـــرَّتِ

ففهم شكواها فبعث إلى زوجها فوجده متغير الفم، فخيره بين خمسمائة من الدراهم وطلاقها، فاختار الدراهم وطلقها[2]. أفلو كان رَأْيُ عمر حقا هو أن المرأة نعل فى قدم الرجل يلبسها وقتما يشاء، ويلقيها عن قدمه وقتما يشاء، أكان يهتم لما قالته تلك المرأة عن زوجها؟ بل أكان يحضر زوجها ويخيره

[1] على الطنطاوى وناجى الطنطاوى/ أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر/ ط٨/ المكتب الإسلامى/ بيروت/ ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م/ ٢٧٠.

[2] المرجع السابق/ ٢٧١.

ذلك التخيير الذى إنما يدل على إيمانه بحق المرأة فى أن تسعد بحياتها الزوجية وتنال حقها كاملا حتى فى أدق التفاصيل؟ وعلى الناحية الأخرى هناك الرواية التى أوردها الجاحظ فى "البيان والتبيين" من أن رجلا أراد تطليق زوجته لأنه لم يعد يحبها، فكان جواب عمر عليه: أَوَكُلّ البيوت تُبْنَى على الحب؟ فأين الرعاية والتذمم؟ يذكّره بحق العِشْرة التى كانت بينهما، وبحق المرأة فى إكرام زوجها لها ورعايته إياها. أفهذا رَدُّ مَنْ يرى أن المرأة ليست سوى نعل فى قدم زوجها يفعل بها ما يريد دون تعقيب أو تثريب؟

كذلك جاء رجل ذات مرة إلى عمر يشكو إليه خُلُق زوجته، فوقف بالباب ينتظره حتى يخرج، فسمع من الداخل صوت امرأته تستطيل عليه بلسانها، وهو ساكت لا يرد عليها، فانصرف الرجل قائلا لنفسه: إذا كان هذا هو حال الخليفة، فكيف حالى أنا؟ فعندئذ خرج عمر فرآه منصرفا، فناداه: ما حاجتك؟ قال: يا أمير المؤمنين، جئت أشكو إليك خلق زوجتى واستطالتها علىّ، فسمعت زوجتك كذلك، فرجعت وقلت: إذا كان هذا حال أمير المؤمنين فكيف حالى؟ فقال له عمر: تحملتُها لحقوق لها علىّ[1]. أفهذا كلام رجل يرى المرأة نعلا؟

وتدلَّى رجل بحبل ليشتار عسلا فقعدت امرأته على الحبل وهددته بأنه إذا لم يطلقها فسوف تقطع الحبل، فطلقها. ثم رفع الأمر إلى عمر فأبانها منه، أى أمضى الطلاق الذى حصلت عليه من زوجها بالإكراه[2]. فما معنى ذلك؟ معناه أنه أمضى رغبة المرأة رغم أن الطلاق وقع إكراها ولم يكن بإرادة الزوج. إلا أنه رضى الله عنه لم يشأ أن يجبر الزوجة على البقاء مع رجل لا تحبه. ومرة أخرى نسأل: أهذا صنيع رجل لا يرى فى المرأة إلا أنها نعل يلبسه الزوج متى أراد، ويخلعه متى أراد؟

ومثلها الحكاية التالية: خرج، رضى الله عنه، ذات ليلة يعسّ بالمدينة وهو خليفة، إذ سمع من داخل بيت صوت امرأة تقول شعرا تشتكى فيه غياب زوجها عنها فى ميدان الجهاد وتعبر عن شدة شوقها إليه وتقول إنه لولا مخافتها من الله لفرّطت فى عرضها. فما كان من عمر إلا أن أحضر ابنته حفصة وسألها عن المدة التى يمكن أن تصبرها المرأة على غياب زوجها، فقالت: شهرا واثنين وثلاثة، وفى الرابع يَنْفَد الصبر. فجعل رضى الله عنه ذلك أَجَلَ غياب الجند المسلم فى ميادين الجهاد عن

---

[1] السابق/ ٢٩٨.

[2] السابق/ ١٩٨.

زوجاتهم[١] . أفلو كان عمر يرى حقا أن المرأة ما هى إلا حذاء فى قدم زوجها أكان يضع مشاعر تلك المرأة ورغبتها الجسدية فى اعتباره فيحضر ابنته ويستشيرها فى ذلك الأمر، ثم يُتبِع الشورى بالعمل ويصدر أمرا بألا يغيب الجنود المبعوثون للجهاد عن زوجاتهم أطول من أربعة أشهر؟

وفى "شرح نهج البلاغة" لابن أبى الحديد[٢]: "جاء رجل إلى عمر فقال: إن بنتا لى وارتُها في الجاهلية، فاستخرجناها قبل أن تموت، فأدركتْ معنا الاسلام فأسلمت. ثم قارفتْ حدا من حدود الله، فأخذتِ الشفرةَ لتذبح نفسها، فأدركناها وقد قطعتْ بعض أوداجها، فداويناها حتى برئت وتابت توبة حسنة. وقد خطبها قوم، أفأخبرهم بالذى كان من شأنها؟ فقال عمر: أتعمد إلى ما ستره الله فتبديه؟ والله لئن أخبرتَ بشأنها أحدا لأجعلنك نكالا لأهل الامصار! أَنْكِحْها نكاح العفيفة السليمة". ولا أحسب هذه الحكاية التى كادت أن تدمى قلبى تحتاج من جانبى إلى أى تعقيب، فمغزاها فيما أريد منها واضح تمام الوضوح. لكن اللاهثين خلف مقولات الحداثة اللعينة التى لا تستريح ولا يهدأ لها بال إلا إذا أَرَّثَتْ نار العداوة والبغضاء بين الرجال والنساء يتجاهلون هذا كله، ويعضون بالنواجذ على عبارة طائرة لا راحت ولا جاءت جاعلين من حبتها قبة، إن كانت حبّةً أصلا.

ولقد سبق أن أشرت إلى أن الإسلام، حين أعطى المرأة حقوقها وكرمها وعطف عليها ورفع شأنها ودعا الرجل إلى الرقة معها واللطف بها، لم يكن خاضعا لحزب نسائى، بل فعل كل هذا ابتداءً من تلقاء نفسه. وفى العصر الحديث حين قامت حركة ترقية وضع المرأة كان القائمون بها كلهم من الرجال، مثل رفاعة رافع الطهطاوى وأحمد فارس الشدياق وبطرس البستانى وقاسم أمين ومعروف الرصافى ومحمد مهدى الجواهرى والطاهر الحداد ومحمد سعيد الزاهري، علاوة على أن السلطات الحكومية فى البلاد العربية بوجه عام، وهى من الرجال، كانت مع المرأة وتعليمها وإسناد الوظائف العامة إليها ومساواتها بالرجل فيما تتقاضاه من أجر... إلخ. أفليس لهذا كله دلالته؟

وأخيرا فإن نظرة سريعة إلى اللغة الإنجليزية، وهى مجرد مثال على اللغات الأوربية، كفيلة بأن ترينا أن ما أخذه زميلنا على البلاغة العربية موجود فى تلك اللغة أيضا. ولو أنه تريث فيما كتب لكان له رأى آخر. ونكتفى من لغة جون بُلْ ببعض الأشياء فنقول مثلا إن كلمة "woman" تعنى، فيما تعنيه، "الخادمة والخليلة والحظية والبغىّ". ومن ناحية أخرى تستخدم الإنجليزية للمرأة كلمات مثل:

---

[١] السابق/ ٢٥٢- ٢٥٤.

[٢] تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم/ دار احياء الكتب العربية/ ١٢/ ٦٧- ٦٨.

"bitch, chick, bird, babe, skirt, doll, distaff, rib, weaker vessel"، ومعناها على الترتيب: "كلبة، كتكوت، طائر، رضيع، فستان، دمية، عصا المغزل، ضلع، الوعاء الضعيف". ومن استخدامات اللغة الإنجليزية أيضا استعمالها كلمة "fury" للمرأة الحقود، ومعناها الأصلى: "الضراوة والغضب الشديد والعنف البالغ"، فتأمَّلْ. كذلك كثيرا ما يشيرون إلى الزوجة فى لغة جُون بُلْ بقولهم: "the little woman, ball and chain, old lady, old woman, rib". ومن التعبيرات التى تتعلق بالمرأة قولهم: "Woman's work, Hell knows no fury like a woman scorned". ويستخدم المتحدثون بالإنجليزية أيضا كلمتى "to ride" و"to mount" للدلالة على المعاشرة الجنسية كما فى لغة الضاد بالضبط. كذلك فكلمة "pussy"، التى كثيرا ما يستعملونها فى الإنجليزية لعضو الأنوثة، تعنى أيضا عندهم "قطة، جملا، أرنبًا بَرِّيًا". بل إنها تطلق كذلك على نوع النساء كله بالمعنى الجنسى، وعلى المرأة بوصفها طرفا فى المعاشرة، ثم على المعاشرة ذاتها. وفى الإنجليزية نراهم يستعملون كلمة "bull" (الثور، الفحل) بمعنى "قوى، ضخم، كبير الحجم، سمين". وبالمثل نراهم يستعملون "dog" بمعنى "رجل أو إنسان"كما فى قولهم: "you lucky dog"، مثلما تعنى "bell cow" "قائدا أو مرشدا" مثلا. ويشرح "Concise Oxford English Dictionary" الصفة "manly" (أى "رجولى") بأنها تعنى الشخص الحائز على الصفات الطيبة المرتبطة فى الذهن بجنس الرجال، مثل الشجاعة والقوة. وهذه عبارة المعجم المذكور: "Manly: having or denoting those good qualities traditionally associated with men, such as courage and strength". وعلى العكس من ذلك يشرح قاموس "WordNet 2.0" كلمة "womanly"، إذ جاء فيه أنها الشىء الذى يتصف بالخصائص الأنثوية كالرقة والشفقة: "Womanly: befitting or characteristic of a woman especially a mature woman; "womanly virtues of gentleness and compassion"".

ليس ذلك فقط، بل هناك فلاسفة ومفكرون أوربيون يؤكدون أن المرأة أقل ذكاء من الرجل: منهم على سبيل المثال أرسطو الفيلسوف الإغريقى، وبولس مؤسس المسيحية التثليثية، وماتيو دى بولونى الشاعر الفرنسى، وسيباستيان- روش نيكولا دى شامفور السياسى الفرنسى، وهربرت سبنسر الفيلسوف البريطانى، وسيزار لومبروزو العالم الإيطالى، وأوسكار وايلد الكاتب المسرحى البريطانى. وقد أشار قاسم أمين إلى بعضهم فى كتابه: "Les Egyptiens"، الذى وضعه بالفرنسة ردًّا على افتراءات دوق داركور على المصريين المسلمين فى كتابه: "L'Egypte et les Egyptiens".

ويمكن القارئ أن يجد كلام أمين فى هذا الموضوع فى "الأعمال الكاملة لقاسم أمين"[١] . وكلنا يعرف المثل الفرنسى الذى يستشهد به الفرنسيون وغير الفرنسيين كلما وقعت مصيبة قائلين: (Cherchez la femme : ابحث عن المرأة) . وهذا المثل يعكس نظرة الكتاب المقدس إلى المرأة، إذ ذكر أنها هى السبب فى طرد آدم من الجنة، ومن ثم عاقبها الله بالحمل وأوجاعه، وكأن الحمل والولادة شر أنزله الله بالمرأة، وليسا كرما من لدنه سبحانه يسعدها ويشعرها بتحقيق ذاتيتها فترضى عن نفسها إذ تحس أنها السبيل الذى يبدع الله الحياة الجديدة من خلاله.

ولعله يكون من المستحسن والمفيد أن أنقل شيئا مما كتبه قاسم أمين فى الفصل الخاص بـ"النساء" من كتابه الذى نحن بصدده. قال: "لقد سبق أن قلت إن للنساء (يقصد النساء المصريات المسلمات) حرية السلوك المطلقة. فإذا نظرنا من وجهة نظر أخرى لرأينا أن الوضع الذى أعطاه الإسلام للمرأة هو أكثر تميزا مما تتمناه. فهى كزوجة تتمتع بجميع حقوقها المدنية، فلها الأهلية القانونية لممارسة أى عمل من أعمال الإدارة أو نقل الملكية دون حاجة للحصول على إذن زوجها أو تصريح من المحكمة. إنها تستمد أهليتها من شخصيتها ذاتها، وليست للقِوَامة الزوجية هنا إلا دور معنوى خالص. فليس عليها حين تريد الشراء أو البيع أو الهبة أو تَلَقِّىَ منحة أو التقاضى إلا مشاورة نفسها هى، بينما لا تستطيع أختها الفرنسية ممارسة أى عمل من ذلك إلا إذا راق لسيدها وزوجها أن يأذن لها بذلك. والمرأة الفرنسية حين تتزوج تصبح كائنا ناقصا وترتدّ إلى الطفولة ثانيا . والقانون يعدها ناقصة الأهلية ويضعها تحت وصايته. إنها باختصار محرومة من ممارسة إدارة ثروتها الخاصة. وهذه أشياء لا يمكن لمسلم أن يفهمها، حتى إن جميع الحجج التى ساقها لى أستاذى القدير لمادة القانون الدولى بجامعة مونبليه فى تبرير إنقاص أهلية المرأة لم تنجح فى إقناعى، ولا أعتقد أنها تقنع غير الأزواج المستفيدين من هذا الوضع! وإذا كانت هناك نساء فى أوروبا يدّعين أن الرجال وضعوا القانون لصالحهم فإنهن محقّات فى ذلك. ولست فى حاجة للقول بأننا نتمنى النجاح لهؤلاء السيدات الجسورات اللاتى يكافحن فى بطولةٍ لتغيير هذا الوضع الذى ينطوى على ازدراء بجنسهن ولتحقيق أهليتهن فى ممارسة حقوقهن المدنية"[٢] . فما رأى السيد الزميل؟

والآن، ونحن نضع القلم ونغلق الموضوع، لا مانع من الكلام قليلا عن بعض الأمور الشخصية المتصلة بقضيتنا، فقد جاءنا أنا وزوجتى أول مولود لنا فى أوكسفورد سنة ١٩٧٧م، وكانت بنتا،

---

[١] انظر ص٢٤٩ من "الأعمال الكاملة لقاسم أمين/ تحقيق د. محمد عمارة/ دار الشروق/ ١٩٨٩م.

[٢] المرجع السابق/ ٢٥٠.

وشعرنا بالسعادة لمجيء البنت. وذات عصرية كنا جالسَيْن فى حديقة المسكن الجامعى للمتزوجين حيث كنا نقيم فى شمال المدينة، وكانت تسكن فى الشقة المجاورة لشقتنا سيدة أمريكية ترافق زوجها الذى يدرس مثلى فى الجامعة، فأتت وجلست معنا، وأخذنا الحديث إلى الكلام عن خلفة الذكور والإناث، فسألتنى بصفتى رجلا عن شعورى تجاه مولودتنا الأولى، فأعربت لها عما أشعر به، ثم أردفت فى ذات الوقت أن بعض الناس يؤثرون الولد، فعقبت قائلة إنهم فى أمريكا يفضلون الأولاد على البنات، وإن حماتها تفخر بها لأنها أنجبت جفرى. وقد دهشت لهذا الكلام لأنى كنت أظن أنهم فى أمريكا لا يبالون بمثل هذا الأمر. وأزيد القارئ من الشعر بيتا فأقول إن المولود الثالث لنا بنت أيضا. أى أننا بدأنا ببنت، وختمنا ببنت، وبينهما ولد. وأذكر أننى، ولا أدرى لماذا، كنت أتوقع أن يكون ذلك المولود الثالث ولدا. فلما وضعت زوجتى الطفل ذهبت إليها فى مستشفى الطائف للولادة، وكانت مرهقة ولا تزال تحت تأثير المخدر، فوجدت البنت الصغيرة بجوارها فى الحاضنة الزجاجية التى يرقد فيها الأطفال الرُّضَّع هناك. فما إن أمسكت بها وتأكدت أنها بنت لا ولد حتى جاشت نفسى وكادت الدموع تطفر من عينى، إذ أحسست بعطف وحنوّ عجيبين على تلك المخلوقة الجميلة الرقيقة الضعيفة العاجزة التى وهبنيها الله سبحانه وتعالى رغم حبوب منع الحمل فكسرت الحواجز وأتت رغم أنفنا لتكون سعادة لنا وبهجة لحياتنا. ومن يومها وأنا أحبها حبا خاصا، وإن لم يمنع هذا من معاقبتها عند اللزوم. إلا أنها بكل تأكيد قد ملأت حياتنا حبورا ونورا. ومن ناحية أخرى لست أذكر أبدا أننى آثرت ابنى الوحيد فى شيء على أختيه ولا دللته أكثر من أى منهما. وأنا عادة معتدل فى مثل تلك الأمور، فلا تدليل ولا قسوة، وإن كنت لا أخلو من الميل إلى التدليل مرة أو الشدة أخرى حسب الظروف.

ولا أذكر أيضا أننى حقرت من النساء أبدا، بل أعزو اختلاف الطريقة التى يفكر بها كل من الرجل عن المرأة فى بعض الأحيان إلى أنهما جنسان مختلفان رغم اتفاقهما فى البشرية والخطوط العامة التى تربط البشر بعضهم ببعض ذكرانا وإناثا، وأن هذه حكمة الله لا دخل للنساء فيها ولا للرجال، فما بأيدينا خُلِقْنا مختلفين، بل هذه سنة الحياة. وعادة ما أستشير زوجتى، وكثيرا ما أخذت برأيها، وكثيرا ما تركته. ولا أنسى أبدا أنها قد وقفت معى مواقف يعز على أغلب الرجال أن يتخذوها، كما لا أدّعى لنفسى الخلوّ من العيوب، وعلى رأسها افتقارى فى العادة إلى طول البال. وأرانى أعطف على البنات والنساء وأقول إنه إذا كان بعض النساء قد خدعن الرجال وأزعجنهم فما أكثر الرجال الذين دوّخوا النساء السَّبْع دَوْخات وأكلوا حقوقهن وأَرَوْهُنَّ النجوم فى عز الظهر. إلا أننى رغم هذا أقف ضد قوانين الأحوال الشخصية التى تضارّ الرجل وتُنَكِيه ظلما وعدوانا لمصلحة المرأة كما يزعمون، على

حين أن السبب الحقيقى هو مغازلة الغرب والعمل على إرضائه والبرهنة له على أننا نِسْوِّيون بما فيه الكفاية.

وأنا، بعد، أرجع إلى أصل ريفى، وقد تعلمت فى الكُتّاب ثم فى الأزهر حتى نهاية المرحلة الإعدادية، ثم حولت أوراقى إلى وزارة التربية والتعليم. أى أن نشأتى نشأة تقليدية، إلا أننى كنت وما زلت أنطلق فى رؤيتى للأشياء من قيم الإسلام، ولا أرى للأمر وجها آخر. وساعدنى على هذا أننى بدأت القراءة منذ وقت مبكر، وكانت قراءتى لمؤلفات كبار الكتّاب منذ اللحظة الأولى، فوسَّع هذا كله أفقى رغم أنى ريفىٌّ قُحٌّ، وإن لم يكن باستطاعتى الزعم بأننى فى كل ما أعمل وأدع قد نجحت فى ترجمة ما أومن به إلى واقع. فدائما ما تكون هناك مسافة بين النظر والعمل، وهو ما عبر عنه الرسول العبقرى عليه الصلاة والسلام بقوله: "سَدّدوا وقَارِبوا"، وقوله: "كلكم خطاؤون، وخير الخطائين التوابون"، وقوله: "لو لم تُذْنِبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يُذْنِبون فيستغفرون الله فيغفر لهم". وكل ما أرجوه ألا تكون هذه المسافة من الاتساع على نحوٍ مُخزٍ.

أمينة ودود تؤم الرجال وتفسر القرآن على الطريقة الأمريكية!

أمينة ودود (١٩٥٣م) أستاذة جامعية أمريكية متخصصة فى الدراسات الإسلامية كان أبوها قسيسا ملونا من طائفة الإصلاحيين، أما أمها فمن سلالة بعض العبيد المسلمين الذين تختلط فى دمائهم العروبة بالبربرية بالزنوجية. وودود ذات اتجاه نسوى، فهى ترى أن المرأة مظلومة فى المجتمع ظلما بينا، ومن ثم تعمل بكل قوة على نصرتها ضد الرجل، غير مبالية بأن يكون ما تقوله أو تفعله متفقا مع شريعة الإسلام أو لا. وكانت ودود فى الأصل نصرانية، ثم أعلنت اعتناقها الإسلام عام ١٩٧٢م وهى لا تزال طالبة بالجامعة رغم أنها لم تكن تعلم أوانذك بأصول أمها الإسلامية. وبعد ذلك بسنتين غيرت اسمها رسميا إلى "أمينة ودود". وقد سافرت أثناء مرحلة البكالوريوس إلى مصر فدرست فى الجامعة الأمريكية وجامعة القاهرة وجامعة الأزهر. ولها عدة كتب تدور حول المرأة وحقوقها حسب فهمها للقرآن، وإن غلبت على فهمها النزعة الأمريكية، إذ الملاحظ عموما أنها تعمل على لَىّ رقبة النصوص الإسلامية نحو الاتجاه السائد فى الحضارة الغربية متمثلة فى أمريكا.

ومعروف أنها أول امرأة فى الإسلام خطبت الجمعة (عام ١٩٩٤م فى أحد المساجد بجنوب أفريقيا)، وأول امرأة صلت الجمعة بالجنسين جميعا (عام ٢٠٠٥م بإحدى الكنائس بالولايات المتحدة الأمريكية) بعدما أَذَّنَتْ للصلاة فتاة لا تغطى شعرها ولا تلتزم بالاحتشام اللازم فى ملبس المرأة المسلمة، مثلما لم تلتزم بعض النساء المشاركات فى تلك الصلاة بهذا الاحتشام، فضلا عن اختلاط المصليات بالرجال والشبان ومزاحمتهن لهم فى الصفوف ملتصقات بهم وواقفات أمامهم بحيث يَرَوْنَهُنَّ وهن راكعات أو ساجدات أمام أعينهم، وكأنهم ليسوا فى صلاة بل يمثلون فلما هزليا. وكان العدد يربو على المائة، وكانت نسبة النساء إلى الرجال هى ثلاثة أخماس إلى خُمْسَيْن. ثم تكرر هذا أكثر من مرة فى أماكن أخرى، وإن تقلص عدد المشاركين فى الصلاة عن ذلك العدد كثيرا. وودود تعد نفسها واحدة من كُتّاب ما بعد الحداثة. كما أنها تنظر إلى القرآن على أنه كتاب "بعد حداثى" أيضا. ولعل فى هذا ما يلقى الضوء على بعض أفكارها الأساسية.

وإلى القارئ الكريم ما وجدته عنها فى المادة المخصصة لها بموسوعة "الويكبيديا" فى نسختيها الإنجليزية والفرنسية على التوالى:

1- "Amina Wadud (born September 25, 1952) is an American scholar of Islam with a progressive focus on Qur'an exegesis (interpretation). As an Islamic feminist, she has addressed mixed-sex congregations, giving a sermon in South

Africa in 1994, and leading Friday prayers in the United States in 2005. These actions broke with the tradition of having only male imams (prayer leaders), and thus she triggered debate and Muslim juristic discourse about women as imams.

Wadud was born as Mary Teasley in Bethesda, Maryland. Her father was a Methodist minister and her mother was descended from Muslim slaves of Arab, Berber and African ancestry dating back to the 8th century. She received her Bachelor of Science from the University of Pennsylvania, between 1970 and 1975. In 1972 she pronounced the *shahadah*, that is, accepted Islam, not knowing of her maternal ancestry. By 1974 she had changed her name officially to Amina Wadud, to reflect her chosen religion. She received her M.A. in Near Eastern Studies and her Ph.D. in Arabic and Islamic Studies from the University of Michigan in 1988. During graduate school, she studied in Egypt, including advanced Arabic at the American University in Cairo, Qur'anic studies and *tafsir* (exegesis or religious interpretation) at Cairo University, and philosophy at Al-Azhar University.

Wadud's research specialities include gender and Qur'anic studies.

From 1989 to 1992 she worked as an assistant professor in Quranic Studies at the International Islamic University Malaysia. While there, she published her dissertation *Qur'an and Woman: Rereading the Sacred Text from a Woman's Perspective* and co-founded the non-governmental organization Sisters in Islam. The book is still used by the NGO as a basic text for activists and academics, but it is banned in the United Arab Emirates.

In 1992 Wadud accepted a position as Professor of Religion and Philosophy at Virginia Commonwealth University. She retired in 2008, and took up a position as a visiting professor at the Center for Religious and Cross Cultural Studies at Gadjah Mada University in Yogyakarta, Indonesia.

Wadud has spoken at universities, grass roots level, government and non-government forums at various gatherings throughout the United States, the Middle East, Southeast Asia, Africa and Europe. Some of her speaking engagements have included the keynote address "Islam, Justice, and Gender" at the 2008 international conference *Understanding Conflicts: Cross-Cultural Perspectives*, held at Aarhus University, Denmark; a paper titled “Islam Beyond Patriarchy Through Gender Inclusive Qur’anic Analysis” at the 2009 *Musawah - Equality and Justice in the Family* conference; the Regional Conference on Advancing Gender Equality and Women’s Empowerment in Muslim Societies, hosted by United Nations Development Fund for Women (UNIFEM) and the International Centre for Islam

and Pluralism (ICIP) in Jakarta, Indonesia, in March 2009; a workshop on "Sharia and Human Rights" at the University of Bergen, Norway in late November 2009; a public lecture titled "Muslim Women and Gender Justice: Methods, Motivation and Means" to the Faculty of Arts, Asia Institute, at the University of Melbourne, Australia in February 2010; a lecture on “Tawhid and Spiritual Development for Social Action” at Muslims for Progressive Values at the Pacific School of Religion in Berkeley, California in July 2011.

In August 1994, Wadud delivered a Friday *khutbah* (sermon) on "Islam as Engaged Surrender" at the Claremont Main Road Mosque in Cape Town, South Africa. At the time, this was largely unheard of in the Muslim world. As a result, there were attempts in Virginia by some Muslims to have her dismissed from her position at Virginia Commonwealth University.

More than a decade later, Wadud decided to lead Friday prayers (*salat*) for a mixed-gender congregation in the United States, breaking with the tradition of having only male imams (prayer leaders), and thus becoming the subject of debate and Muslim juristic discourse. (The event was not the first time in the history of Islam that a woman had led the Friday prayer. See Women as imams for a discussion of the issue.) Over 100 male and female Muslims attended the controversial event on 18 March 2005 in New York City. It was sponsored by the Muslim Women's Freedom Tour, under the leadership of Asra Nomani, by the website "Muslim WakeUp!," and by members of the Progressive Muslim Union.

The gathering was held in the Synod House, owned by and adjoining the Episcopal Cathedral of Saint John the Divine, on Manhattan's Upper West Side, after three mosques had refused to host the service and the Sundaram Tagore Gallery withdrew its offer after a bomb threat. On Friday 18 March 2005, Wadud acted as imam for a congregation of about 60 women and 40 men seated together, without the traditional separate male and female sections. The call to prayer was given by another woman, Suheyla El-Attar. Wadud stated, "I don't want to change Muslim mosques. I want to encourage the hearts of Muslims, both in their public, private and ritual affairs, to believe they are one and equal." A small number of protestors gathered outside.

Many scholars and others supported Wadud, maintaining that her leadership of prayer represented a long overdue change. Egyptian scholar Gamal al-Banna argued that her actions were supported by Islamic sources, and were, therefore, orthodox. Other supporters include the Pakistani scholar Javed Ahmad Ghamidi; Islamic scholar Leila Ahmed, who thought it was a

good thing as it brought attention to the issue of women in Islam; and Islamic scholar Ebrahim E.I. Moosa, who called the prayer a "wonderful move". Khaled Abou El-Fadl, professor of Islamic Studies at UCLA, California said: "What the fundamentalists are worried about is that there's going to be a ripple effect not just in the U.S. but all over the Muslim world. The women who are learned and frustrated that they cannot be the imam are going to see that someone got the guts to break ranks and do it."

On the other hand, the general 'Ulamā' response from across the world has been similar to that of the widely watched Shaykh Yusuf Al-Qaradawi. He responded that, while a woman could lead other women and even possibly her family in *salat*, she could not lead a mixed group including non-mahram males:

The currently extant juristic schools agree that it is not permissible for women to lead men in the obligatory Prayer, though some scholars voice the opinion that the woman who is well-versed in the Qur'ān may lead the members of her family, including men, in Prayer on the basis that there is no room for stirring instincts in this case.

He berated her on Al-Jazeera, calling her action unislamic and heretical.

Because Wadud had become the target of death threats, the police and her employer, fearing for her security and reacting to concerns from parents about their children's safety, asked her to conduct her classes from home through a video link.

There has been support from Muslims around the world to Wadud's imamate. In spite of the criticism, Wadud has continued her speaking engagements, and has continued to lead mixed-gender Friday prayer services. On 28 October 2005, following her talk at the International Congress on Islamic Feminism in Barcelona, Spain, she was invited to lead a congregation of about thirty people. Following an invitation by the Muslim Educational Centre of Oxford, she led a mixed-gender prayer in the United Kingdom, even though Muslims planning to attend were threatened with being disowned by conservative imams through personal visits from mosques.

In 2007 Wadud received the Danish Democracy Prize.

Amina Wadud is a divorced mother of five children and three grandchildren.

Wadud was an advisor to the award-winning, PBS-broadcast documentary *Muhammad: Legacy of a Prophet* (2002), produced by Unity Productions Foundation.

She was interviewed on WNYC radio on July 14, 2006, to discuss her book *Inside the Gender Jihad*. She responded to

questions and comments about other activities including women in gender-mixed Friday prayer service.

In 2007, Wadud was the subject of a documentary by Iranian-Dutch filmmaker, Elli Safari, called "*The Noble Struggle of Amina Wadud*".

Her first book, titled "*Qur'an and Woman: Rereading the Sacred Text from a Woman's Perspective*", published in March 1999, contributes a gender-inclusive reading to one of the most fundamental disciplines in Islamic thought, Qu'ranic exegesis.

Her latest book, "*Inside the Gender Jihad: Women's Reform in Islam*", was published in 2006. It not only continues her Qur'anic analysis but also provides extensive details about her experiences as a Muslim, wife, mother, sister, scholar, and activist".

2- "Amina Wadud (née le 25 septembre 1952 à Bethesda (Maryland), États-Unis) est professeur d'études islamiques à l'université du Commonwealth de Virginie et l'une des figures de proue du féminisme musulman. Elle avait fait sensation, en mars 2005, en dirigeant la prière du vendredi, la *salāt*, devant une assemblée mixte, contestant ainsi la fonction exclusivement masculine de l'imamat. Tenante de positions libérales, elle refuse toute interprétation littérale du Coran, prône l'égalité entre hommes et femmes, et se dit même en faveur de l'autorisation du mariage homosexuel entre musulman-e-s. Se disant consciente que «pour certains, le féminisme islamique est un oxymore», elle s'affirme pourtant comme simultanément «pro-foi et pro-féministe».

Afro-Américaine, Amina Wadud est née d'un père qui était un pasteur méthodiste et d'une mère dont les ancêtres étaient des esclaves musulmans, dont les origines arabes, berbères et africaines remontaient jusqu'au VIII^e siècle. Wadud fait ses études à l'Université de Pennsylvanie de 1970 à 1975. En 1972, elle se convertit à l'islam en récitant volontairement la *chahadah*[2], sans rien savoir de ses ancêtres maternels. Durant cette période, elle se familiarise avec le Black power ainsi qu'avec la seconde vague féministe. Rejoignant en partie les analyses du *Black feminism*, elle déclare qu'«en 1972, l'islam m'a offert une échappatoire au phénomène accablant de la double oppression en tant que femme afro–américaine», bien qu'elle ait été par la suite très critique du mouvement des Black Muslims, qui élevait, de façon superficielle, la femme sur «un piédestal».

Wadud reçoit ensuit son master en Études du Moyen-Orient et son Ph.D. en études arabes et islamiques à l'Université du Michigan en 1988. Elle étudie l'arabe en Égypte et à

l'Université américaine du Caire, les études coraniques et le *tafsir* à l'Université du Caire et la philosophie à l'Université d'Al-Azhar. À la fin des années 1980, Wadud rencontre les *Sisters in Islam* en Malaisie, un groupe de féministes musulmans.

Amina Wadud a été la première femme à diriger le sermon introductif (*khutbah*) dans une mosquée, en l'occurrence la mosquée du Cap en Afrique du Sud (Claremont Mosque), en avril 1994. Elle a aussi soulevé une controverse aux États-Unis en dirigeant la prière du vendredi (la *salat*) de plus de cent musulman-e-s le 18 mars 2005, rompant la tradition selon laquelle les imams, dirigeant les prières, devaient nécessairement être masculins.

Elle est nommée professeur en études islamiques (*Islamic studies*) à la Virginia Commonwealth University en 2007.

Amina Wadud s'est principalement intéressée à la question du genre et du rapport entre hommes et femmes à l'intérieur de l'islam, ainsi qu'aux études coraniques. Elle publie ainsi *Qur'an and Woman: Rereading the Sacred Text from a Woman's Perspective* (*Le Coran et les Femmes: Relire les Textes Sacrés à partir d'une Perspective Féminine*), qui utilise les outils de l'exégèse moderne pour démontrer que le Coran n'a, en soi, rien de sexiste, contenant au contraire en lui-même les principes d'une égalité des genres. L'analyse textuelle suivie par Wadud vise à distinguer, dans le Coran, entre les éléments proprement historiques (tels, par exemple, que les commandements invitant au *djihad mineur*) et ceux plus spécifiquement universels. Paraphrasant Simone de Beauvoir, Wadud affirme qu'«on ne *naît* pas musulman, mais qu'on le devient». Elle est aussi convaincue que «le personnel est politique», s'inscrivant ainsi dans la lignée de la Nouvelle gauche ayant émergé dans le contexte de la guerre du Vietnam.

Son dernier livre, *Inside the Gender Jihad: Women's Reform in Islam* (*À l'intérieur du jihad pour le genre: la réforme des femmes dans l'islam*), a été publié en 2006. Tout en continuant la lecture du Coran, Wadud se présente en plus dans cet ouvrage en tant que femme musulmane, mère (de cinq enfants) et sœur, militante et savante. Dans un entretien à *Libération*, Amina Wadud déclare ainsi:

«J’ai entrepris des recherches: en quatorze siècles, il ne s’était pas écrit une ligne sur des interprétations féminines des écritures. Or, dans le Coran, il y a davantage de versets sur la justice sociale liée aux femmes que sur tout autre type de justice. Quant à la notion de féminisme, elle est ambiguë car très connotée. Il y a d’ailleurs des mouvements musulmans athées, et cela me paraît très bien. Mais nous, on se place dans une perspective religieuse, on cherche la complémentarité avec

l’homme, pas le conflit. Je porte le *hijab* (foulard) et ce n’est pas une marque d’oppression, c’est un choix. En résumé, nous ne voulons pas être des Occidentales modernes, mais des musulmanes modernes.»

Wadud se déclare postmoderniste, et analyse la résurgence de l'islam dans le monde comme mouvement participant à la postmodernité, laquelle serait une redéfinition du passé afin d'ouvrir un avenir dynamique. Selon elle, la religion musulmane est en évolution constante, progrès qui aurait été arrêté avec le colonialisme. Dès lors, ce qu'on analyse, dans les pays occidentaux, comme résurgence de l'islam, serait selon elle en fait le renouement de la religion musulmane avec sa propre identité dynamique, fondée entre autres sur l' *ijtihad* (ou interprétation, y compris personnelle, du Coran). Wadud définit la «pensée progressive islamique» comme façon de soutenir l'intégrité de la religion musulmane en promouvant son caractère dynamique.

Concernant le rapport entre le patriarcat et l'islam, elle affirme:

«L'islam, dans son articulation originelle, est très patriarcal. Il y a des aspects de l'articulation coranique qui corroborent le patriarcat contemporain. Mais je ne pense pas que ce patriarcat fasse partie de l'universalité de l'islam. Je pense au contraire que c'est un déplacement fonctionnel, qui a permis à l'islam d'entrer dans le cadre de son temps.»

En d'autres termes, elle refuse toute essentialisation du lien entre l'islam et le patriarcat, considérant ce dernier comme phénomène qui n'a rien de spécifique à l'islam, et affirmant que le lien islam-patriarcat n'est pas «inhérent à l'islam lui-même, mais au contexte de son origine» historique. Selon elle,

«L’oppression des sexes est donc contraire à l’islam et il incombe à ceux qui sont conscients de la complexité même de l’existence humaine de créer une réalité vivante qui défie l’oppression des sexes ou toute autre forme d’oppression fondée sur la race, la classe sociale, l’ethnie ou l’orientation sexuelle.»

Wadud en appelle par conséquent à une «réforme radicale» et à « une notion dynamique de la *shariah* », critiquée dans son état actuel et historique comme fondamentalement patriarcale. Concernant le *hijab* (voile), Wadud a des positions très nuancées, soulignant les différents usages de celui-ci, par exemple en Turquie ou en Iran. Sa critique principale consiste à refuser tout caractère obligatoire de celui-ci, en déclarant que le «hijab n'est pas supérieur hiérarchiquement au concept de modestie», et qu'il peut y avoir différentes manières d'incarner cette modestie, considérée comme valeur spirituelle de l'islam.

Elle-même porte le voile mais peut l'enlever, n'en faisant pas une question de principe".

وبالنسبة إلى إمامتها الرجال والنساء فى صلاة الجمعة فقد انقسم المسلمون حول هذا التصرف: فأما الأغلبية الساحقة الماحقة فاستهجنته واستنكرته وشعرت أن هذه السيدة قد أتت أمرًا إدًّا لم يفعله قبلها أحد من النساء، ورأت أنه لا يجوز أن تؤم المرأة أحدا من الرجال. وأما الرأى الآخر فقد نهضت بكِفْله أقلية شاحبة لا لون لها ولا طعم ولا رائحة، اللهم إلا تلك الرائحة التى يعبر عنها الإنجليز فى لغتهم بقولهم: "There is something fishy". ويكفى، لكى نعرف أن المسألة تفتقر إلى الجدية، أن يُذْكَر فيها اسم جمال البنا ويصفه مقال "الويكبيديا" الإنجليزية بأنه "scholar"، أى عالم، وما هو بعالم، بل رجلٌ هاوٍ لا يحسن العربية ولا يلم بالدراسات الإسلامية بالدرجة التى يقتضيها التعرض للقرآن بالتفسير واستنباطً الأحكام من نصوصه الجيدة، بل دخل الميدان مثلما يدخل ميدان الطب من يعالج المرضى ويكتب الروشتات دون أن يكون معه شهادة بالطب ولا بالصيدلة ولا حتى بالتمريض. وهو ما يصدق عليه قول الدكاترة زكى مبارك من أنه قد أخذها بالنبوت، مع أن كل شىء يمكن أن يؤخَذ بالنبوت إلا العلم[١]. وكنت كتبت فصلا طويلا فى كتابى: "مسير التفسير" عن جمال البنا وبعض ما يهرف به من آراء فى قضية المرأة أبين للقارئ من خلاله أن ما يقوله الرجل هو كلام نيئ غير ناضج ولا يصلح بتاتا فى ميدان الفكر الإسلامى، ويدل على أن بضاعته من العلم والمنطق وإحكام التفكير والاستنتاج قليلة. قد يكون الرجل صالحا فى ميادين أخرى تليق به ويليق بها، ولكنه فى رأيى لا يصلح لهذا الذى ندب نفسه له ولم تندبه مواهبه ولا استعداداته. ومن بين كلامه المتهافت أنه مثلا يقول بأن ملابس المرأة إنما تحددها أعراف المجتمع الذى تعيش فيه، وأنه لا يوجد لها زى شرعى بمواصفات معينة، وأن كشفها لصدرها وذراعيها وشعرها أمر لا غبار عليه البتة ما دام هذا هو ما تلبسه النساء فى محيطها، وفى نفس الوقت نراه، حين يريد تعضيد أمينة ودود فيما أتته من إمامة الرجال، لا يجد ما يثنى به عليها سوى أنها تلبس ملابس محتشمة، أى لا يظهر منها شعرها ولا صدرها ولا ذراعاها.

---

[١] كتب د. حلمى القاعود، فى مقال له بجريدة "المصريون" فى ٢٨ أغسطس ٢٠١٢م بعنوان "الصحافة الطائفية"، الكلمات التالية: "من المفارقات أن الكاتب الذى أطلقوا عليه لقب "إسلامى"، وجعلوه كاتب الصحيفة الإسلامى، كان الشقيق الأصغر للإمام الشهيد حسن البنا. وهو شخص شيوعى متطرف ينتسب إلى الحركة الشيوعية الماوية فى الصين. وقد أفسحت له صحيفة "المصرى اليوم" مساحات واسعة ليكتب مقالاته أو يُجْرِى مع محرريها حوارات مطولة يعبر فيها عن آراء غريبة وصادمة حول قضايا إسلامية تعدّ من ثوابت الإسلام، مثل الحجاب، والعلاقات بين الرجل والمرأة، وصوم رمضان...".

وهو ثناء عجيب من رجل لا يرى على المرأة من بأس فى أن ترتدى ما تشاء ما دام متمشيا مع ما ترتديه النساء فى مجتمعها أيا كان هذا المجتمع: نصرانيا أو يهوديا أو وثنيا أو شيوعيا ملحدا أو إباحيا . وهو ما ناقشته فى كتابى المذكور

ويكفى أيضا أنه لم يقل بجواز إمامة المرأة للرجل فى الصلاة طوال الأربعة عشر قرنا التى تشكل عمر الإسلام المبارك الممتد بمشيئة الله إلى يوم يُبْعَثُون سوى اثنين أحدهما المتصوف المثير للجدل والريبة ابن عربى الأندلسى صاحب الفكر الغريب والقائل بوحدة الوجود، ومدعى اعتناق دين الحب الذى يستوى فيه عابد الصليب والموحد بالله والوثنى العابد للأصنام، لا فرق بين دين ودين ولا بين عابد وعابد . فقلبه، كما يزعم، مفتوح للجميع . يقول هذا، وهو أندلسى، والنصارى فى الأندلس يتربصون بالمسلمين الدوائر، ويتآمرون عليهم، ويخططون للانقضاض على دولتهم ومحوها وطمس دينهم والقضاء عليهم هم أنفسهم، وهو ما حدث بعد ذلك بهذه الحذافير كلها ، بينما ابن عربى يهيم فى أودية الضلال مدعيا أنه على دين الحب، وما هو دين الحب، ولكنه دين التعاته والتباله والرغبة فى التفلت من دين الله الذى نعرفه ولا نعرف غيره والذى يحثنا على حب من يستحق الحب لا على التسوية بين عابد الله وعابد الوثن دون إنكار على الوثن ولا على من يعبده من دون الله . يقول ابن عربى:

لقد كنتُ قبل اليوم أُنْكِــــــر صاحـــــبي		إذا لـم يكـــن ديني إلى دينـــه دانـي
فقد صـــار قلبي قـابـلاً كـل صـورة:		فمرعًـى لغـــزلان، وديــــرٌ لرهبــــان
وبيـتٌ لأوثــان، وكعبـــةُ طـــائــفٍ		وألـــــواحُ تـــوراةٍ، وأوراقُ قـــرآنَ
أديــــن بـــدِيـــن الحــب أَنَّـى توجهتْ		ركائبـــــه، فالحـــب ديـــني وإيمانـي

والآن إلى ما قاله ابن عربى فى إمامة المرأة للرجال، وهو موجود فى الباب التاسع والستين من كتابه: "الفتوحات المكية" تحت عنوان "فصل بل وصل فى إمامة المرأة" . قال: "من الناس من أجاز إمامة المرأة على الإطلاق بالرجال والنساء، وبه أقول . ومنهم من منع إمامتها على الإطلاق، ومنهم من أجاز إمامتها بالنساء دون الرجال . الاعتبار فى ذلك: شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض النساء بالكمال كما شهد لبعض الرجال، وإن كانوا أكثر من النساء فى الكمال، وهو النبوة . والنبوة إمامة، فصَحَّتْ إمامة المرأة . والأصل إجازة إمامتها ، فمن ادعى منع ذلك من غير دليل فلا يسمع له، ولا نص للمانع فى ذلك . وحجته فى منع ذلك يدخل معه فيها ويشرك، فتسقط الحجة فيبقى الأصل بإجازة إمامتها . اعلم أن الإنسان عالم فى نفسه كبير من جهة المعنى، وإن كان صغير الحجم . ولهذا يقول: "إياك نعبد" بنون الجمع . وجعل جوارحه وقواه الظاهرة والباطنة منقادة لما يحكم فيها المقدَّمون

عليها، وهو العقل والنفس والهوى. وكل واحد منهم قد يؤم الجماعة فى وقت ما: فالطاعات كلها المقرّبة للعقل، والمباحات للنفس، والمخالفات للهوى. وقد قيل للعقل: إذا سمتِ النفسُ من اتباعك فى الأمور المقربة واقتدائها بك فى وقت إمامتك، وتقدمت هى فى المباحات وأَمَّتْ بك، فاتبعها وصَلِّ خلفها حافظا لها لئلا يخدعها الهوى. فإن الهوى يتبعها فى ذلك الحال عسى يوقع بها فى محظور. ففى مثل هذا الموطن تجوز إمامة النفس، وهى المرأة. وإمامة العقل بمنزلة إمامة الرجل المسلم البالغ العالم الولد الحلال. وإمامة الهوى بمنزلة إمامة المنافق والكافر والفاسق. وإمامة النفس بمنزلة إمامة المرأة".

والواقع أن ما يقوله ابن عربى مجرَّح من كل وجه: فأولا هل الكمال الذى شهد به الرسول للنساء هو النبوة كما زعم ابن عربى؟ لا بكل تأكيد، وإلا فَلْيُرِنا أن هذا هو مقصد النبى صلى الله عليه وسلم من الكمال. كما أن القرآن الكريم والسنة النبوية يخلوان تماما من ذكر أية نبية أو رسولة أو القول بأن المرأة يمكن أن تكون كذلك، أو حتى الإشارة إلى هذا الأمر من بعيد. بل إن طبيعة المرأة لا تتناسب ومهمة النبوة كما وضحتُ فى الفصل الخاص بذلك من كتابى: "مع الجاحظ فى رسالة الرد على النصارى"[١]. فالنبوة تحتاج إلى قوة شديدة على تحمل مشاق الدعوة والكيد والمؤامرات والاختلاط بالناس من كل جنس ولون ومغامسة المجتمع فى كل ظروفه وأحواله والمقدرة على مواجهة أى طارئ يطرأ فى أى حين والتحرك الدائب هنا وهناك، علاوة على الخلو من الموانع التى من شأنها عرقلة تلك المهمة الجليلة كالحيض والنفاس والحَبَل والولادة والرضاعة ودخول المرأة تحت قوامة رجلها وائتمارها بأمره... إلخ.

وعلى كلٍّ ها هو ذا نص الحديث الذى يشير إليه ابن عربى: "كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون. وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام". فهل فى الحديث ما يمكن أن يُشْتَمّ منه مجرد اشتمام أن الكمال هنا هو النبوة؟ وهل كانت مريم بنت عمران أو آسية زوجة فرعون نبية كما يزعم ابن عربى؟ فأين يا ترى ذُكِر ذلك فى قرآن أو حديث؟ فأما مريم ابنة عمران فلم يذكر القرآن عنها إلا أن الملائكة بشرتها بكلمة من الله اسمه المسيح بن مريم. ولو كانت نبية أكان القرآن يسكت عن نبوتها ولا يذكر عنها إلا هذا الأمر؟ وأما زوجة فرعون فلم يقل عنها القرآن إلا إن الله قد ضربها مثلا للذين آمنوا كمريم ابنة عمران سواء بسواء، وأنها كانت تدعو الله أن ينجيها من فرعون وعمله ومن القوم الظالمين. فأين نبوتها إذن؟ وأما الأحاديث فليس فيها من قريب أو من بعيد شىء عن تلك النبوة المزعومة لكلتيهما. بل إن زوجة فرعون غير

---

[١] انظر فصل "نبوة النساء" من كتاب "مع الجاحظ فى رسالة الرد على النصارى"/ مكتبة زهراء الشرق/ ٩٩- ١١٥.

مذكورة عند أهل الكتاب من النبيات. وإذا كان لنا، رغم هذا، أن نفهم الحديث على الوجه العجيب الذى فهمه، أو بالأحرى: اخترعه، ابن عربى إن عائشة إذن لسيدة النبيات والمرسلات ما دامت رضى الله عنها تَفْضُل سائر النساء. فهل هناك من يمكن أن يقول بهذا؟ ثم بافتراض أننا قد قبلنا نبوة النساء، فهل يعقل أن يكون عدد النبيات اثنتين فحسب طوال تاريخ البشرية؟ ولماذا هاتان بالذات من بين مليارات النساء هما اللتان اختيرتا لهذه المهمة الجليلة؟ وكيف لم يحدث قط أن أَمَّتْ عائشة الرجال برغم فضلها على سائر النساء حسب الحديث الشريف؟

الواقع أن "الكمال" فى الحديث النبوى هو استيفاء الشخص مواصفات المروءة والنبل والتقوى وما إلى ذلك. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائهم". ولو كان تفسير ابن عربى صحيحا لقال الرسول مثلا: "أكمل الناس إيمانا من كانت نبوته تفوق نبوة غيره من الأنبياء". كذلك ليس فى المعاجم ذلك المعنى الذى ينسبه ابن عربى لكلمة "كامل". ثم ألو كان معنى الكلمة هو ما قاله ابن عربى أكانت تكون هناك الرواية التالية أيا كانت درجتها فى الصحة: "كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا ثلاث: مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد. وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام"؟ ذلك أنه لا يمكن بتاتا أن تعد خديجة على أى نحو من الأنحاء بين الأنبياء. ويؤيد ما قلتُه فى معنى "الكمال" الحديثان التاليان: "خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون"، "أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون".

ويؤيد كلامى أيضا النصوص التالية من الشعر والنثر، وهى مجرد أمثلة طائرة ليس إلا: تقول الخنساء فى رثاء أخيها صخر:

جَلْدٌ جَمِيلُ المُحَيَّا كامِلٌ وَرِعٌ		وَلِلْحُروب غَداةَ الرَّوْعِ مِسْعارُ

ويقول الراعى النميرى فى ممدوحه:

وَأَجْزَأْتَ أَمرَ العالَمِينَ، وَلَم يَكُن		لِيُجْزِئَ إلا كامِلٌ وَابْنُ كامِلِ

ويقول لسان الدين بن الخطيب فى مدحة له:

هوَ البَدْرُ، إلا أَنَّهُ الدّهْرَ كامِلٌ		إذا عِيبَ نُورُ البَدْرِ بالنّقْصِ والخَسْفِ

وفى "الحُلَة السِّيَرَاء" لابن الأبّار فى وصف أحد كبار رجال الدولة فى الأندلس نقرأ أنه "أعطى السلطانَ حقَّه منَ النظر، ولم يخل مع ذلك من نظره لمعيشته حتى تضاعف ثراؤه، وصار لا تقع

عينه على أغنى منه. حاط ذلك كلّه بالبخل الشديد والمنع الخالص، اللذين لولا هما ما وجد عائبه فيه طعنا، ولَكَمَل لو أن بَشَرًا يَكْمُل". وفى "جمهرة الأمثال" يقول أبو هلال العسكرى فى شرح المثل القائل: "زَاحِمْ بعَوْدٍ أو دَعْ": "يُضرَب مثلاً للرجل حنّكته السن حتى تثقف وتيقظ. ومعناه: استعن على أمرك برجل له تجربة وحزم، أو دع الاستعانة. والعَوْد أصله من الإبل، وهو المسنّ منها. وكان علي رضي الله عنه يقول: "رَأْيُ الشيخ أحبُّ إليَّ مِنْ مشهد الغلام". وقيل: لا يتم العقل المخلوق إلا بالعقل المكتسَب. ومن لم يكن له تجربة لم يصب تدبيره، ولم يكمل لفصل الأمور".

أما أن الأصل هو إمامة المرأة كما يزعم ابن عربى فأنى له بهذا الاستنتاج؟ لقد مكث الرسول يدعو إلى الإسلام سنوات طوالا، فكيف لم ينتدب واحدة من الصحابيات المؤهلات لفهم الدين، وهن كثر، لتؤم من كان من الصحابة أقل منهن فهما للدين طوال كل هاتيك تلك السنين؟ ولماذا لم تطلب واحدة من النساء القيام بهذه المهمة؟ لقد كان النساء فى الأعمال المقصورة على الرجال يسألن النبى ألا يجوز لهن أيضا أن يعملنها، ثم إذا كانت الإجابة بالنفى استفسرن عن السبب فى ذلك. والأمثلة متعددة فى هذا المضمار. فكيف تَصَادَفَ أنْ لم يفكر النساء بتاتا فى إمامة الرجال؟ إن كل ما قاله النبى عليه الصلاة والسلام فى صلة المرأة بالمسجد هو نهيه للرجال عن منع النساء من الذهاب إلى بيوت الله وتأدية الصلاة فيها إن أردن. ولكن لم يحدث أن أمر القرآن الرجال أن يَدَعُوهن يَأْمُمْن الرجال.

وإذا كان الرسول قد أمر النساء بأن تكون صفوفهن فى الصلاة الجماعية خلف صفوف الرجال والغلمان، فكيف ينتظر منه صلى الله عليه وسلم أن يرضى، فضلا عن أن يأمر، بأن يؤم النساءُ الرجالَ بما يستتبع أن تقف المرأةُ قدامهم؟ لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجعل الرجال قدام الغلمان، والغلمان خلفهم، والنساء خلف الغلمان على ما رواه أحمد وأبو داود. وقال صلى الله صلى الله عليه وسلم: "خير صفوف الرجال أولها، وشرها آخرها. وخير صفوف النساء آخرها، وشرها أولها". ليس ذلك فحسب، فعن أم سلمة رضى الله عنها: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلم قام النساء حين يقضي تسليمه، وهو يمكث في مكانه يسيرا قبل أن يقوم. قالت: فنرى، والله أعلم، أن ذلك كان لكي ينصرف النساء قبل أن يدركهن الرجال".

فإذا كان الأمر كذلك، فكيف يمكن أن يدور فى الخاطر أن الإسلام يجيز للمرأة أن تؤم الرجل؟ ومع هذا فقد زعمت أمينة ودود وأنصارها أن من يرفض إمامة المرأة للرجال هم المتشددون المتعصبون الذين يعملون على هضم الحقوق الروحية للمرأة المسلمة حسبما جاء فى التقرير المصوَّر الذى بثّه قناة الجزيرة حول واقعة إمامتها صلاة الجمعة. أرأيت، أيها القارئ الكريم، كيف يسيء بعض الناس الأدب مع

رسول الله باتهام أحاديثه بأنها أفكار المتطرفين والمتشددين المنغلقين الذين يريدون هضم حقوق النساء الروحية؟ أرأيت قلبا للحقائق كهذا القلب؟

وأخيرا ما الصلة بين إمامة المرأة للرجال وبين تقسيمة ابن عربى الثلاثية: العقل والنفس والهوى؟ هل بهذه الطريقة البهلوانية يليق أن نفهم شرع الله وأحكام دينه؟ ترى أية علاقة بين المرأة والنفس بحيث يكون من الجائز أن نترك المرأة تَؤُمّ الرجال مثلما نترك النفس تنعم بالمباحات؟ الحق أن هذه قفزة بين متباعدات لا يستطيع العقل السليم أن يقوم بها، إذ تحتاج إلى عقل مضطرب كعقل بعض المتصوفة البهلوانيين يمكنه لمح الصلة بين ما لا صلة لبعضه ببعض. كما أن توجيه ابن عربى لاستعمال ضمير الجمع فى قوله سبحانه وتعالى على لسان المؤمنين: "إياك نعبد وإياك نستعين" بأنه دليل على عظمة الإنسان، الذى لا يتمتع رغم هذا إلا بجسم صغير، هو علامة على تهرؤ منطقه وسخافة توجيهه وتعليله للأشياء، إذ لو كان الأمر كما يقول لكان استعمال ضمير المفرد فى حق المولى فى ذات الآية علامة على عكس ذلك، أستغفر الله. ومن من المسلمين يقبل يا ترى بهذا التفسير؟ كما أن رسول الله عليه الصلاة والسلام لم يستخدم فى أى كلام منسوب إليه فى القرآن أو فى الحديث ضمير الجمع لنفسه قط. فهل هو مستثنى من تلك العظمة؟ أستغفر الله مرة أخرى. كذلك هل يعقل أن يعلمنا الله كيف نتعاظم ونتكبر فنستخدم لأنفسنا ضمير الجمع، الذى لا يستخدمه لنفسه من البشر إلا كل جبار متشامخ يرى نفسه فوق الناس؟ الحق أن الأمر أبسط وأسلس وأيسر من هذا لمن يريد تحرى الحقيقة، وهو أن ضمير الجمع فى الآية المذكورة لا يعود على فرد واحد بل على جماعة المؤمنين، الذين ينطق باسمهم كل مُصَلٍّ بصفته فردا من مجموعهم. فكأنه يقول: "إياك أعبد أنا وسائر المسلمين يا رب العالمين". هذا كل ما هنالك لا ذلك التفسير العجيب الذى أتى به ابن عربى صاحب دين الحب والذى يقبل قلبه كل من هب ودب مهما كانت كراهيته للإسلام والمسلمين والله والرسول.

ثم لا يصح أن ننسى أن صلاة الجمعة بل صلاة الجماعة بوجه عام ليست فرضا على المرأة أصلا. قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: "الْجُمُعَةُ حَقٌّ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ فِي جَمَاعَةٍ إِلاَّ أَرْبَعَةً: عَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَوِ امْرَأَةٌ أَوْ صَبِيٌّ أَوْ مَرِيضٌ". وفى حديث أم عطية: "نُهِينا عن اتباع الجنائز، ولا جمعة علينا". ولو افترضنا أن إمامة المرأة للرجال مسموح بها فى الإسلام، فهل الطريقة التى تم بها هذا الأمر فى حالة أمينة ودود مقبولة حيث أذنت للصلاة فتاة حاسرة الرأس والصدر، واختلط النساء بالرجال والتصقن بهم فى الصلاة وسجدن وركعن أمامهن، وكان بعضهن فوق ذلك لا يغطين شعورهن، ويلبسن سراويل محزقة تصف كل أعضائهن وتثير الشهوة عند من يراهنّ، ناهيك عن رؤيتهن وهن ساجدات

وراكعات أمامهم مباشرة، فضلا عمن يلتصقن بهم فى الصف؟ فأية صلاة هذه؟ وما بالنا ونحن نعرف أن إمامة المرأة للرجال غير جائزة، بل نعرف قبل ذلك كله أن المرأة لا جمعة عليها أساسا؟

وأما الطبرى فلم يقل أحد ممن ذكر رأيه أين يمكن أن نجد هذا الرأى. ومن يبحث فى كتب الرجل حيث يُظَنّ وجود مثل ذلك الرأى لن يعثر على شىء. لكننا نقرأ فى كتاب ابن رشد: "بداية المجتهد ونهاية المقتصد" أن الفقهاء "اختلفوا في إمامة المرأة: فالجمهور على أنه لا يجوز أن تؤم الرجال. واختلفوا في إمامتها النساء: فأجاز ذلك الشافعي، ومنع ذلك مالك. وشذ أبو ثور والطبري، فأجازا إمامتها على الإطلاق. وإنما اتفق الجمهور على منعها أن تؤم الرجال لأنه لو كان جائزا لَنُقِل ذلك عن الصدر الأول، ولأنه أيضا لما كانت سُنَّتهن في الصلاة التأخير عن الرجال عُلِم أنه ليس يجوز لهن التقدم عليهم لقوله عليه الصلاة والسلام: أخّروهن حيث أخّرهن الله. ولذلك أجاز بعضهم إمامتها النساء، إذ كن متساويات في المرتبة في الصلاة مع أنه أيضا نُقِل ذلك عن بعض الصدر الأول"[1]. ويوضح الصنعانى فى "سبل السلام" الفتوى المنسوبة للطبرى مؤكدا "أن المرأة لا تؤم الرجل، وهو مذهب الهادوية والحنفية والشافعية وغيرهم. وأجاز المزني وأبو ثور إمامة المرأة[2]. وأجاز الطبري إمامتها في التراويح إذا لم يحضر من يحفظ القرآن"[3]. فالطبرى إذن، بافتراض أنه هو فعلا صاحب هذا الرأى، لم يقل بإمامتها مطلقا، بل فى التراويح فقط، وبشرط ألا يكون هناك من يحفظ القرآن. فهل هذا هو ما صنعته أمينة ودود حتى يستشهد به بعض من أيدوها؟ واضح أن ودود قد فعلت شيئا آخر تماما. كذلك لا حجية فى الاستدلال بالحديث التالى الذى ظن بعض من وقفوا يعضدون فعلة أمينة ودود أنه يسمح لها بصنع ما صنعت، فقد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأم ورقة "أَنْ يُؤَذَّنَ لَهَا وَيُقَامَ وَتَؤُمَّ نِسَاءَهَا" فى بيتها. ومرة أخرى يتبين لنا أن ما يستشهد به من شجعوا السيدة الأمريكية لا ينفعهم بشىء كما هو جلىٌّ بَيِّنٌ.

والغريب أن تقول أمينة ودود إن وضع المجتمع العربى فى ذلك الوقت لم يكن يسمح بهذا لأنه مجتمع ذكورى. قالت ذلك فى كتابها: "Qur'an and Woman: Rereading the Sacred Text from a Woman's Perspective"، وكررته كثيرا متخذة منه حجةً تفسر بها السبب فى أن الإسلام لم يشرّع الأمور على النحو الذى تراه هى بعقليتها الأمريكية مناسبا

---

[1] ابن رشد/ بداية المجتهد ونهاية المقتصد/ ١/ ١٠٥.

[2] أوضح د. هانى السباعى أن المقصود هو الصلاة خلف المرأة لمن لا يعلم أنها امرأة ثم تبين له بعد الانتهاء من الصلاة أنه كان يأتم بامرأة. انظر بحثه: "حكم إمامة المرأة للرجال في الصلاة- بحث شرعي مبسط" على الرابط التالى: http://www.almaqreze.net/ar/articles_read.php?article_id=203

[3] الصنعانى/ سبل السلام/ دار الفكر/ بيروت/ ٢/ ٢٩.

للمرأة. إلا أن قولها هذا لا يصح أبدا. لماذا؟ لأن المجتمع الجاهلى الوثنى كان يعرف الكاهنات، وهن يُشْبِهْنَ المرأةَ الإمام بل يزدن عليها، إذ لم تكن الكاهنة فقط مقصد الرجال والنساء، بل كانت تدعى أيضا أن الوحى ينزل عليها من السماء عن طريق الشياطين حسب اعتقاد الجاهليين السخيف فتخبر قُصّادها به، فينزلون على ماتقول دون نقض أو إبرام. كما يعتقد اليهود بنبوة النساء، اللاتى ذكر منهن الكتاب المقدس ما يزيد عن العَشْر. أى أن المجتمع العربى لم يكن ليستغرب، أو على الأقل: لم يكن ليستغرب كثيرا، لو أن الإسلام قال بجواز إمامة المرأة للرجال. لكنه لم يفعل، فما معنى ذلك يا ترى؟

من هنا نستطيع أن نضع، فى موضعه الصحيح، ما قاله مفتى الديار المصرية د. على جمعة حينذاك معلقا على هذه المسألة، إذ ذكر أن العلماء المسلمين مختلفون على مسألة إمامة المرأة للرجال، التى أثيرت مؤخرا عقب الإعلان عن اعتزام د. أمينة ودود إلقاء خطبة الجمعة وإمامة الرجال والنساء، مشيرا إلى أن الجمهور، وهم معظم الأئمة المعترف بهم، لا يجيزون إمامة النساء للرجال، فى حين أن عددا من الأئمة كالطبرى وابن عربى يجيزون ذلك، وإن كانوا أيضا يختلفون في مكان وقوفها: أيكون أمام الرجال أم بمحاذاتهم؟ باعتبار السترة التي قد تنتفى خلال حركات الصلاة المختلفة. ثم أضاف أن الأمر فى مثل تلك الحالات الخلافية يكون مرجعه لأهل الشأن: فإذا ما قبلوا أن تؤمهم امرأة فهذا شأنهم، ولا حرج عليهم ما دام ذلك لا يخالف ما تعارفوا عليه. وإذا ما رفضوا فهذا شأنهم أيضا، وهو ما يسير عليه الناس فى معظم البلاد الإسلامية، ومنها مصر، التى لا يتوقع أن يحدث فيها مثل هذا الأمر لأنه يتنافى مع أعراف الناس وما اعتادوا عليه طوال حياتهم. وواضح أن فضيلة المفتى يرجع الجواز أو التحريم فى تلك القضية إلى العرف، وكأن الأمر ليس له حكم فى الشريعة رغم ما أوردناه من نصوص وآراء واعتبارات.

وكانت د. ودود قد قالت في خطبة الجمعة المشار إليها إن الدين الإسلامي يساوي بين الرجل والمرأة، وإن لها الحق في إمامة الصلاة. وقالت أيضا إنها تريد لها الحصول على هذا الحق لا على الحقوق السياسية والاقتصادية فقط. وقالت في مؤتمر صحافي قبل الصلاة إنها لا تريد تغيير شعائر الدين والمساجد، ولكنها تطالب بحقوق المرأة في الإمامة إلى جانب الحقوق السياسية والاقتصادية. هذا ما قالته ودود، وهو كلام فيه وفيه. فنحن معها فى وجوب حصول المرأة على حقوقها السياسية والاقتصادية والدينية، فلا تُزَوَّج مثلا على غير رغبتها، ولا تساء عشرتها، ولا تهان ولا يضيَّق عليها فى نفقة أو تزاور أو تعليم أو ترفيه أو تحرم من المشاركة فى الانتخابات... إلخ. أما إمامة الرجال فى الصلاة فهذا ما لا أجد له وجها. ولو كان له وجه لوقفت أنافح عنه، فأنا أحب الانفتاح فى الدين ما

دام للانفتاح مسوغ، أما ترك الأمور سداح مداح دون ضابط ولا رابط فكلا. وقد قَلَّبْتُ الأمر على وجوهه كلها فلم أجد ما يجعلنى أغير رأيى فى هذه القضية. على أن الإسلام قد أعطى المرأة الفرصة لتكون إماما، ولكن لبنات جنسها. أما الشطط والتمرد فلا معنى لهما.

والعجيب أن د. ودود، فى الوقت الذى تقيم فيه الدنيا جميعا بتصرفها الغريب الذى تحاول به خداع المسلمين وإيهامهم أنها إنما تناضل فى سبيل نيل النساء المسلمات حقوقهن، هى نفسها د. ودود التى ترى وتسمع وتشم وتلمس ما يحدث للنساء المسلمات فى بلاد الغرب من إهانات بسبب ملابسهن وحشمتهن، وما ينزل على رؤوسهن من مصائب فى العراق وفلسطين من اعتداء الأمريكان واليهود على التوالى عليهن وعلى أعراضهن وعلى حياتهن وتحويل المعيشة فى بلادهن إلى جحيم، دون أن تفتح فمها بكلمة واحدة. كما أننا لم نسمعها تنبس ببنت شفة احتجاجا على الفتاة الأمريكية النبيلة المتعاطفة مع الحق الفلسطينى المغتصَب والتى قتلتها الجرافة الإسرائيلية منذ سنوات قليلات حين وقفت فى طريقها بشموخ وعزة وشجاعة لمنعها من هدم البيوت الفلسطينية رغم أنها ليست مسلمة، ودون تشدق أو تساخف من ذلك النوع الذى تَبْرَع فيه بعض المنتسبات إلى الإسلام. فأين كانت هذه الغيرة الودودية آنذاك؟

الحق أن هذا هو ميدان الكفاح الصادق من أجل حقوق المرأة لا الميدان المزيف الذى تشغلنا ودود به. كما أنها لا تفكر أبدا فى الإنكار على بلادها داعمة الاستبداد فى العالم الإسلامى، وراعية الحكام الخائنين الذين يبيعون شعوبهم وبلادهم فى دنيا النخاسة السياسية الدولية بَيْعَ السماح لقاء تركها لهم فى الحكم ينعمون بالنهب والسلب واعتقال الأحرار من رعاياهم وسَوْمهم سوء العذاب، ومحتلة العراق وأفغانستان، ومدمرة البيوت، ومغتصبة أعراض الحرائر، وناسفة الملاجئ على من يلوذ بها من القنابل والصواريخ، وضاربة الشعوب بالسلاح النووى دون أية خالجة من ضمير، ومستنزفة ثروات المسلمين وبترولهم، ومُصَادِرة أموالهم الموضوعة فى مصارفها عند أول بادرة، وغارسة الخنجر الإسرائيلى فى صميم قلبهم، ورافضة الديمقراطية التى أتت بمنظمة حماس إلى الحكم فى قطاع غزة، ومستثنيةِ إسرائيل فى المحافل الدولية من أية عقوبات أو مؤاخذة، وناصرتها ضد العرب أجمعين رغم أن العرب يفيدونها كل الفائدة على حين تمثل إسرائيل عبئًا هائلا عليها. ولكن ماذا نقول؟

ولو أنها صرفت هذا الجهد وتلك الهمة إلى المناداة بمساواة البنات للأولاد فى بعض البيئات المسلمة المتخلفة فى الاهتمام بتعليمهن، أو لمعالجة مشكلة جرائم العرض، تلك التى تستبيح فيها أسرة الفتاة أو المرأة دمها إذا اقترفت الزنا، بينما لا يفكر أحد من أسرة الشاب أو الرجل الزانى فى مس شعرة

من رأسه لا لشىء إلا لأن أثر الزنا يظهر عليها هى ولا يظهر عليه رغم مساواة الإسلام بين الاثنين فى العقوبة، أو للدعوة مثلا إلى إجبار الزانى على الزواج بمن زنى بها إذا كانت فتاة لم تتزوج بعد ، أو للقضاء على الزواج الإكراهى الذى يقع على بعض النساء أو الظلم الذى ينالهن فى أمور الميراث فى المجتمعات المتخلفة، أو للمساعدة فى مواجهة مشاكل العنوسة التى تفشت فى العقود الأخيرة فى البلاد الإسلامية، أو التعاون على مواجهة الفقر المدقع وآثاره الكارثية التى تعانى منها كثير من الشعوب المسلمة، لو أنها فعلت ذلك لكان أحجى وأنفع وأبرك من هذا الاهتمام المتنطع بإمامة النساء للرجال. فلماذا تترك أمينة ودود هذه الميادين كلها ، والحاجةُ إلى عمل أى شىء فيها هو من الإلحاح بمكان، وتصر على مناطحة الرجال فيما قصره الدين عليهم، فضلا عن اختلاط الرجال والنساء فى الصفوف أثناء الصلاة وكشف المصليات صدورهن وشعورهن وارتدائهن السراويل الضيقة التى تبرز مفاتنهن، لاجئةً فى ذلك إلى الاعتساف والبهلوانية فى تفسير النصوص القرآنية، ومهملةً من أجل هذه الغاية المريبة نصوصَ الحديث النبوى الشريف، ومتجاهلةً منطق اللغة؟

وبالمناسبة ففى هذه الأيام يتعرض المسلمون فى بورما للإبادة الجماعية أو يرحلوا عن بلادهم، إلى أين؟ لا ندرى. فلماذا لا ترفع د. ودود صوتها ، إن لم يكن من أجل المسلمين البورميين جميعا بما فيهم الرجال، الذين أخذت على عاتقها مناوأتهم من أجل الحصول على ما قصره الله عليهم مما فى أحسن أحواله لا يقدم ولا يؤخر فى حياة المرأة كثيرا ولا قليلا، فمن أجل الفتيات والنساء اللاتى ينتمين إلى نفس الجنس الذى تنتمى إليه هى؟ ولا شك أن ارتفاع صوت من قلب أمريكا من فم كفم أمينة ودود سيكون له تأثير ضخم فى أرجاء العالم كله. كما أن الملاكِمة الأردنية براء العبسى قد اضطرت إلى اعتزال الأوليمبياد اللندنى هذه الأيام لحرصها على ارتداء الحجاب فى الوقت الذى يصر الاتحاد الدولى للملاكمة على تخييرها هى وأمثالها بين التنورة القصيرة والشورت، وهو ما يشكل انتهاكا صارخا للحريات الدينية وتدخلا فى الشؤون الشخصية التى لا تعنى أحدا سوى صاحبتها ، وبخاصة أن الحجاب لا يمثل أى عائق للاعبة الملاكِمة ولا يضر منافساتِها فى شىء، وإن كنت على المستوى الشخصى لا أرحب بممارسة النساء لرياضة الملاكمة، بل لا أحبها للرجال أيضا لما فيها من عنف وقسوة ودماء . لكن ودود ولا هى هنا ، وكأن أذنيها قد صارتا أذنا من طين، وأذنا من عجين، وكأنه قد نزل على عينيها حجاب منعهما من الإبصار، فلا شافت ولا سمعت، بل لا تنوى أن تشوف أو تسمع. وهكذا يكون الكفاح، وإلا فلا.

ومن طريف الأمر أن ودود، التى تفعل هذا كله من أجل إثبات ما لا يمكن ثبوته، وهو أنه لا يوجد أى فرق بين الرجال والنساء، هى نفسها ودود، التى تلاحظ (ص٣٢– ٣٣) أن النساء المذكورات فى القرآن، ما عدا مريم، لم يُذْكَرْن بأسمائهن، بل بأسماء أزواجهن أو آبائهن أو إخوتهن بوصفهن زوجات أو بنات أو أخوات لهم. فما معنى ذلك يا د. أمينة؟ أليس معناه أن القرآن يضعهن بعد الرجال بدرجة؟ وإلا فلماذا لم يذكرهن بأسمائهن مباشرة؟ جوابها أن ذلك من باب الاحترام لهن (ص٣٢). ولكن لماذا لا يكون احترام النساء إلا من خلال إضافتهن إلى أقربائهم من الرجال؟ أليس هذا دليلا على ما نقول؟

كذلك نحب أن نلفت الأنظار إلى ما قالته د. أمينة ودود (ص٣٣– ٣٤) من أن النساء المذكورات فى القرآن لا يراد أن تُسْتَخْلَص من قصصهن نماذجُ للسلوك والأخلاق تخص النساء فقط، بل تصلح للرجال أيضا، كما هو الحال فى سورة "التحريم" حيث يقول القرآن: " وضرب الله للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط. . ."، "وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون. . . * ومريم ابنة عمران. . . ". وهذا خطأ، وإلا لكان معنى الكلام هو أن امرأة نوح وامرأة لوط لا تنفعان إلا الكافرين، وأن مريم وامرأة فرعون لا تفيدان إلا المؤمنين، إذ معنى الكلام فى ظنها هو أن الله ضرب المثل بهؤلاء النسوة ليتعلم منه الكافرون والمؤمنون على التوالى. وهذا كلام لا يصح، والصواب هو أنه سبحانه وتعالى قد ضربهن أمثلة على هاتين الطائفتين، فاللام فى قوله تعالى: "للذين كفروا– للذين آمنوا" تعنى "عَلَى" فى أسلوبنا الحديث.

يقول الزمخشرى فى تفسير الآية العاشرة من سورة"التحريم"، وهى الآية الخاصة بزوجتى نوح ولوط عليهما السلام: "مَثَّل الله عز وجل حال الكفار، في أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم من غير إبقاء ولا محاباة، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لحمة نسب أو وصلة صهر لأن عداوتهم لهم وكفرهم بالله ورسوله قَطَع العلائق وبَتَّ الوصل وجعلهم أبعد من الأجانب وأبعد، وإن كان المؤمن الذي يتّصل به الكافر نبيا من أنبياء الله، بحال امرأة نوح وامرأة لوط: لما نافقتا وخانتا الرسولين لم يُغْنِ الرسولان عنهما بحِقّ ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج إغناءً ما من عذاب الله".

فهذه واحدة. أما الثانية فهى أننا، حين نتأمل أحوال أولئك النسوة، سوف نجد أن سلوكهن الذى ضربه القرآن مثلا هو سلوك خاص بالنساء: فامرأة فرعون كانت زوجة لفرعون الطاغية الجبار لا تملك من أمر نفسها إزاءه شيئا، لكنها رغم ذلك تمسكت بإيمانها ولم تتابع زوجها المستبد على كفره

واستبداده. ومريم حرصت على عفتها وأحصنت فرجها، وهذا أيضا سلوك خاص بالنساء. أما على الجانب الآخر فسوف نجد زوجتى نوح ولوط تخونان زوجيهما، وهذا كذلك سلوك نسائى أيا كان معنى الخيانة هنا.

وفى هذا المقام أحب أن أقول كلمة هامة، وهى أننا لا نعادى المرأة ولا يمكن أن نتخذ موقفا معاديا منها، إذ هى أمنا أو أختنا أو عمتنا أو خالتنا أو بنتنا أو حفيدتنا أو طالبة من طالباتنا أو جارة من جاراتنا أو طبيبة تعالجنا أو مدرّسة تعلمنا . . . إلخ. كما أن ما أعرفه عن نفسى من اتساع الأفق والثقافة وحبى للوضوح والصراحة وعدم خضوعى للبيئة فى مثل تلك الأمور يباعد بينى وبين الانحياز للجانب المعادى للمرأة، فضلا عما تمثله لنا المرأة من قيم الجمال والرقة والرهافة وما أنا مدين به للمرأة متمثلة فى أمى، التى حملت بى فى بطنها وتجشمت فى سعادةٍ آلام الحمل بى تسعة أشهر، وأرضعتنى الشهور الطوال واعتنت بى فى طفولتى وسهرت على راحتى وتحملت فى سبيل تلك الراحة المتاعب والمشاق، وفى جدتى، التى تولت أمر تربيتى والإنفاق علىَّ بعد وفاة أمى وأبى، وفى الفتاة التى تعلقت بها فى شبابى الأول تعلقا راقيا طاهرا مثلت لى فيه كل معانى الأناقة والجمال والرقة والحياء، وفى زوجتى، التى كانت اختيارى لها موفقا إلى حد بعيد. وهذا كله من شأنه أن يحجزنى بكل قوة عن التفكير فى معاداة المرأة أو الجور على حقوقها.

وعلى المستوى الشخصى عندى ولد وبنتان، ولا أذكر أننى فضّلته يوما عليهما رغم أنه ولد وحيد، وهما اثنتان. كما أننى، رغم إيمانى بأن قوامة البيت حق من حقوق الرجل، لا أمارس، فيما أتصور، أى استبداد فى إدارة شؤون البيت، بل تناقشنى دائما زوجتى وأولادى، وكثيرا ما يخالفوننى فى الرأى والموقف، فأنزل أحيانا على ما يَرَوْن، أو أبقى على ما أراه أنا، كل ذلك دون تشنج فى العادة، بل تمضى أمور البيت فى كثير من الأحيان دون أى تدخل سافر من جانبى، إذ أكتفى بترك الأمور تجرى فى أعنتها ما دامت فى نطاق المعقول. ولكن ليس معنى ذلك أننا فى بيتنا نعيش فى الجنة، فنحن فى نهاية المطاف بشر من لحم ودم: نغضب ونختلف أحيانا، ونتفق ونتفاهم أحيانا، ونسعد أحيانا، ونحزن أحيانا . . . وهكذا مثلما هو الحال فى بيوت كثيرة. المهم أن بيتنا لا يعرف العواصف والأعاصير، والحمد لله، وبحر حياتنا آمن لا يتعرض راكب السفينة فيه إلى الغرق.

إننى أعطف على المرأة وأحب لها كل الخير، وأَبْغَضُ الأشياء إلى نفسى أن يظلمها ظالم، لكن هذا ليس معناه أن نتخذ جانبها على طول الخط. فهى، رغم ما قلته عنها، إنسان فيها حسنات الإنسان وعيوبه. إلا أن منطلقى هو قيم دينى ومبادئه وما أمر اللهُ الرجلَ أن يأخذ به نفسه فى تعامله

مع المرأة. فما هو موقف الإسلام منها الذى نتأسى به ونضعه طوال الوقت نُصْبَ أعيننا ؟ من المعروف مثلا أن بعض العرب فى الجاهلية كانوا يئدون بناتهم، أى يقتلونهن صغيراتٍ، خوفا من الفقر والعار. وفى مواضع متعددة من القرآن الكريم آيات تتناول هذا الموضوع وتنْهَى عنه وتجرّمه وتتساءل بأى ذنب تُقْتَل تلك المسكينة التى لا حَوْل لها ولا طَوْل وتُحْرَم من حق الحياة، وتسفّه العقلية المتخلفة التى تُقْدِم على ذلك السلوك الوحشى الهمجى، وتصف ما كان يعترى بعض العرب من الشعور بالعار حين يسمع أن زوجته قد أنجبت له بنتا، بما يعنى أن تلك الظاهرة كانت متجذرة فى بعض القبائل العربية قبل الإسلام، فنزل القرآن يحذر من هذا الفعل الإجرامى الآثم: "وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ" (التكوير/ ٨– ٩)، "وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (النحل/ ٥٧– ٦٠)، "أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ" (الزخرف/ ١٦– ١٨. وفى الحديث الشريف: "مَنْ وُلِدَتْ له ابنة فلَمْ يَئِدْها ولم يُهِنْها ولم يُؤْثِر ولده عليها أدخله الله بها الجنة". وفى الحديث أيضا أن من وأد بنتا دخل النار. وهو ما يدل على بشاعة تلك الجريمة اللاإنسانية من جهة، وعلى رحمة الإسلام بالبنات وعطفه عليهن واحترامه لهن وعدم التفرقة بينهن وبين الأولاد الذكور من ناحية أخرى.

وبالمناسبة فليس العرب هم الأمة الوحيدة التى عرفت الوأد، بل عرفته أمم أخرى، ولا يزال حتى الآن يمارَس فى أماكن مختلفة من العالم. وفى موسوعة "الويكيبيديا" مثلا أن الإجهاض بسبب جنس الجنين (وأد البنات) ما زال يمارَس حتى الآن في مناطق تقوم فيها العادات والتقاليد والثقافة المحلية بتفضيل الذكور على الإناث كما هو الحال فى بعض المناطق من جمهورية الصين الشعبية وكوريا وتايوان وباكستان والهند والقوقاز. وتضيف "الويكيبيديا" أن واد البنات والأطفال عموما ما زال يحدث الآن بالصين مثلا بسبب تحديد النسل أو الفقر، وكذلك فى المجتمعات المحافظة حين لا يكون الحمل شرعيا. بل إن الإجهاض الأنثوى قد انتشر الآن فى بعض المناطق فى العالم بسبب القدرة على معرفة نوع الجنين قبل الولادة من خلال الأشعة التلفازية فوق الصوتية.

كذلك لا يفرق الإسلام بين الذكر والأنثى فى الاحتفال بالمولود، أى العقيقة، بل كلا الذكر والأنثى مرحَّب به دون أى تمييز، ويقام له نفس الاحتفال دون زيادة أو نقصان. ومن الأمور التى تلفت النظر أن

النبى محمدا لم يعش له أى طفل ذكر. وقد لفت هذا انتباه القرشيين الكفار فعيَّروه بذلك ونبزوه بـ"الأبتر"، أى المقطوع الذيل. يقصدون أنه لن يبقى له ذِكْر فى الدنيا لأنه ليس له أولاد ذكور يحملون اسمه، بل سينقطع ذكره بمجرد موته، إلا أن القرآن قد رد على ذلك التصور الجاهلى المتخلف بأن من يكره الرسول ويتمسك بتلك المفاهيم الجاهلية إنما هو "الأبتر"، بما يدل على أن الأمر لا يعتمد على إنجاب الذكور أو الإناث، إذ لا فرق فى الإسلام بين النوعين كما رأينا، بل على الإنجازات التى يقدمها الشخص لأسرته ووطنه والإنسانية جمعاء. قال تعالى: "إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ" (الكوثر/ ١- ٣).

وفى الإسلام أنه إذا ربى الأب ثلاث بنات أو بنتين أو حتى بنتا واحدة وزوَّجها فإنه يدخل الجنة. وهذا يدل على مدى اهتمام الإسلام بالأنثى ورحمتها والعطف عليها وإيلائها وضعا متميزا لما فيها من ضعف بالنسبة إلى الذكر بوجه عام. ومن ذلك أيضا أن أحد الصحابة جاء النبى وسأله: أى الناس أحق بصحبتى يا رسول الله؟ فقال له: أمك. فأعاد القول ثلاث مرات، وفى كل مرة كان الجواب هو نفس الجواب: أمك، إلى أن جاءت الرابعة فكان الجواب فى هذه المرة فقط أنَّ أحق الناس بصحبته هو أبوه. ويؤكد هذا الموقفَ الحديثُ الذى يقول إن "الجنة تحت أقدام الأمهات"، وهى عبارة لها مغزاها الواضح العظيم.

وفى الزواج لا يصح أن تُكْرَه الفتاة على التزوج ممن لا تحب، وليس من حق أبيها ولا أمها ولا أى شخص آخر فَرْضُه عليها مهما تكن الظروف. ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام فى هذا الموضوع: "أشيروا على النساء في أنفسهن. فقال (أحد الصحابة): إن البكْر تَسْتَحِى يا رسول الله. قال: الثَّيب تُعْرِب عن نفسها بلسانها، والبكْر رضَاها صُمَاتها". وفى الحديث أيضا: "لا تُنْكَح البكْر حَتى تُسْتَأْذَن، ولا الثَّيب حتى تُسْتَأْمر. فَقيل: يا رسول الله، كيف إذنها؟ قال: إذا سَكَتَتْ". ومعنى الحديث واضح شديد الوضوح، وهو أن زواج الفتيات أمر خاص بهن فى المقام الأول، فلا بد من استشارتهن وعدم تزويجهن من غير إذنهن. وليس معنى تفسير سكوت الفتاة فى هذا السياق برضاها عن الزواج أنه ينبغى تفسيره فى كل الأحوال على هذا النحو، فقد يكون سكوت الفتاة فى بيئة أخرى لونا من الخوف أو الخجل من الرفض الواضح. ومن ثم كان لا بد من مراعاة السياق فى كل حالة، أما الحديث الشريف فيتحدث عما كان معروفا عن نفسية الفتاة آنذاك. وفى البيئة المصرية الآن صارت الفتاة فى معظم الحالات تعبر عن رأيها فى هذا الموقف بكثير من الشجاعة، وبخاصة بينها وبين أمها أو أختها مثلا. وكان الرسول أول من طبق المبدأ الذى دعا إليه مع بناته جميعا، فلم يحدث أنْ فرض على

أبتهن زوجا لا تحبه. وقد وَقَع على أيامه صلى الله عليه وسلم أنْ "جاءت فتاة إلى عائشة فقالت: إن أبي زَوَّجني ابن أخيه ليرفع من خَسِيسَته، وإني كرهت ذلك. قالت: اقعدي حتى يجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاذكري ذلك له. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكرت ذلك له، فأرسل إلى أبيها، فجاء أبوها وجعل الأمر إليها. فلما رأت أن الأمر جُعِل إليها قالت: إني قد أَجَزْتُ ما صنع أبي. إني إنما أردت أن أَعْلَم هل للنساء من الأمر شيء أم لا".

وهنا يجب القول بأن الإسلام يعطى المرأة الحق فى مَهْر يدفعه لها الرجل حتى تصح أن تكون زوجة له، وهذا يختلف عن النظام الذى تعرفه أوربا مثلاً، والذى بمقتضاه تحْمِل الزوجة إلى بيت الزوجية مبلغا من المال يقل أو يكثر حسب مقدرتها أو مقدرة أسرتها المالية. ومن الممكن، إذا لم يكن الزوج المسلم غنيا، أن يقدّم لزوجته مهرا فى حدود طاقته دون تثريب عليه. وقد قال الرسول ذات مرة لأحد أصحابه حين رآه عازما على الزواج دون أن يكون قادرا على دفع مهر ذى قيمة: "الْتَمِسْ ولو خاتما من حديد". وقال لصحابى آخر يعانى من ضيق ذات اليد، وقد أتى إليه يريده أن يزوّجه امرأة معينة: "زَوَّجْتُكها بما معك من القرآن". كما أن الإسلام يوجب على الزوج الإنفاق على زوجته وعلى أبنائه، فضلا عن دفع الديات والغرامات، على حين تُعْفَى هى تماما من المشاركة فى النفقات الأسرية، اللهم إلا إذا شاءت ذلك من تلقاء نفسها. ويظل مَالُها مكتوبا باسمها تتصرف فيه بحرية تامة دون أن يكون للزوج حق التدخل فيما تفعل.

وفى الميراث يعطى الإسلام المرأة نصيبا مما يتركه الأب أو الأم وبعض الأقارب الآخرين رغم أنها لا تتحمل شيئًا من تكاليف الإنفاق كما رأينا. ويظن بعض الناس أن المرأة ترث دائما نصف ميراث الرجل، وهذا غير صحيح على إطلاقه، بل هو غير صحيح إلا فى أربع حالات فقط فى مقابل حالات كثيرة ترث فيها المرأة أكثر مما يرث الرجل، وذلك على النحو التالى: في حالة وجود أولاد للمتوفَّى: ذكورًا وإناثًا لقوله تعالى: "يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ" (النساء/ ١١)، وفي حالة التوارث بين الزوجين حيث يرث الزوج من زوجته ضِعْف ما ترثه هي منه لقوله تعالى "وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ" (النساء/ ١٢). كما يأخذ والد المتوفَّى ضِعْف الوالدة إذا لم يكن لابنهما وارث، فيأخذ الأب الثلثين وزوجته الثلث. كذلك يأخذ والد المتوفَّى ضعف ما تأخذه الوالدة إذا كان عند

ابنهما المتوفَّى ابنة واحدة، فهى لها النصف، وتأخذ الأم السدس، ويأخذ الأب السدس (والباقى تعصيبًا) .

وفي المقابل نجد أن الإسلام أعطى المرأة في كثير من الأحوال من الميراث مثل الرجل: في حالة وجود أخ وأخت لأم في إرثهما من أخيهما إذا لم يكن له أصل من الذكور ولا فرع وارث، فلكل منهما السدس. وإذا تُوُفِّيَ الرجل، وكان له أكثر من اثنين من الإخوة أو الأخوات، فإنهم يأخذون الثلث بالتساوي. وفيما بين الأب والأم في إرثهما من ولدهما إن كان له ولد أو بنتان فصاعدًا، ففى هذه الحالة "لأَبَوَيْهِ لِكُل وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ" (النساء/ ١١) . . . بالإضافة إلى حالات ست أخرى مشابهة. وهناك حالات خمس أعطى الشرع فيها للمرأة أكثر مما أعطى للرجل، وحالات خمس أخرى ترث فيها المرأة، ولا يرث الرجل شيئًا، وهو ما يجده القارئ مفصلا فى كتب المواريث. وعلى هذا فما يتردد على ألسنة الناس من أن الإسلام يعطى المرأة من الميراث دائما نصف ما يعطيه الرجل هو كلام غير دقيق. وعلى الناحية الأخرى نجد أن المرأة فى كثير من الحضارات تُحْرَم من الميراث تمام الحرمان.

ومن المعروف أن الرجال فى كل حضارات العالم منذ أقدم العصور حتى الآن بما فيها الدول المتقدمة ثقافيا وصناعيا واقتصاديا كأمريكا وفرنسا وبريطانيا قد يضربون زوجاتهم رغم إيقاف العمل بالقانون الذى كان يبيح للرجل فى أمريكا وبريطانيا مثلا أن يضرب زوجته لتأديبها . ومع أن هناك زوجات يضربن أزواجهن فإن هذا أمر نادر . فما موقف الإسلام من قضية ضرب الرجل لزوجته؟ بوجه عام لا يحب الإسلام أن يضرب الرجل زوجته أو يهينها . وقد شدد الرسول فى ذلك إذ يقول: "لا يَجْلِدْ أحدُكم امرأته جَلْدَ العبد ثم يجامعها في آخر اليوم" . ولم يحدث قط أن ضرب صلى الله عليه وسلم أيا من زوجاته. بل إنه لم يضرب أية خادمة عنده. وأقصى ما قاله لإحدى الخادمات حين أخرجته عن بعض حِلْمه إنه لولا خوفه من الله وسؤاله له يوم القيامة لأوجعها بالسواك الذى فى يده. فعن أم سلمة زوجته رضى الله عنها: "دعا النبي صلى الله عليه وسلم وصيفة له، فأبطأت عليه، فقال: لولا مخافة اللوم يوم القيامة لأوجعتُكِ بهذا السواك" .

وفى القرآن آية يخطئ بعض الناس فيظنون أنها إيجاب لضرب النساء لأنها تستخدم فعل الأمر، جاهلين أن الأمر كثيرا ما ينصرف إلى أغراض بلاغية أخرى غير الأمر، فيكون للإباحة أو تقرير الواقع مثلا كما فى قول أحدنا لصديقه وهو يقدم له بعض التفاح: "كل تفاحا"، إذ ليس معنى هذا أنه يأمره أمرا لا محيص عنه بأن يأكل التفاح الذى يقدمه له، بل المقصود هو أن هذا تفاح، وأن بمستطاعه الأكل

منه. وقد يكون الصديق مع هذا صائما أو ممنوعا من أكله بأمر الطبيب أو ممن ينفرون منه، ومن ثم لا يمكنه أن يطعمه. ولا تثريب على أى منهما فى شىء: لا العارض الذى أمر ولا المعروض عليه الذى اعتذر. وعلى أية حال هناك طائفة من النساء طُبِعْن على الشَّكَاسَة والتمرد والمعصية، فماذا يفعل الرجل مع الواحدة من هؤلاء؟ يبين القرآن أنه ينبغى أن يبدأ بوعظها، فإذا لم تستجب فيمكنه أن يهملها فى الفِرَاش، فإذا استمرت فى الشَّكَاسة والعصيان فهل هناك ما يضمن ألا تفلت منه أعصابه فيضربها، وهو المسؤول عن البيت؟[١] لكنْ من الممكن جدا أن ترفض الزوجة ضرب زوجها لها، وهذا حقها. وفى هذه الحالة إما أن تطيعه وتنبذ أسلوب العصيان والتمرد ويعود الصفاء إلى الحياة الزوجية، وإما أن تطلب منه تسريحها بإحسان وتَخْلَع نفسها منه، ويذهب كل منهما إلى حال سبيله يجرب حظه مع شريك آخر، إذ لا يصلح أن تمضى سفينة الحياة الزوجية فى مثل هذا البحر المضطرب. قال تعالى: "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا * وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا" (النساء/ ٣٤-٣٥)، "وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا" (النساء/ ١٢٨).

أما القول بأن القرآن يوجب ضرب المرأة أو إصلاحها حسب مشيئة الرجل: " Selon le Coran, les femmes doivent être frappées, battues ou corrigées,

---

[١] فى كتابها: "الأنثى هى الأصل" (ضمن كتاب "دراسات عن المرأة والرجل فى المجتمع العربى"/ ط٢/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت/ ١٩٩٠م/ ١٩٦، ٢٣٥ وما بعدها) تورد نوال السعداوى رأى فرويد وعدد كبير من علماء النفس الغربيين فى هذا الموضوع، إذ يرون أن المرأة مازوكية بطبيعتها، أى تحب الإيلام والإذلال. وأقترح ترجمة هذا المصطلح بـ"الاستئلامية"، أى الرغبة فى الألم والبحث عنه والتلذذ به. بل إن المرأة نفسها، كما تقول السعداوى، قد تنخدع وتظن أنها تحب الإيلام والإذلال، وتقنع نفسها بذلك حتى تقتنع أو تكاد. وأنا لست ممن يعتقدون بهذه الدعوى، وإن لم يمنع ذلك من وجود طائفة من الجنس اللطيف تستعذب هذا الشعور. على أن الأمر يحتاج إلى مزيد من الدراسة المتعمقة والمتجردة من أى رأى مسبق. وهناك خلاف بين العلماء حول هذا الموضوع: فبينما يرى البعض أن المرأة مازوكية بطبعها، وتحب تعذيب نفسها فى سبيل مرضاة الآخرين كأعضاء الأسرة مثلا يرى بعض آخر أن الأمر فى حقيقته لون من التضحية والتفانى فى تأدية الواجب (انظر على سبيل المثال، لا أكثر ولا أقل، مقالا فى "النيويورك تايمز" بتاريخ ٢ ديسمبر ١٩٨٥م لجلين كولينز Glenn Collins عنوانه: " Women and Masochism: Debate Continues").

c'est au choix"، مثلما جاء فى عنوان مقال منشور على الإنترنت، فإنه غير صحيح، إذ إن صيغة الأمر فى الآية ليست للوجوب كما وضحنا، بل هى مجرد مقترحات يمكن أن يأخذ بها الزوج أو لا يأخذ، وتقبلها الزوجة أو ترفضها، حسب طبيعة كل حالة على حِدَة. كما أن قول كاتب المقال إن الإسلام ينظر إلى المرأة على أنها أدنى من الرجل بسبب "الخطيئة الأصلية" هو كلام عارٍ عن الصواب، إذ ليست فى الإسلام خطيئة أصلية أساسا على عكس الحال فى اليهودية والنصرانية، علاوة على أن الأكل من الشجرة المحرَّمة فى الجنة لا يُنْسَب فى الإسلام إلى حواء دون آدم، بل إلى الاثنين جميعا، وإن أضيف نسيان التحذير الإلهى من تذوّق الشجرة رغم ذلك إلى "آدم"، الذى يمكن أن يكون المقصود به الجنس البشرى كله لا آدم وحده. ليس ذلك فقط، بل إن القرآن لَيَنُصّ على أن ذلك الخطأ قد تمت مغفرته وانتهى الأمر إثر توبة الاثنين مما فعلا. أما أن المرأة أدنى من الرجل فالاثنان متساويان فى الإنسانية، وإن كانت لكل منهما خصائص تميزه بعض التمييز عن الآخر رغم اشتراكهما فى جنس الإنسانية. كما أن قِوَامة الأسرة، أى رئاستها، هى من حق الرجل، وإن لم يمنع أن تكون بعض النساء أقوى من الرجل شخصية، إلا أن القاعدة العامة لا ينقضها استثناء هنا أو هناك.

وعودةً إلى موضوع إمامة المرأة للرجال فى الصلاة نقول إن كل ما فعلته د. أمينة ودود فى إمامتها صلاة الجمعة المختلطة ينطلق من موقفها العام من قضية الصلة بين الرجال والنساء، وهو ما عبرت عنه فى عدد من كتبها ودراساتها ومقالاتها وحواراتها، ومنها كتابها: " Qur'an and Woman: Rereading the Sacred Text from a Woman's Perspective"[1]، الذى تدور فكرته الرئيسية على أن القرآن لم يفرق بين الذكر والأنثى فى شىء. وهى تؤكد فى هذا الصدد أنه لم يفرق بين النوعين فى أمور الخلق والبعث والحساب. وهذا مما لا يشاحّ فيه أحد، إلا أن ذلك ليس هو كل شىء فى مسألة الرجولية والنسوية، إذ القرآن نفسه قد فضل الرجال على النساء فى مسألة القِوَامة، وهو ما لا يتعارض فى شىء مع تسويته فى ذات الوقت بينهما فى أمور المسؤولية والهداية والحساب والثواب والعقاب وما إلى ذلك. وإلا فكيف نوجه قوله تعالى على لسان أم مريم حين نذرت ما فى بطنها محرَّرا لله، ثم جاء المولود أنثى، فقالت: "وليس الذكر كالأنثى" دون أن يكون هناك تعقيب على هذا الكلام بما يفيد أن الذكر كالأنثى على خلاف ما قالت؟ كما أن عدم التفرقة بين الرجال والنساء من النواحى الثلاث التى ذكرتها د. ودود لا يعنى أنهما لا يتمايزان فى المواهب والقدرات والوظائف والقيادة مثلما أن عدم التفرقة فى أمور الخلق والبعث والحساب بين العبد والحر، أو الصغير والكبير، أو الغبى والذكى، أو الشجاع والجبان، أو الفقير والغنى، أو الوسيم والقبيح،

---

[1] Oxford University Press, 1999.

أو الناشط والكسول، أو العامل والخامل، أو الملك والرعية، أو المدرس والخباز، أو العملاق والقمىء، أو ذى البسطة فى الجسم والعضل والضعيف البنيان، أو المتحرك والأشل، أو الصحيح والعليل، أو العالم والجاهل، أو اللاعب والطالب فى ذلك لا يعنى أن هناك عدم تفرقة فى المواهب والقدرات، بل وفى بعض التشريعات أحيانا: فمثلا ليس على المرأة جهاد حربى، وتسقط عنها الصلاة أيام الحيض والنفاس، ولا يصح أن تصومها، وإن كان عليها أن تقضى فيما بعد ما أفطرته، وليس عليها إنفاق على البيت، وللرجل عليها قوامة، مثلما أن العبد مثلا يعاقب بنصف عقوبة الحر فى الزنا، والساهى والناسى والمكره لا عقوبة عليهم، والجائع الذى لا يجد سبيلا إلى الكسب فيضطر إلى السرقة ليأكل لا يؤاخَذ بسرقته كما رأى عمرُ فى عام المجاعة. . .

أما تحجج ودود (ص٢٦) بأن القرآن، أثناء حديثه عن خَلْق الإنسان، لا يذكر أية وظيفة ثقافية أو غيرها لأى من طرفى المعادلة بوصفها شيئًا مقصورا عليه يميزه عن الطرف الآخر، بل يكتفى بالحديث عن ملامح إنسانية عامة لا غير، واتخاذها ذلك دليلا على أنه لا يوجد بين الرجل والمرأة أية فوراق، فهى محاولة مَقْضِىٌّ عليها بالفشل. ذلك أن القرآن ليس من عادته أنه متى تكلم فى قضية من القضايا استوفى كل تفصيلاتها فى نفس الموضع، بل كثيرا ما يتناول تلك التفاصيل فى مواضع أخرى منه. وقد تكلمنا لتونا عن بعض الفروق التى تميز كلا من الرجل والمرأة عن الآخر من واقع القرآن، وإلا فمن الذى قال إن قوامة الأسرة للرجل، والطلاق للرجل، والحرب للرجل، والرضاعة ورعاية الطفل للمرأة، ووجوب طاعة الزوج على المرأة؟ أليس هو القرآن؟ ولو أضفنا إلى القرآن أحاديث النبى عليه السلام لاتضحت الصورة أكثر، وصارت القضية أسهل معالجةً وأيسر تناولاً.

وفى مسألة الخَلْق تقف د. ودود (ص١٨– ١٩) أمام قوله جل شأنه: "ومن آياته أنْ خَلَق لكم مِنْ أنفسكم أزواجا"، متريثة إزاء كلمة "مِنْ" فى الآية، وهل تعنى أن الزوجات جزء من كُلٍّ هو الرجال فَيَكُنَّ حينئذ أقلّ من الرجال كما يقل الجزء بطبيعة الحال عن الكل؟ أم هل الزوجات مخلوقاتٌ من نفس جنس الأزواج فيَكُنَّ على قدم المساواة معهم؟ وأنا أفهم الآية على أساس أن هناك فى الأصل نفسا بشرية واحدة انقسمت قسمين: ذكرا وأنثى كما يُفْهَم من الآية الأولى فى سورة "النساء"، والآية ٩٨ فى سورة "الأنعام"، والآية ١٨٩ فى سورة "الأعراف"، والآية ٦ فى سورة "الزمر". فالقرآن، حين يتحدث عن الزوج الذى خلقه من تلك النفس الواحدة، إنما يشير إلى النوعين اللذين انقسمت إليهما النفس البشرية الأولى. والزوج فى هذا السياق هو الاثنان، أى الذكر والأنثى، أو الرجل والمرأة. والمقصود آدم وحواء.

وعلى ذلك فحين نراها (ص١٩– ٢٠) تؤكد أن القرآن لا يجعل من آدم أصل الخلق البشرى، إذ الخلق فى القرآن لا يقوم على أساس نوعى بما يعنى أن حواء لم تخلق من ضلع آدم، فلست أجد مسوغا لمخالفتها فيما تقول. فليس فى القرآن ولا فى السنة الصحيحة أن آدم قد خُلِق أولا، ثم أُخِذَتْ حواء من جسده. وإنما هذا شيء يقوله كُتّاب العهد القديم فى آخر الإصحاح الثانى من سِفْر "التكوين": "٢١فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَمَلأَ مَكَانَهَا لَحْمًا . ٢٢وَبَنَى الرَّبُّ الإِلهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. ٢٣فَقَالَ آدَمُ: «هذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنِ امْرِئٍ أُخِذَتْ»".

ويكفى أن نقرأ أن الله قد وضع مكان الضلع المأخوذ من آدم قطعة لحم حتى نعرف أنه كلام لا قيمة له، إذ أضلاع آدم موجودة كاملة فى قفصه الصدرى كما هى منذ خلها الله أول مرة لا تنقض ضلعا. ثم هل يمكن أن نقبل التفسير اللغوى الذى قدمه النص المذكور لتسمية المرأة؟ إن هذا معناه أن آدم وحواء كانا يتحدثان العربية ويعرفان كلمة "امرؤ"، ويعرفان النحو والصرف فوق البيعة وأن الاسم المؤنث تزاد من أجله تاء التأنيث على صيغة التذكير. الذى أعرفه أن أبا الأسود الدؤلى والخليل بن أحمد لم يكونا قد شرَّفا الوجود بعد. فمن يا ترى عَلَّم آدمَ آجُرُّومِيّة العربية؟

وإذا كان الشيء بالشيء يُذْكَر فقد ناقشتنى طالبة من طالباتى منذ سنتين فى مكتبى بالكلية أمام بعض زملائها وزميلاتها فى شيء قريب من هذا، وإذا بها تقول فجأة إن أضلاع المرأة تقل ضلعا عن الرجل. ثم استشهدتْ بما يقال من أن البنت ناقصةٌ ضلعًا عن الولد. فضحكتُ وقلتُ لها: كيف تقولين هذا، ووالدتك أستاذة فى كلية الطب؟ أليس يقول القرآن: "فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون"؟ وما الذى تركتِه إذن للفتيات الأخريات اللاتى لا علاقة لآبائهن ولا أمهاتهن بطب ولا تمريض؟ حين تعودين إلى البيت اسأليها عن الأمر، أو انظرى فى صورة الهيكل العظمى للإنسان فى قاموس "المورد" مثلا لتعرفى هل يختلف فى المرأة عنه فى الرجل. فما كان منها إلا أن أخرجت هاتفها المحمول واتصلت بأمها فى الحال، فجاءتها الإجابة من والدتها على الطرف الآخر من خط الاتصال يختلط فيها العتاب بالتهكم مؤكدة أن عدد أضلاع الرجل والمرأة واحد لا يتغير[١].

---

[١] تقول "الموسوعة العربية العالمية" فى مادة "ضلع": "الضلع: واحد من العظام الأربعة والعشرين التي تحيط بالصدر في جسم الإنسان. وهناك اثنا عشر ضلعًا في كل جانب من جانبي الجسم يتّصل كل واحد منها بالعمود الفقري بوساطة وصلات تسمى: الفقرات. وفي مقدمة الجسم ترتبط الأضلاع السبعة العلوية في كل جانب مباشرة بالعظمة الصدرية بوساطة مادة صلبة مطاطية تسمى: الغضاريف، وتُسَمَّى هذه الأضلاع: الأضلاع الحقيقية. أما الأضلاع الخمسة التي تحتها، وتُسَمَّى: الأضلاع الإضافية، فليست مُتصلة بعظمة الصدر بشكل مباشر. بل إن كل واحد من الأضلاع الثلاثة

وبالمثل حين تقول د . أمينة ودود (ص٢١) إن كل شىء فى الدنيا عبارة عن زوج، أى ذكر وأنثى، وإن كل طرف فى هذه الثنائية يستلزم الطرف الثانى، وإن كليهما أساسى فى هذا الأمر، وإن كان لكل منهما خصائصه التى تميزه عن الطرف الآخر، إلا أنهما يتوافقان بحيث يكونان كلا واحدا، كما أن كلا منهما لازم للآخر، حين تقول ودود ذلك يأتيها ردنا : نعم ونعام عين. نحن وأنت متفقون تماما فى هذه النقطة. لكن حين نراها تضيف قائلة: صحيح أنه ليس الذكر كالأنثى، إلا أنه لا توجد خصائص تقتصر على أى منهما حصرا، يكون ردنا هذه المرة مختلفا، إذ نحن لا نستطيع، إكراما لعيونها وخاطرها، أن ننكر الشمس فى رائعة النهار ونقول إنها غير مشرقة لا لشىء إلا لأنها هى تقول ذلك وتريد من الآخرين أن يقولوه معها . ذلك أن الواقع الذى يخزق عين كل مكابر يقول إن لكل من النوعين خصائصه البيولوجية والنفسية والعقلية التى تميز كلا منهما عن الآخر، وإن لم ننكر فى ذات الوقت أن هناك مشتركات كثيرة بينهما تبعا لاشتراكهما فى الأصل الإنسانى الواحد . بيد أن تقسيمهما إلى نوعين مختلفين يستلزم أن يتميز كل منهما ببعض الأشياء التى لا تتوفر فى نظيره. وإلا فلماذا قسمهما الله نوعين مختلفين ولم يتركهما جنسا واحدا ؟

من ثم فتخطئة ودود (ص٣٥) لما يقوله الزمخشرى، الذى يؤكد أن الرجال أفضل من النساء فى درجة الذكاء والقوة والعزم وما إلى ذلك، هى تخطئة خاطئة، إذ ليس هذا رأى الزمخشرى، بل رأى الواقع والتاريخ والتجربة الإنسانية على مدى الحقب المتطاولة رغم تسليمنا بأنه قد تشذ بعض النساء عن القاعدة العامة، إلا أن هذا هو الشذوذ الذى يثبت القاعدة ولا يهدمها . أما إذا كانت ودود تؤكد أن المشكلة هنا هو ما يترتب على هذا الموقف من القول بأن المرأة أقل إنسانية من الرجل فإننا لا نوافقها

العلوية الإضافية مُتَّصِل بالضلع الذي يعلو الغضروف. أما الضلعان اللذان يقعان في الأسفل فإنهما مُتَصلان بعظمة الظهر، ويُعْرَفان باسم "الضلعين السائبين" . وتحتوي الفراغات الموجودة بين الأضلاع، والتي تُسَمَّى: فراغات بين الأضلاع، على الشرايين والأوردة والعضلات والأعصاب. ومعظم الفقاريات، وهي الحيوانات ذات العمود الفقري، لها أضلاع، ولكن عددها يختلف بشكلٍ ملحوظ. وفي الثدييات يتراوح عدد الأضلاع ما بين ٩ أزواج، كما في بعض الحيتان، و٢٤ زوجًا، كما في الدُّب الكسلانُ الثنائي الأصابع. للأضلاع وظيفتان في الجسم، فهي تُشَكِّل قفصًا حول تجويف الصدر الذي يحمي القلب والرئتين. كما أنها تتحرك للأعلى وللأسفل مع الحجاب الحاجز للتحَكم في حركة دخول وخروج الهواء من وإلى الرئتين. فعندما تتحرك الأضلاع إلى أعلى، يتوسع التجويف الصدري، ويدخل الهواء إلى الرئتين. وعندما تتحرك إلى أسفل، يخرج الهواء من الرئتين. ويمكن أن تؤدي ضربة قوية للصدر إلى كَسْر الأضلاع. وتُسبّب الأضلاع المكسورة ألما شديدا عندما يتنفس الشخص المصاب، وتؤدي إلى حدوث ليونة عندما يتم الضغط على الجزء المصاب. ويُنْصَح باستدعاء الطبيب في حالة إصابة الصدر" .

على هذا، إذ إن تفاوت الناس ما بين ذكاء وغباء، ووسامة وقبح، وغنى وفقر، وصبر وتعجل . . . إلخ لا يعنى أن الذكى أو الوسيم أو الصبور أكثر إنسانية من غيره، بل كلهم فى الإنسانية سواء . وقد يكون الغبى مثلا عند الله أقرب وأكثر جزاء من الذكى، وقد يكون نصيبه من العطف على الفقراء والمسحوقين أعظم من نصيب الذكى، الذى قد يكون رغم ذكائه شيطانا شريرا، بل قد يستغل ذكاءه فى الشر والشيطنة كما نشاهد فى كثير من الحالات. ذلك أن التفاوت فى الإنسانية إنما يظهر فى الجانب الخلقى والذوقى والسلوكى مما يخضع لإرادة الإنسان، لا فى مجال القوة العضلية والذكاء غير المكسوبين. أما إن كان الغباء مثلا راجعا إلى كراهية صاحبه للعلم والثقافة ونفوره من بذل أى جهد لترقية عقله وزيادة معارفه وفهمه فلا شك أنه يكون فى هذه الحالة سببا فى تقهقره فى درجات الإنسانية بكل تأكيد . وهو ما لا صلة بينه وبين تفاوت الرجال والنساء فى أمور القوة والعزم وما إلى ذلك من الأمور الفطرية غير الكسبية مثلما أن تفوق المرأة فطريا على الرجل فى الصبر والرقة والجمال، أو اختصاصها دون الرجل بالحمل والرضاعة، لا يستلزم أن تكون أكثر منه إنسانية.

كذلك حين تؤكد ودود قبل ذلك (ص١٥) أنْ ليس فى القرآن ما يدل على أنه يقصر دور المرأة على الجانب البيولوجى وحده، فنحن لا نستطيع أن نخالفها . وعلى أية حال لم يقل أحد، فى حدود علمنا، بذلك. بيد أن هذا ليس معناه أنه لا توجد خلافات تشريعية بين النوعين كما تزعم هى بطول الكتاب وعرضه. فالميراث يختلف بين الرجل والمرأة فى عدد من الحالات: أحيانا لصالح الرجل، وأحيانا أخرى لصالح المرأة كما هو معروف. كما أن المهر مسؤولية الرجل لا المرأة، وهذا أيضا مما يعرفه كل أحد . وعلى نفس الشاكلة نجد أن الطلاق من حق الرجل مثلما أن الخُلْع[١] من حق المرأة. ومن حق

---

[١] يقول الشيخ السيد سابق فى "فقه السنة": "الحياة الزوجية لا تقوم إلا على السكن والمودة والرحمة وحسن المعاشرة وأداء كل من الزوجين ما عليه من حقوق. وقد يحدث أن يكره الرجل زوجته أو تكره هي زوجها . والإسلام، في هذه الحال، يوصي بالصبر والاحتمال، وينصح بعلاج ما عسى أن يكون من أسباب الكراهية. قال الله تعالى: "وعاشِروهن بالمعروف، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا" . وفي الحديث الصحيح: "لا يَفْرَكْ مؤمن مؤمنة. إن كره منها خُلُقًا رضي منها خلقا آخر". إلا أن البغض قد يتضاعف، ويشتد الشقاق، ويصعب العلاج، وينفد الصبر، ويذهب ما أسس عليه البيت من السكن والمودة والرحمة وأداء الحقوق، وتصبح الحياة الزوجية غير قابلة للإصلاح، وحينئذ يرخّص الاسلام بالعلاج الوحيد الذي لابد منه: فإن كانت الكراهية من جهة الرجل فبيده الطلاق، وهو حق من حقوقه، وله أن يستعمله في حدود ما شرع الله. وان كانت الكراهية من جهة المرأة فقد أباح لها الاسلام أن تتخلص من الزوجية بطريق الخلع بأن تعطي الزوج ما كان أخذت منه باسم الزوجية لينهي علاقته بها . وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: "ولا يحلّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئًا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله. فإن خفتم ألا يقيما حدود

الرجل كذلك أن يتزوج أكثر من امرأة بشروط، على حين لا يحق لها أن تقترن بأكثر من زوج تحت أى ظرف من الظروف. ولدى أى خلاف ينشأ بينهما فتنشز عليه نجد أن منهج العلاج فى تلك الحالة يختلف عنه فى حالة ما لو كان النشوز من الرجل على زوجته كما هو مقنن فى القرآن الكريم. صحيح أن ودود، كما سوف يتضح من خلال هذه الدراسة، تحاول أن تلوى رقاب النصوص القرآنية لتمضى فى الاتجاه الذى تريد أن تقسرها عليه. لكن هذا لا يَلْزَمنا، بل هو خطأ من جانبها علينا أن ننبهها إليه وأن نحذرها من مغبة العناد والاستمرار فى اقترافه وأن ندعوها إلى مراجعة نفسها وتصويب مواقفها. وإن استجابت فبها ونعمت، ويا دار ما دخلك شر. أما إن كانت الأخرى فذنب كل واحد على جنبه. ومن حق كل أحد أن ينام على الجنب الذى يريحه، ويوم القيامة سوف نمثل جميعا أمام الواحد الديان، فيسأل كلا منا عما صنع، ثم يجازيه حسب نيته واجتهاده، وحسب إخلاصه أو دَخَل ضميره.

وقد عادت ودود إلى الحديث فى هذا الموضوع (ص٦٣) مؤكدة أن المرأة ليست مهمتها بيولوجية فقط، وأن إعدادها الطبيعى لحمل الأطفال وولادتهم لا يعنى أن هذه هى وظيفتها الأولية، ومن ثم فتربية البنت على أن تكون فقط أما وزوجة مثالية ليست صوابا فى نظرها، ولا هى موجودة فى القرآن. ونحن معها للمرة الثانية فى أن المرأة لا تنحصر مهمتها فى الحمل والرضاعة وما إلى ذلك. لكن أليس إعداد البنت لتكون زوجة وأما مثالية أمرا مطلوبا فى ذاته بغض النظر عن أى شىء آخر، على الأقل: من باب إتقان كل شخص لما يُسْنَد إليه من عمل مثلما ينبغى أن يكون الرجل زوجا وأبا مثاليا؟ أم ترى لا بد أن تكون المرأة أما سيئة و زوجة شريرة تثير المتاعب، وتنشر النكد فى البيت، وتحول حياة زوجها وأبنائها إلى جحيم حتى تسعد أمينة ودود؟ وقد لوحظ أن أوضاع الحياة الاجتماعية لدى الكثيرات من أمثال ودود مضطربة: فهى مثلا مطلقة، وذكرت النسخة الفرنسية من موسوعة "الويكيبيديا" أنها لا ترى فى الشذوذ الجنسى ما يشين. ولدينا كذلك أسما بارلس، التى أصدرتُ عنها العام الماضى كتابا تناولتُ فيه آراءها فى المسألة الحالية كما يعكسها كتابها: "Believing Women in Islam"، وهى أستاذة جامعية باكستانية تعمل فى أمريكا، ومطلقة. وعندنا أيضا إسراء نعمانى، ولها طفل من الحرام، وتباهى بذلك. وعندنا كذلك إرشاد

الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به". وفي أخذ الزوج الفدية عدل وإنصاف، إذ إنه هو الذي أعطاها المهر، وبَذَل تكاليف الزواج والزفاف، وأنفق عليها، وهي التي قابلت هذا كله بالجحود، وطلبت الفراق. فكان من النَّصَفة أن ترد عليه ما أخذت. وإن كانت الكراهية منهما معا: فإن طلب الزوج التفريق فبيده الطلاق، وعليه تبعاته. وإن طلبت الزوجة الفرقة فبيدها الخلع، وعليها تبعاته كذلك".

مانجى، وهى فتاة بانجلاديشية الأصل سحاقية تعلن عن شذوذها وتفاخر به وتؤكد أن أمها تعطف عليها وتبارك شذوذها، وتعمل مقدمة برنامج تلفازى فى كندا يدعو إلى الشذوذ الجنسى بين الرجال والنساء. ولو أردنا استعراض حياة بعض نظيراتهن فى بلاد الإسلام لرأينا العجب: فبعضهن مطلقات، وبعضهن عوانس، وبعضهن شقيات فى زواجهن، ومعظمهن يعملن بتوجيه أجنبى. وهناك من يطلق عليهن: عجائز الفرح، إشارة إلى أنهن، وقد فشلن فى حياتهن الزوجية أو لم يقدَّر لهن زواج أصلا، يعملن على إفشال الحياة الأسرية للنساء الأخريات بدافع الحقد عليهن.

وإذا كان القرآن لا يقصر دور المرأة فى الحياة على أن تكون زوجة مخلصة وأما مثالية فإن القرآن رغم ذلك يدعو المرأة بقوة إلى أن تكون زوجة مخلصة وأما مثالية، مما يدل على الأهمية البالغة لهذا الأمر في الإسلام. يقول رب بالعزة: "وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (البقرة/ ٢٢٨)، "والوالداتُ يُرْضِعْن أولادَهن حَوْلَيْن كاملين لمن أراد أن يُتِمَّ الرَّضاعة" (البقرة/ ٢٣٣)، "وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ" (البقرة/ ٢٣٤)، "وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ" (البقرة/ ٢٤٠)، "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا" (النساء/ ٣٤)، "وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (النور/ ٣١)، "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ

وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِن اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)" (الأحزاب)، "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا" (الأحزاب/ ٥٩)، "وَاللائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ" (الطلاق/ ٤)، "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥)" (التحريم)، "ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" (التحريم/ ١١).

أما فى السنة النبوية المطهرة فنجد الأحاديث التالية: "إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرى منها إلا وجهها وكفاها"، "إياكن وكفران المنعمين! إياكن وكفران المنعمين! قالت إحداهن: نعوذ بالله يا نبي الله من كفران نعم الله. قال: بلى. إن إحداكن تطول أيمتها، ثم تغضب الغضبة فتقول: والله ما رأيت منه ساعةً خيرًا قط. وذلك كفران نعم الله، و ذلك كفران المنعمين. إياكن وكفر المنعمين! لعل إحداكن تطول أيمتها من أبويها، ثم يرزقها الله زوجها ويرزقها منه ولدا، فتغضب الغضبة فتكفر، فتقول: ما رأيت منك خيرا قط"، "رأيت النار فلم أر كاليوم منظرا قط، ورأيت أكثر أهلها النساء. قالوا: لم يا رسول الله؟ قال: بكفرهن. قيل: يكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان. لو أحسنتَ إلى

إحداهن الدهر، ثم رأت منك شيئًا قالت: ما رأيتُ منك خيرا قط"، "الدنيا كلها متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة"، "ألا أخبركم بخير ما يُكْنَز؟ المرأة الصالحة. إذا نظر إليها سَرَّتْه، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته"، "ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عز وجل خيرا له من زوجة صالحة: إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سَرَّتْه، وإن أقسم عليها أَبَرَّتْه، وإن غاب عنها نصحتْه في نفسها وماله"، "رحم الله امرأة قامت من الليل وصلت وأيقظت زوجها . فإن أبى نضحت في وجهه الماء"، "ألا إن لكم على نسائكم حقا، ولنسائكم عليكم حقا: فأما حقكم على نسائكم فلا يُوطِئْن فُرُشَكم مَنْ تكرهون، ولا يأذنَّ في بيوتكم لمن تكرهون. ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن"، "لو كنت آمرا أحدا بالسجود لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها"، "أيما امرأة اتقت ربها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها فتح لها ثمانية أبواب الجنة، قيل لها: ادخلي من حيث شئت"، "أيما امرأة سألت زوجها طلاقا في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة"، "ما من امرأة تضع ثيابها في غير بيت زوجها إلا هتكت السِّتْرَ بينها وبين ربها"، "ما من امرأة تخرج إلى المسجد فتعصف ريحها فيقبل الله منها صلاة حتى ترجع فتغتسل"، "إذا باتت المرأة مهاجرةً فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع"، "أيما امرأة باتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة"، "ثلاثة لا تُرْفَع صلاتهم فوق رؤوسهم شبرا: رجل أَمَّ قوما وهم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وأخوان متصارمان"، "ما من امرأة يطلب زوجها منها حاجة فتأبى فيبيت وهو عليها غضبان إلا باتت تلعنها الملائكة حتى تصبح"، وفى حديث آخر "أنه صلى الله عليه وسلم دخل على عائشة رضي الله عنها وعندها صبي يسيل منخراه دما . قال: ما هذا؟ قالوا إنه العذرة. فقال: ويلكن! لا تقتلن أولادكن. أيما امرأة أصاب ولدها العذرة أو وجع في رأسه فلتأخذ قسطا هنديا فلْتَحُكَّه ثم لتسعطه به. قال: فصنعت ذلك فبرأ"، وعن عائشة رضى الله عنها: "جاءتني امرأة، ومعها ابنتان لها، فسألتني فلم تجد عندي شيئًا غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها، فأخذتها فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها شيئًا، ثم قامت فخرجت وابنتاها . فدخل عليَّ النبي صلى الله عليه وسلم فحدثتُه حديثها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: من ابْتُلِيَ من البنات بشيء فأحسن إليهن كن له سترا من النار"، وقال رسول الله لبعض الصحابيات: "ما من امرأة تقدم ثلاثا من الولد تحتسبهن إلا دخلت الجنة. فقالت امرأة منهن: أو اثنان؟ قال: أو اثنان"، "أنا أول من يفتح باب الجنة، إلا أني أرى امرأة تبادرني، فأقول: مالك؟ ومن أنت؟ تقول: أنا امرأة قعدتُ على أيتام لي". وقبل أن يسارع أحد المتعجلين فيظن أن الإسلام يرهق المرأة بواجبات ليس لها ما يقابلها على زوجها،

نقول له: ما من واجب فرضه الإسلام على المرأة إلا فرض واجبا يقابله عند الرجل. لكننا هنا إنما نتكلم عن واجبات المرأة فى الإسلام، فلذلك لم نتطرق إلى واجبات الرجل.

وبالمناسبة فقد لاحظت أن ودود لا تكاد، للأسف، تستشهد بالحديث النبوى، وكأنه غير موجود، أو كأنه لا دخل له بالتشريع فى الإسلام، مكتفية بالقرآن الكريم رغم معرفتنا أن القرآن، فى كثير من الحالات، لا يتناول إلا الخطوط العامة تاركا للنبى صلى الله عليه وسلم مهمة التفصيل والشرح والتطبيق والتوضيح والإضافة والتقييد وما إلى هذا. وهى تذكّرنا فى صنيعها هذا بمن يسمون أنفسهم بـ"القرآنيين"، الذين يظن كثير من الناس أنهم يحصرون أنفسهم فى القرآن تاركين السنة النبوية المطهرة، وقد يصدّقونهم فى زعمهم أنهم فى موقفهم ذاك إنما ينبعثون من الغيرة الشديدة على كتاب الله والنفور من شَوْبه بشىء آخر حرصا منهم على نقاء مصدر العقيدة والتشريع وتقنين الأخلاق، غير متنبهين إلى أن كثيرا من أولئك القرآنيين إنما يسيرون على سياسة الخطوة خطوة، بادئين أولا بالقرآن، وفى نيتهم ضرب القرآن، ولكن فى مرحلة تالية. وما أمر أحمد صبحى منصور بالبعيد ولا بالغريب، فقد بدأ بنفس الدعوى، ثم انتهى إلى أن صار يكتب مقالات تعج بالإساءة إلى الصّدّيق والفاروق متهما إياهما فى دينهما وزاريا على أخلاقهما وناسبا سلوكهما إلى أحط البواعث والنيات[1]. وأنتظر مع الأيام أن يكشف عن أشياء أخرى فى ضميره تبين موقفه بوضوح تام من القرآن ذاته، الذى يزعم حرصه عليه وعلى نقائه وعدم خلطه بأى شىء آخر[2].

لكننا لا نستطيع أن نوافق هؤلاء الملتاثين على خطتهم المريبة، ومن ثم لا يمكن أن نهمل أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام. وكيف نهملها، وهى جزء لا يتجزأ من الإسلام ينثلم الإسلام ثلمة شنيعة إذا جُرِّد منه؟ وإذا كان كل واحد من أولئك المُسَمَّيْنَ بـ"القرآنيين" يرى لنفسه الحق فى أن يشرح القرآن

---

[1] فى كتابى: "أفكار مارقة– قراءة فى كتابات بعض العلمانيين العرب" فصلان طويلان عن أحمد صبحى منصور وقرآنيته المزعومة، وهما بعنوان "لكل مسيلمة سجاح: كلمة عن أحمد صبحى منصور"، و"القرآن وكفى مصدرا للتشريع: كلمة أخرى عن أحمد صبحى منصور"، ويشغلان عشرات الصفحات (من ص١٦٩ إلى ص١٦٤ فى طبعة مكتبة جزيرة الورد/ ٢٠١١م).

[2] من مفارقات الاصطلاح أن مصطلح "القرآنيين" يُطْلَق عند بعض الدارسين على واحد كسلامة موسى، وهو نصرانى، وإسماعيل أدهم، الذى كان ملحدا لا يؤمن لا بسنة ولا بقرآن ولا بأى شىء فى الإسلام. وسبب إدخالهما فى طائفة القرآنيين أنهما يشككان فى صحة الأحاديث، فيظن بعض الدارسين أنهم "قرآنيون"، على حين أن القرآنى هو من ينتسب إلى الإسلام لكنه يعلن إيمانه بالقرآن وحده ويكذّب بالسنة، لا مجرد من يشكك فى صحة الحديث النبوى حتى لو لم يكن مؤمنا بما جاء به محمد أصلا.

وأن يكون له أنصار وحواريون ينشرون فكره العفن فى أركان البسيطة، فكيف بالله عليكم أيها القراء يجرؤون على أن يجردوا النبى صلى الله عليه وسلم من هذا الحق؟ أتراهم يعدونه مجرد آلة تسجيل يؤدى ما يُوحَى إليه بحذافيره دون أن يكون له أى دور آخر؟ أترى هؤلاء القرآنيين يَرَوْن أنفسهم أفضل منه وأفهم لكتاب الله، أو أنهم أكثر منه إخلاصا، أو أن الله سبحانه قد كلفهم بدورٍ حرمه منه لأنه أقل منهم كفاءة، أستغفر الله؟

على كل حال ها هو ذا بعض ما قاله رسول الله فى المرأة مما له صلة بموضوعنا: فقد رأى رسول الله أنجشةَ الحَادِيَ الحبشيَّ يسوق الإبل ويغنى لها بصوته الجميل فتنشط وتسرع فتهتز الهوادج بمن فيها من النساء اهتزازا مزعجا، فأخذت الرسول الشفقة بشاغلات الهوادج وقال: "رفقًا أنجشةُ بالقوارير". وهو ما يعنى أنه صلى الله عليه وسلم يرى أن النساء قوارير هشة سهلة الكسر سريعته، ويُخْشَى عليها العطب. وهذا الكلام لم يقله الرسول قط عن الرجال. فهو إذن فرق من الفروق التى تميز النساء عن الرجال: أنهن ضعيفات المُنَّة لا يتحملن الشدة ولا الصعاب، ويحتجن إلى الرفق بهن ومراعاة رقتهن وضعفهن. فماذا تقول ودود وأمثالها فى ذلك؟ أتراهن يجرؤن على إنكار الفطرة التى فطر الله النساء عليها؟ وبناء على هذا الاعتبار نراه صلى الله عليه وسلم يؤكد أن جهاد النساء هو الحج، إذ المرأة لا تصلح لخوض غمرات القتال والتعرض لمفازعه ومفاظعه.

كما أن للرجل وظائف خاصة به كالنبوة[١] والإمامة وقوامة البيت وممارسة الحروب، بالإضافة إلى الأعمال الشاقة كقيادة القاطرات والحافلات والطائرات والبواخر والغواصات وسفن الفضاء وعربات

---

[١] النبوة مهمة رجالية كما هو معروف. وحتى لو قبلنا جدلا ما يقوله أهل الكتاب من أنه كان هناك عدد من النبيات فإنهن لم يكنَّ نبيات ذوات رسالة، بل متلقيات للوحى والإلهام ليس إلا، وهى مهمة لا تعطيهن فى هذا المجال وضعا خاصا، إذ كما قال القرآن: "وأوحينا إلى أم موسى أنْ أَرْضِعيه" فقد قال أيضا: "وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون"، فضلا عن أن عددهن بالقياس إلى عدد الأنبياء الرجال نقطة فى بحر. ومع هذا تدعى د. ودود (ص٦٥) أنه ليست هناك وظيفة تنحصر فى أحد النوعين غير الحمل والولادة بالنسبة للمرأة، غافلة عن أن هناك السعى على الأسرة، وهى فى ديننا مهمة الرجل لا المرأة. وبالمثل هناك الحرب، وهى وظيفة الرجال لا النساء. وهناك الوحى، وهو وظيفة رجالية، وإن كانت هى ترى أن النساء يتلقين الوحى كالرجال رغم أن القرآن، كما تقول، يخلو من مثال نبوى نسائى واحد، ثم تضيف أن الأنبياء والرسل على أية حال هم حالات استثنائية لا يقاس عليها، مؤكدة أن اختيار الرجال للنبوة والرسالة هو لون من الإستراتيجية لأنهم أحرى بالنجاح فى المجتمعات التى ظهروا فيها بسبب تقليلها من شأن النساء، وليس دليلا على أفضلية الرجال. إلا أن السؤال هو: وكيف حدث أن كانت كل المجتمعات ترى للرجل رجحانا على المرأة؟بل لماذا، إذا كانت المرأة تساوى الرجل فعلا فى كل شىء، قد عجزت على كل هذه الأحقاب المتطاولة الماضية عن إقناع الرجل بذلك وعن حصولها على حقها المترتب عليه، اللهم إلا أن يكون

النقل ورافعات الأثقال وما إلى ذلك، وحمل الأوزان الكبيرة التى تحتاج إلى عضلات شديدة، وإنقاذ المطمورين تحت الأنقاض فى الزلازل والبراكين أو المشرفين على الغرق فى البحار والمحيطات أو العالقين فى البنايات والغابات المشتعلة أو مطاردة المجرمين. إن كثيرا من النساء يفزعهن رؤية صرصور أو سحلية أو سام أبرص أو عنكبوت فتراهن يصرخن ويولولن وكأن الحرب الكونية الثالثة قد اشتعلت رغم أنه لا خطورة بتاتا لأى من هذه الكائنات. وإذا كنا قد رأينا، أيام الاتحاد السوفييتى، نساء سوفييتات يقدن الحافلات أو رافعات الأثقال مثلا فهو أمر شاذ لا يقاس عليه. وكنا، من النظرة الأولى إلى المرأة من هؤلاء، ندرك أن هناك خللا فى أنوثتها، وكأنها ذَكَرٌ ضَلَّ طريقَه إلى عالم الرجال. وعلى أية حال لم يستمر هذا الأمر، بل لم يستمر الاتحاد السوفييتى ذاته ومضى إلى عالم النسيان. والمرأة دائما ما تحب أن تكون فى كنف رجل، اللهم إلا إذا شذت لظروف خاصة عن بنات جنسها . ودائما ما تعبر عن حبها حتى فى الغرب، الذى قطعت فيه شوطا موغلا فى البعد فى المساواة بالرجل، من خلال تكمشها ووضعها رأسها على صدر رجلها، بينما لا يفعل الرجل ذلك معها أبدا . ومن الصعب بل من المستحيل على المرأة أن تعيش وحدها وتشعر بالأمان، بل لا بد لها من رجل يعطيها هذا الشعور، وهو ما لا يعيبها فى شىء .

ومن أحاديث المصطفى المعروفة أيضا: "لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال" . والحديث، كما هو واضح تمام الوضوح، يبين أن ثم فروقا بين الرجال والنساء لا ينبغى أن يحاول أحد طمسها أو إزالتها . وواضح كذلك خطورة هذا الأمر، وإلا ما لعن الرسول من يحاول القفز فوق هذه الحدود الفاصلة بين النوعين ليلتحق بالنوع الآخر . وهناك حديث مفصل بعض التفصيل فى ذات الموضوع يعطينا فكرة عن مدى خطورة هذا الأمر، فقد "لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم مخنثي الرجال الذي يتشبهون بالنساء، والمترجلات من النساء المتشبهات بالرجال، والمتبتلين من الرجال الذين يقولون: لا نتزوج، والمتبتلات من النساء اللائي يقلن ذلك، وراكب الفلاة وحده" . أليس معنى هذا أن هناك فروقا فاصلة بين النوعين وأن الإسلام يكره كرها شديدا من يتنكر لتك الفروق ويحاول محوها ؟ وبالمثل هناك قوله صلى الله عليه وسلم: "كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون" . أليس هذا فرقا آخر ؟ وحين يقول عليه السلام: "لو كنت آمرا أحدا بالسجود لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها"، أليس فى هذا إشارة إلى فرق آخر غير ما مر ؟

الرجال فعلا متفوقين على الجنس اللطيف ولو من الناحية العضلية وحدها، وهو ما يعطيهم رجحانا عليهن على أية حال ؟

وحين يؤكد أن النساء "يَكْفُرْن العشير"، ألا يحق لنا أن نرى فى هذا القول إشارة إلى فرق إضافى، وهو ما يعرف بـ"الزوجة النكدية"؟ لا نقصد بطبيعة الحال أن كل الزوجات نكديات، بل أن بعضهن كذلك أيا كانت النسبة التى يمثلها هذا البعض. وفى ضوء هذا نستطيع أن نتأمل قوله عليه الصلاة والسلام: "اطَّلَعْتُ في النار فرأيت أكثر أهلها النساء" سواء كان الكلام على عمومه كما يفهم معظم الناس، أم كان المقصود به النساء اللاتى يكفرن العشير ويتمردن على أزواجهن دونما سبب، ويعملن على التنكيد عليهم واجدات لذة آثمة فى ذلك دون أن يقمن اعتبارا لما يتجشمونه فى سبيل إسعادهن هن وأولادهن كما أفهم أنا الحديث مستعينا بأحاديث أخرى أرى أنها تكمله.

أما قوله عنهن إنهن "ناقصات عقل ودين" فأيا كان معنى نقصان العقل والدين الذى يقصده الرسول[١] فلا شك أنه يشكل فرقا من تلك الفروق التى تميز الرجال عن النساء. أليس كذلك؟ وحتى الآن نلاحظ أن المرأة الغربية، رغم كل ما حصلت عليه من انطلاق ومساواة بالرجل، لا تزال متأخرة عن الرجل فى كثير من الميادين كإجراء العمليات الجراحية مثلا والاكتشافات العلمية والتطبيقات التقنية بوجه عام. كما أنها تتقهقر عن الرجل فى مجال الفكر الفلسفى والرياضى. بل يلاحظ أن المرأة لا تستطيع مسامتة الرجل حتى فى الميادين التى ترتبط بها أقوى الارتباط: فاختراع أطباق طعام جديدة هو إنجاز رجالى فى المقام الأول. والطِّباخة وإعداد الموائد فى الفنادق وما يشبهها يقوم بها الرجال. وكثير جدا من محلات الكوافير، إن لم يكن أغلبها، يديرها الرجال. علاوة على أن صناعة الأزياء وأدوات التجميل من اختصاصهم بالدرجة الأولى على الأقل.

وعلى العكس من ذلك لا يمكنهم الحمل والولادة والرضاعة، إذ إن ذلك كله تخصص نسائى بمشيئة إلهية لا مدخل للبشر فيها بتاتا. كما أن رعاية الأطفال الصغار لا يحسنها أحد كالنساء. أما قول ودود (ص٢١– ٢٢) إن القرآن، رغم حديثه عن الحمل باعتباره وظيفة المرأة، لم يحدث أن تكلم عن رعاية الطفل بعد الولادة على أنه مهمة خاصة بالمرأة، فردنا عليه أن الإسلام ليس قرآنا فقط، وأن فى الحديث شيئا كثيرا مما تنكره ودود. وأيا ما يكن الأمر فالرضاعة جزء من هذه الرعاية، فهل ترى أنه ينبغى أن يقوم بها الرجل؟ ولكن كيف، والرجل ليس له أثداء، ولا يدر لبنا؟ والله إن منطق د. ودود لعجيب. وما قولها فى حديث الرسول عمن تَضْرِب عن الزواج بعد ترملها لتربى أطفالها وما

---

[١] سألت امرأة عبد الله بن مسعود رسول الله عن معنى نقصان العقل والدين عند النساء، فأجابها قائلا: "أما ما ذكرتُ من نقصان دينكن فالحيضة التي تصيبكن. تمكث إحداكن ما شاء الله أن تمكث لا تصلي ولا تصوم. فذَلِكُنَّ من نقصان دينكن. وأما ما ذكرت من نقصان عقولكن فشهادتكن. إنما شهادة المرأة نصف شهادة الرجل".

ينتظرها من أجر عظيم على ذلك، وهو ما لم يقله عن الرجل؟ فما معنى ذلك يا ترى؟ قد يقال: لكن القرآن تحدث عن الاسترضاع، أى استئجار مرضعة تطعم الطفل من لبنها وترعاه بحنانها . وتعليقنا على هذا القول هو: أليست الرضاعة والرعاية فى هذه الحالة ستقوم بها امرأة أيضا ؟ فهو إذن عمل نسائى تقوم به المرأة لا الرجل. وليست العبرة أن تؤدى الزوجة المهمة بنفسها، بل العبرة أن من تؤديها هى واحدة من أفراد الجنس اللطيف. وهو ما تحاول د . أمينة ودود التعمية عليه، ولكن هيهات ثم هيهات. فصوت الواقع لا يمكن تجاهله ولا إخراسه مهما حاولت ذلك ودود أو مليون واحدة كودود ! كما أن الطفل الذى ترضعه أمه وتعتنى به بنفسها ينمو صحيحا خاليا من المتاعب والمشاكل النفسية مما يعرفه كل أحد .

ثم إن الفتنة شأن نسائى فى أصله وجوهره. ومن هنا نفهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "ما تركتُ بعدي في الناس فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء" . والحق أن كلامه هذا لا يقتصر على البَعْديّة فقط بل يشمل القَبْلِيَّة والآنِيَّة أيضا ، إلا أن هذه هى طريقة اللغة البشرية، وهى تذكرنا بما يصف الله سبحانه به نفسه فى كثير من الآيات القرآنية فيقول مثلا: "وكان الله غفورا رحيما"، مع أنه عز وجل لم يكن غفورا رحيما فى الماضى فقط، بل لا يزال وسيظل غفورا رحيما . ولكنها، كما قلنا، طريقة اللغة البشرية فى التعبير.

وتقول ودود أيضا (ص٤٠) إن القرآن، فى كلامه عن ملكة سبإ، لم يشر إلى أن المرأة لا تصلح أن تكون حاكمة للدولة، بل بالعكس نراه قد احتفل بسلوكها السياسى والدينى. هذا ما قالته د. ودود، ولكن أين نجد ذلك فى القرآن يا ترى؟ فأما بالنسبة إلى سلوك بلقيس الدينى فقد نص القرآن على أنها وثنية تعبد الشمس ولا تسجد لله، ولم تهتد إلى الإيمان به سبحانه إلا بعد اللَّتَيَّا والتى، وعلى يد رجل هو سليمان عليه السلام، وبعدما عاينت من قوته ومقدرته ما عاينت، وتبين لها أنه لا محيص لها عن ذلك. وأما سلوكها السياسى فكان يساعدها مجلس من الرجال هو "الملأ" . وإذا كان القرآن لم ينكر عليها توليها الملك فإنه من الناحية الأخرى لم يبارك هذا الأمر، مكتفيا بقص حكايتها كما وقعت. ثم ماذا نفعل فى أحاديث الرسول وفى تصرفاته السياسة، وهو لم يختر امرأة لحكم ولاية، فضلا عن حكم الدولة كلها ؟ ثم إن ودود قد تجاهلت حكم الملكة على نفسها ضمن حكمها على الملوك بوجه عام حين قالت: "إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة. وكذلك يفعلون"، مما يشير إلى فهمها للملكية، وهو ما يضرب فى الصميم ما قالته ودود عن تلك الملكة واستقامة حكمها .

وثم ملاحظة لغوية هامة لا بد أن أسوقها هنا لأنها تدلنا على مبلغ معرفة ودود للغة العربية، إذ تقول إن واحدا من البشر هو الذى قال عن بلقيس إنها ملكة وليس القرآن، مستعملة له كلمة "who"، التى تدل على أن المقصود به رجل، متجاهلة أن الذى قال ذلك ليس بشرا حتى نستعمل له كلمة "who"، بل هدهدا، وكان ينبغى استعمال كلمة "which" له. ترى هل هى تجرى على فهم القاديانيين، الذى يَرَوْن أن الهدهد كان ضابطا فى جيش سليمان وليس هو الهدهد المعروف؟ كما أن كلمة "حتى تَشْهَدُونِ" فى قول الملكة اليمنية لملئها: "ما كنتُ قاطعةً أمرا حتى تَشْهَدونِ" لا تعنى "حتى تنصحونى" كما فسرتها ودود، بل تعنى: لا أستطيع أن أقطع بأمر فى غيابكم.

ثم هل معنى قول بلقيس (ص٤١): "وأُوتِينا العِلْم مِنْ قَبْلها وكنا مسلمين" أنها كانت مسلمة لله قبل لقاء سليمان كما تقول ودود؟ فأين نجد ذلك فى القرآن؟ وكيف يمكن القول بهذا، وقد كانت بلقيس تعبد الشمس من دون الله، وكانت ترى أن سليمان، لكونه ملكا، إذا دخل قرية أفسدها وجعل أعزة أهلها أذلة؟ من هنا كان المقصود بقولها: "وكنا مسلمين" أنها سَلَّمَتْ بتفوق سليمان وقدرته على هَزْمها هى ودولتها فلم تحاول الوقوف فى وجهه، بل أسلمت، أى أطاعت وانقادت. وهو ما ينبغى أن نفسر به هذه الكلمة فى حديث سليمان فى المرات الأربع التى استعملها فيها، فهو مثلا قد قال: "قبل أن يأتونى مسلمين"، إذ حين أتته لم تأته مسلمة بدليل قوله تعالى عنها بعدما شاهدت عجيبة الصَّرْح الممرَّد فلم تسارع إلى الإيمان مع سليمان: "وصَدَّها ما كانت تعبد من دون الله. إنها كانت من قوم كافرين". أما تكملة ودود قوله تعالى: "وكنا مسلمين (لله سبحانه)"، أى دخلنا فى الإسلام، وهو ما أكدته فى آخر الصفحة، فهو إضافة من عندها أو من عند المترجم الذى اعتمدته لا دليل على صحتها، بل العكس هو الصحيح بدليل قول القرآن عقب ذلك كما سبق بيانه آنفا: "وصدها ما كانت تعبد من دون الله. إنها كانت من قوم كافرين". وهذا يذكّرنا على نحو ما بما قاله القرآن للأعراب: "لا تقولوا: آمَنَّا، وقولوا: أسلمنا. ولَمَّا يدخل الإيمان فى قلوبكم". أما استعمال بلقيس كلمة "أسلم" بالمعنى الإيمانى ففى قولها فى نهاية القصة: "وأسلمتُ مع سليمانَ لله رب العالمين".

ومما آخذه على الكاتبة أشد المؤاخذة قولها (ص٥٢) إن صورة الجنة فى القرآن بالأنهار التى تجرى من تحتها إنما روعى فيها عربى القرن السابع الميلادى، الذى كان يعيش فى جزيرته الحارة القاحلة. وهذا كلام معناه أن وجود الجنة هو وجود اعتبارى. لكن بافتراض صحة هذا التفسير، وهو غير صحيح كما سوف نبين توا، هل العرب وحدهم هم الذين يعيشون فى بيئة حارة قاحلة؟ بكل يقين البيئات الحارة القاحلة فى الدنيا كثيرة. ثم هل العطش لا يصيب إلا من يعيشون فى مثل تلك البيئة؟ ألا

يعطش الإنجليزى؟ بل ألا يعطش الإسكيمو أنفسهم؟ ألا يحب كل هؤلاء عندئذ أن يشربوا الماء الزلال البارد؟ وهل هناك من يكره منظر الأنهار الجارية حتى لو لم يكن ظمآن؟ أين ذلك الإنسان؟ ألا يفتخر الإنجليزى مثلا، الذى يعيش فى بيئة باردة، بنهر التيمز، والفرنسى بنهر السين، والألمانى بنهر الراين، والروسى بنهر الفولجا، وينظمون فى حبهم لأنهارهم الأشعار؟ هل يمكن مصريا ألا يحب النيل؟ هل يمكننا نحن المصريين مثلا أن ننسى قصيدة أمير الشعراء أو قصيدة محمود حسن إسماعيل أو أغنية محمد عبد الوهاب أو أغنية عبد الحليم حافظ أو أغنية نجاة الصغيرة عن النهر العظيم؟

نعم هل هناك أمة تنفر من الأنهار العذبة أو الطعام الشهى أو الشراب اللذيذ أو الحور الفاتنات أو الظلال الوارفة الباردة أو الفواكه الحلوة أو اللحوم الغريضة أو السلام الشامل أو الحب المتبادَل العميم؟ إن الأمم المحرومة من ذلك لتتطلع إليه بكل شغف، وإن الأمم التى تتمرغ فيه لتكره أن تفارقه أو تحرم منه. ثم لو كان هذا الكلام صحيحا ما رأينا أحدا من غير العرب يُسْلِم ويتوق إلى الجنة على أساس أنه لا يجد نفسه ولا تطلعاته وأشواقه فى لذائذ الفردوس ونعيمها. لكننا ننظر فنجد أن شعوبا كثيرة جدا فى تواريخ مختلفة وأماكن مختلفة وثقافات مختلفة قد دخلت الإسلام وحفظت القرآن وأحبته وغالت به وتأثرت بكلامه عن الجنة. صحيح أن ودود قد تراجعت بعض التراجع فى نهاية الصفحة، لكنه لم يكن تراجعا واضحا أو حاسما، إذ جعلت القِيَم الإسلامية قيما خالدة، لكن طريقة التعبير عن تلك القيم والأسلوب الذى يتم تصويرها به، كما تقول، لا يناسب إلا البيئة العربية فى ذلك الوقت. ومن هنا نراها (ص٥٢) تقترح على قراء القرآن فى كل عصر ومصر أن يحددوا ما يناسبهم من طريقة التعبير القرآنى عن ملذات الجنة. وبدون هذين الاعتبارين سوف يضيّق القراء أوصاف الجنة إلى معناها الحرفى رغم أنها مجرد تعبير مجازى عن لذائذ الجنة حسب قولها.

وهذا الاقتراح الأخير يعكس جهلها بالإسلام، فقد أكد القرآن أن لذائذ الجنة شىء ليس للإنسان هنا به عهد، إذ هى خلق جديد، والمهم أن الجنة تشتمل على كل ما تشتهيه النفس وتلذه الأعين. كما أوضح الرسول فى الأحاديث التى تناول فيها هذا الموضوع أن الأوضاع فى الجنة ستكون مختلفة عن نظيراتها فى الدنيا. ثم هل تكره ودود شيئا من لذات الجنة؟ إذن فهى ليست إنسانة طبيعية. أم تراها تظن أنها لا يمكن أن تكون من الحور العين، فهى تكره الأمر لهذا السبب؟ لكن يا د. ودود، ألم تقرئى قوله تعالى فى وصف الحور العين بأنهن سَيَكُنَّ "عُرُبًا أترابا" كما تقول الآية السابعة والثلاثون من سورة "الواقعة"؟ ألا تعرفين الحديث الشريف الذى داعب فيه الرسول إحدى الصحابيات الكريمات قائلا لها حين التمست منه صلى الله عليه وسلم أن يدعو لها بدخول الجنة: "لا يدخل الجنة

عجوز"، فولَّتْ وهى تبكى، فاستدعاها وضاحكها وأفهمها أن جميع نساء الجنة سيكن شابات نضرات، وأنه لا مكان فيها للعجائز من أمثالها لأنها سترتد فتاة جميلة فاتنة. فأخلصى، يا د. أمينة، عقلك لله وللإسلام الحقيقى لا الإسلام الذى تخطط أمريكا ليحل محل إسلام محمد، وأبشرى أنك ستكونين بمشيئة الله من العُرُب الأتراب. إن د. ودود تبدى نفورها من مفهوم المتعة الجنسية ومتع الطعام والشراب. ولست مستطيعا أبد الدهر أن أفهم سر هذا التَّنَوُّق، وأخشى أن يكون دليلا على كراهية الصراحة أو على التواء الضمير. أم ترانا ينبغى أن نفسر هذا فى ضوء ما جاء فى ترجمتها بـ"الويكبيديا" الفرنسية من أنها تتقبل الشذوذ الجنسى ولا ترى به بأسا؟

وبالمثل نراها (ص٥٤) تؤكد أن الكلام عن الحور العين ليس سوى انعكاس لذوق القرشيين فى الفترة المكية، أو ذوق العربى الجاهلى عموما. أما فى الفترة المدنية فيستخدم القرآن كلمة "أزواج". وكأن أهل المدينة أرقى من المكيين. وهذا كلام غريب، ومسىء للصحابة الأوائل العظام من أمثال أبى بكر وعلى وعثمان وعمر وغيرهم من أهل مكة. من الواضح أن د. ودود لا تدرك مرامى كلامها، فتراها تلقى بالكلمات كأنها الجنادل والجلاميد، متابعة فى ذلك متاعيس المستشرقين والمبشرين، وهو ما لا أدرى كيف يكون، إذ المفروض أنها تركت النصرانية بمحض إرادتها وتمردت على الأوساط الاستشراقية، فكيف تظل متأثرة بسخافاتهم وتفاهاتهم؟ كذلك فإن هذا الكلام يتعارض أشد التعارض مع مسارعة كثيرات من "النساء" المكيات إلى اعتناق الإسلام، وعلى رأسهن أم المؤمنين السيدة خديجة رضى الله عنها وأرضاها، وإلا فكيف نعلل هذا فى ضوء ما تهرف به ودود عن الحور العين وأن المقصود به مراعاة الذوق السائد لدى "الرجال" القرشيين؟ على أن لفظ "أزواج" الذى تدعى ودود أنه هو اللفظ الذى حل فى المدينة محل "الحور العين"، وأنه لا وجود له فى القرآن المكى، قد استعمل عدة مرات فى الفترة المكية. فما قولها فى ذلك الكلام الذى ألقت به دون تحقيق أو تدقيق أو توثيق؟ ثم هل المكيون هم وحدهم الذين كانوا مشغوفين بالحور العين؟ الواقع أن الناس جميعا تعشق العيون الواسعة الناصعة اللون، فضلا عن أن طريقة وصف القرآن للحور العين تأسر قلوب جميع البشر لا المكيين وحدهم. ترى ألا يفتتن الأوربى بالمرأة الحوراء العيناء؟ ألا يفتتن اليابانى بها؟ ألا يفتتن الأفريقى بها؟ ألا يفتتن الأمريكى بها؟ ألا يفتتن الأسترالى بها؟ ألا يفتتن رجال الإسكيمو بها؟ أما قولها (ص٥٥) إن القرآن قد عرف محدودية هذا الوصف فغيره فى المدينة إلى "أزواج" فمعناه أن المكيين وحدهم دون البشر جميعا، أو دون العرب على الأقل، هم المشغوفون بالحور العين، أو كأن أهل المدينة لم يكونوا عربا، فراعى القرآن ذلك فى الوحى المدنى. وهى نتائج تدل على سخف منطق د. ودود! وأخيرا فإنها

(ص٤٥، ٥٧ مثلا) تخطئ فى كتابتها للكلمة فتجعلها "حُور العَيْن" بالإضافة، مما يدل على ضعفها فى اللغة العربية رغم دراستها فى مصر فى الجامعة الأمريكية والأزهرية وجامعة القاهرة.

والعجيب أنها بعدما فسرت "الأزواج" بأنهن "النساء" فى قولها إن هذه الكلمة قد حلت فى المدينة محل "الحور العين"، تعود (ص٥٦– ٥٧) فتفسرها فى قوله: "رَبَّنا وأَدْخِلْهم (أى المؤمنين[١]) جناتِ عَدْنٍ التى وَعَدْتَهم ومَنْ صَلَح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم" بأنهم كل من تشابه معهم فى الطبيعة والأعمال والإيمان. وهذا تفسير متعسف، فالإنسان إنما يهتم بأسرته من آباء وأزواج وذرية، ومن ثم يحرص على أن يكونوا معه فى الجنة، علاوة على أن مشاكلة الكلمة مع "الآباء" و"الذرية" تستدعى أن يكون "الأزواج" هن "الزوجات"[٢] لا ما تزعمه ودود. وأغلب الظن أن هؤلاء "الأزواج" هن الحور العين بعد أن يصيرهن الله شَوَابَّ نضراتٍ. كما أنه من غير المقبول القول بأن المقصود بقوله تعالى عن الرجال المؤمنين فى الجنة: "هم وأزواجهم فى ظلالٍ على الأرائك متكئين" أن الرجل سوف يتكئ مع نظيره على أريكة فى ظلال الجنة. ترى ماذا يسوى رجلان فى مثل هذا الوضع وتلك الظروف؟

ولكى أحسم هذا الجدال حسما قاطعا لا يبقى بعده مجال للأخذ والرد هأنذا أورد كل الآيات التى تُذْكَر فيها كلمة "أزواج" مضافة كما هو حالها فى الآيات الخاصة بالجنة ونعيمها لنرى طريقة القرآن الأسلوبية فى استعمال تلك الكلمة بوضعها هذا. ولسوف يرى القارئ بنفسه أنها فى كل تلك المواضع لا يمكن أن يكون لها من معنى إلا "الزوجات": "وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ" (البقرة/ ٢٣٢). "وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا

---

[١] يقول الله تعالى فى سورة "الرعد": "إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَاب (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاق (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَاب (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّار (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَاب (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّار (٢٤)". ويقول فى سورة "غافر": "الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيم (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)". وفى سورة "الطور": "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١)".

[٢] كلمة "زوج" تستعمل فى اللغة العربية االقديمة للرجل والمرأة على السواء، لكننى هنا قد جريت على الأسلوب الحديث فى التفرقة بالتاء بين "الزوج" (الرجل)، و"الزوجة" (المرأة).

وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ" (البقرة/ ٢٤٠). "وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ" (النساء/ ١٢). "وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا" (الأنعام/ ١٣٩). "قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ" (التوبة/ ٢٤). "وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً" (النحل/ ٧٢). "وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦)" (المؤمنون). "وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ" (النور/ ٦). "وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا" (الفرقان/ ٧٤). "أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦)" (الشعراء). "مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ" (الأحزاب/ ٥). "النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ" (الأحزاب/ ٦). "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً" (الأحزاب/ ٢٨). "فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا" (الأحزاب/ ٣٧). "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ . . . وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ" (الأحزاب/ ٥٠). "وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا" (الأحزاب/ ٥٣). "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ" (الأحزاب/ ٥٩). "وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ" (الممتحنة/ ١١). "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (التغابن/ ١٤). "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) . . . وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣)" (التحريم). "وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠)" (المعارج).

وبهذا يتبين أن ما قالته ودود فى تفسير تلك الكلمة هو كلام لا رأس له ولا ذيل رغم تشدقها بالهرمنيوطيقا وتباهيها بأنها قد استعملتها فى تفسير آيات القرآن الخاصة بالمرأة. وهو تباهٍ ماسخٌ وحذلقة فارغة لا تؤدى إلى صواب أو صلاح. وفات د . ودود أنْ ليست العبرة فى استعمال منهج نقدى جديد، بل العبرة كل العبرة فى إخلاص الباحث للحقيقة وموضوعيته وسعة ثقافته ومرونة عقله وذكائه واستقلال شخصيته. أما تطبيق المناهج النقدية الجديدة تطبيقا آليا أو متعسفا فهذا لا يقود أبدا إلى خير. والواقع أن هذا هو حال أمينة ودود فى بحثها هذا، إذ هى تنطلق من العناد والرغبة العارمة فى إثبات صحة فكرة دخلت بها بحثها جاهزة. وهذا ليس من العلم ولا من المنهج العلمى فى شىء .

ولو كانت ودود تريد تفسير القرآن فيما يتعلق بهذه النقطة تفسيرا سليما لوقفت أمام الآيات التى تتحدث عن آدم وحواء، أو الرجل والمرأة عموما، لتقرأ ما بين السطور: لنقرأ أولا الآيات التالية، وهى مجرد أمثلة على ما أريد أن أقول، وإلا فهناك آيات أخرى مشابهة: قال تعالى فى سورة "البقرة" مشيرا إلى ما دار بين الله والملائكة حين أخبرهم بأنه سوف يجعل فى الأرض خليفة، فذكروا أن هذا الخليفة سيفسد فى الأرض ويسفك الدماء، فى الوقت الذى لا يكفّون هم عن تقديس الله وتسبيحه، فكان جوابه سبحانه وتعالى عليهم أنه يعلم ما لا يعلمون: "وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)" .

ولا شك أن القارئ قد لاحظ احتلال آدم لمركز القصة كلها: إما وحده دون منازع، وإما مع حواء، التى تأتى تابعة له. وسوف أريح د . ودود وأقول إنه من المحتمل أن يكون آدم فى بداية القصة حين دار الحوار بين الله عز وجل وملائكته هو الجنس البشرى لا آدم الذَّكَر. ولكن لا يمكن أن تمر العين مرور الكرام أمام توجيه الخطاب لآدم دون حواء فى قوله تعالى: "وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ" . أو فى قوله عز من قائل فى سورة "طه"، والكلام فيه عن الشيطان: "فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ

لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى (١٢٠) فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١)" . ولا ريب أن هذا معناه أن آدم هو الأساس، وأن حواء تابعة له، وإلا لوجّه الله والشيطانُ الخطابَ فى كل مرة إليهما معا . ولا يصح أن تتعلل د . ودود بأن السياق الاجتماعى آنذاك هو المسؤول عن تلك التراتبية، فقد كان آدم وحواء لا يزالان فى الجنة لم ينزلا إلى الأرض، ومن ثم لم يكن هناك سياق اجتماعى، إذ كانا يعيشان فى المطلق.

ومثلها تلك الآيات التى تتناول نعيم الجنة الأخروية حيث لا توجد هناك أيضا سياقات اجتماعية ولا يحزنون، كما هو الحال مثلا فى النصوص التالية: "إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦)" (سورة "يس") . "وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣)" (سورة "ص") . "ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ" (الزخرف/ ٧٠) . "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)" (سورة "الطور") . "وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨)" (سورة "الواقعة") . إن ألوان النعيم الأخروى ليست حكرا للرجال فقط، فضلا عن أن المتعة الحاصلة من الحور العين لا تخص الرجال وحدهم بل تشركهم فيها بطبيعة الحال الحور العين أنفسهن، إذ لا يمكن لهذه المتعة أن تتم إلا بالتقاء الطرفين. ومع هذا فالملاحظ أن الخطاب الإلهى فى الآيات السابقة وكل الآيات التى تشبهها لا يوجه إلا للرجال. فما معنى هذا هرمنيوطيقيا يا د . أمينة ودود ؟ عندنا مثل يقول: "من لا يستطيع أن يرى من الغربال فهو أعمى" . والأمر هنا أوسع من خروق الغربال كثيرا .

بل إنه فى الآيات الخاصة بالزواج والطلاق والإيلاء وما إلى ذلك من الأمور الأرضية التى يوجه فيها القرآن الكلام للرجال أرى أنه لا يصح التعلل بالسياق الاجتماعى. لماذا ؟ لأن الإسلام قد أتى لتحطيم هذا السياق برسالته الكونية الشاملة التى تعلو فوق السياقات وتتغيا تغييرها بل تحطيمها متى ما وقفت عقبة كأداء فى طريق الإصلاح الذى ينشده. وإلا فكيف نفسر حملته على وأد البنات

الصغيرات؟ وكيف نفسر مثلا قول الرسول للصحابى الذى سأله: أى الناس أحق بصحبتى يا رسول الله؟ فكان الجواب ثلاث مرات متتابعات: "أمك"، ثم فى المرة الرابعة الوحيدة: "أبوك"؟ وكيف نفسر نهيه عليه الصلاة والسلام عن تزويج البكر أو الثيب بغير رضاهما؟ وكيف نفسر تحذيره للرجال من ضرب النساء؟ وكيف نفسر قوله: خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى؟ وكيف نفسر نصيحته للرجال بالصبر على النساء والتعامل بواقعية مع طبائعهن؟ وكيف نفسر إلحاحه على الرفق بهن ووجوب معاملتهن بنبلٍ حتى وهو يجود بنفسه الأخير؟ ولقد كان بمكنة القرآن فى الآيات الخاصة بالزواج والطلاق والإيلاء وما يشبهها والتى يوجه فيها القرآن الكلام للرجال أن يوجه الخطاب للطرفين معا، وبخاصة أن الأمر لا يخص الرجل وحده بل يهمه هو والمرأة جميعا، فكان يستطيع أن يقول مثلا ولو على سبيل التأكيد لإبراز أهمية المسألة التى يتناولها: "ولا تَقْرَبوهن حتى يَطْهُرْن، ولا تَدَعْنهم يَقْرَبونكن حتى تَطْهُرن"، أو "وإذا طلقكن أزواجكن فبلغتن أجلكن فلا جناح عليهم أن يمسكوكن بمعروف أو يسرّحوكن بمعروف" . . . إلخ. فما معنى ألا يفعل القرآن ذلك فى أية مرة تناول فيها مثل هذه الموضوعات؟ ولماذا لم يقل القرآن، ما دامت المرأة فى الجاهلية قد كانت تطلّق الرجل عن طريق تحويل اتجاه باب خيمتها كما ذكرت ودود: "فإذا طلقتن الرجال. . ."؟ ألا ينبغى أن تستنتج الهرمنيوطيقا شيئًا من ذلك كله؟ ألا بئست الهرمنيوطيقا إذا كانت ذات عقل ثخين كهذا العقل!

وعَوْدًا إلى ما كنا بسبيله نقول إن د. ودود ترفض تفسير كلمة "أزواج" بالحور العين على أساس أنه لا يليق أن يكون للرجل التقى فى الدنيا نساء فاتنات فى الجنة، وهو الذى كان يضبط نفسه وشهواته على الأرض، ناسية أنه بهذه الطريقة ينبغى أن يعاب بنفس الطريقة الشخص التقى الذى كان يكثر من الصوم فى الدنيا أما فى الجنة فيأكل ويشرب كل ما تشتهيه نفسه. ومن قال إن المسلم التقىّ عليه أن يهجر شهوة الجنس فى الدنيا؟ بل ماذا فى الجنس مما يبعث على الاشمئزاز؟ فلماذا تزوجتِ يا دكتورة ودود وأنجبت خمسة أولاد؟ أكنت طوال الوقت مبغضة للزواج، ونحن لا ندرى؟ ليس هذا عندنا فى الإسلام الذى أتانا به القرآن المجيد وحديث سيدنا رسول الله. لقد أعلنها الرسول قوية مجلجلة حين أكد أن المسلم ينال حسنة بمعاشرته لزوجته مثلما يرتكب الزانى خطيئة باقترافه الفاحشة. فماذا تريد ودود أكثر من هذا كى تقلع عن هذه التماحيك؟ ثم هل استعمل القرآن كلمة "أزواج" فى الدنيا للبشر بالمعنى الذى تقوله ودود؟ لا. فاستعمال هذه الكلمة فى دنيا البشر يعنى دائما امرأة الرجل أو رجل المرأة أو الاثنين كليهما. ذلك أن الزوج يعنى النصف الذى يكمل مع النصف الأول كلا واحدا متكاملا، أو الكل الواحد المتكامل بنصفيه الاثنين. ثم إن الجنس، كما قلنا، ليس معيبا فى الإسلام إلا فى الزنا أو

فى الانشغال به عن أداء الواجب، أما حين يخلو من هذا وذاك فأهلا به ومرحبا . وفى الجنة لا توجد واجبات أصلا حتى يتعلل بها المتعللون والمتعللات فى نظرتهم إلى الجنس بمنظار التأفف الكاذب. والغريب أن يأتى مثل هذا التأفف ممن يعيشون فى الغرب، وفى أمريكا على وجه الخصوص، حيث الإباحية الجنسية على أشدها، وحيث تحليل الشذوذ وانتشار آلات الجنس وبيوت الدعارة وعدم الإصاخة إلى الحلال والحرام والنفور من التعفف والانضباط هو سيد الموقف. وماذا بالله فى التنعم بالحور العين فى الجنة؟ نعم، ماذا فيه من عيب؟ ثم إن كل شىء فى الجنة سيكون صافيا نقيا خالصا مما يعيبه فى الدنيا، حيث لا شىء هنا صافٍ تمام الصفاء، بل لا بد أن يكون فيه ما يؤخذ عليه مهما كانت درجة حلاوته وجماله.

إن د. ودود تزعم أن هناك فرقا بين وصف الجنة فى مكة يختلف عن وصفها فى المدينة لاعتبارات اجتماعية، ناسية أنه لا تناقض بين الصورتين بل تكامل. ومن ثم ينحل الإشكال الذى تريد أن تسوّقه لنا . فمثلا الحور العين، فيما أفهم، هن أنفسهن أزواج المؤمنين. ولما تقرَّر مفهوم "الحور العين" فى الأذهان اقتصر الكلام على "الأزواج" فى العهد المدنى بعدما غبر وقت كانت كلمة "أزواج" تستخدم مع "الحور العين" فى مكة قبل الهجرة. ثم هل فى القرآن أو فى الحديث أو فى كلام الصحابة أو فى منطق العقل أن الوصف الأول للجنة قد أُلْغِىَ لانتفاء بواعثه؟ أبدا، فما زلنا نؤمن أن الحور العين جزء من لذائذ الجنة وأنهن سَيَكُنّ أزواج المؤمنين. وعلى كلٍّ هل هناك تناقض بين أن يكنّ حورا عينا وأن يكن أزواجا للمؤمنين؟

أما القرب من الله سبحانه والسلام والرضوان فى الجنة وغير ذلك من اللذائذ المعنوية فلم يتأخر الحديث عنه حتى العهد المدنى كما تريد ودود إيهامنا . وها هى ذى نصوص مكية تتحدث عن تلك المتع الفردوسية: "لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (الأنعام/ ١٢٧) . "وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ" (يونس/ ٢) . "وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥) للذين أحسنوا الحسنى وزيادة" (يونس) . "مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ" (سبأ/ ٣٧) . "وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤)" (الزمر) . "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ" (الشورى/ ٢٢) . "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا

الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦)" (الدخان) . "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥)" (القمر) . "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)" (القيامة) . "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨)" (البينة) .

إن د. ودود تحصر الجنة فى انتفاء الحاجات والرغبات وفى السلام والارتفاع على المحدوديات الأرضية والقرب من الله سبحانه (ص٥٧– ٥٨) . فأين الطعام والشراب؟ وأين الغُرَف؟ وأين الخلود؟ وأين الظلال والأنهار؟ وأين ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين؟ أنا لا أدرى لماذا يصر بعض الناس على الظهور بمظهر المتأفف والرغبة فى إيهام الآخرين بأنهم من طينة أرقى! يا د. ودود، لسوف تكون الجنة بنص القرآن والحديث مملوءة بكل ما تشتهيه النفوس وتَلَذّه العيون، فلماذا تصرين على تجاهل هذا بل إنكاره؟ هل نزل عليكِ وحى من الله يقول لك إن ما ورد فى القرآن والسنة عن هذا الموضوع هو كلام للاستهلاك المحلى لا حقيقة له؟ فلماذا تدسين أنفك فيما لا تعرفين عنه شيئًا؟

أذكر أننى قرأت ذات مرة أن توفيق الحكيم تخَيَّل العقاد وقد دخل الجنة، وكان العقاد معروفا بأنه مُولَع أشد الوَلَع بالقراءة، فما كان منه أول شىء إلا أن شرع يدور فى أرجاء الجنة باحثا عن مكتبات يشترى أو يستعير منها الكتب. فلما لم يجد كتبا ولا مكتبات قال فى حسرة: "جنة بدون كتب؟"، ثم خرج. ومنذ عدة عقود كنت أتحدث مع طلابى عن الجنة، وكان ابنى لا يزال طفلا صغيرا فى الحضانة، فقلت لهم إن ابنى الصغير يحب الشيكولاتة، فلذلك كلما أردت أن أحببه فى عمل أى شىء ينبغى عمله قلت له: إذا فعلت كذا وكذا فسوف يعطيك الله شيكولاتة كثيرة فى الجنة. فما كان منهم إلا أن صاحوا مستنكرين، مؤكدين أن الشيكولاتة لم ترد فى أوصاف الجنة. فرددت عليهم ضاحكا: بل وردت، وفى القرآن! لكنهم ازدادوا إنكارا ونفيا، وهم يستغربون بشدةٍ ما أقول. فقلت لهم وأنا أبتسم ضاحكا: ألم تقرأوا قوله تعالى عن الجنة فى سورة "الزخرف": "فيها ما تشتهيه الأنفس وتَلَذّ الأعين"؟ فابنى تشتهى نفسه الشيكولاتة، وهو يُسَرّ بمرآها، ويتحلب ريقه عليها، ويتلذذ بأكلها. فما المشكلة إذن؟ فسكتوا مغتاظين، وازددت أنا ضحكا من رغبة بعض الناس فى التضييق والإعنات دون داع.

ترى هل تختلف أمينة ودود عن طلابى هؤلاء رغم ما يبدو من معاكسة اتجاهها لاتجاههم؟ ثم من قال إن الجنة سوف تخلو من الكتب إذا كان بين أهلها من يشتهى القراءة؟ أم تظنون أن المؤمنين، دون الناس جميعا، يكرهون الكتاب والنظر فيه كما هو حال الأغلبية الساحقة من المسلمين فى عصور

تخلفهم الحالية، ومن ثم لن يفكر أى منهم فى الجنة فى إشباع تلك الشهوة العقلية؟ ألا إن هذا لعجيب. لقد أراد توفيق الحكيم، على عادته فى التعبير الفنى، أن يصور مدى غرام العقاد بالكتاب والقراءة. وهذا كل ما هنالك. أما د . أمينة ودود فتريد أن تصوّب كرسيا فى "الكُلُوب" حتى يتحطم ويسود الظلام.

وها هى ذى تعود مرة أخرى (ص٥٨) إلى القول بأن الكلام فى القرآن عن الشوابّ الأبكار والحور العين فى الجنة إنما هو انعكاس لرغبة العربى الجاهلى ذى النزعة الذكورية[١]، وكأن العربى بعد إسلامه لم يكن يحب الشوابّ الأبكار والحور العين ويفضل عليهن العجائز القبيحات، أو كأن الرجال فى البلاد الأخرى تختلف عن العربى فى ذلك. إن هذا الكلام الذى تقوله ودود يعطينا فكرة عما يلجأ إليه بعض الناس من إنكار البديهيات نصرة لمذاهبهم، وترويجا لأفكارهم رغم تهافت ما يقولون وعجزه عن الصمود أمام الحقائق الساطعة القاطعة. ذلك أنه ما من إنسان طبيعى ينفر من النساء، وما من إنسانة طبيعية تنفر من الرجال. فلماذا إذن التظاهر بأن الحديث فى هذا الموضوع هو مما لا يليق؟ ومن قال إن الطعام والشراب والجنس يتعارض وطبيعة الجنة؟ أليست الجنة هى المكان الذى يتاح فيه للإنسان الشعور بالسعادة الصافية؟ فهل فى الطعام والشراب والجنس ما يتعارض مع هذه السعادة، وبخاصة فى ضوء ما نعرفه من أن لذائذ الحياة الدنيا سوف تتاح فى الجنة نقية مبرأة من كل شائبة بحيث لا يصاب ساكن الجنان بمغص مثلا ولا يحتاج إلى دخول حمام أو إخراج ريح أو جُشَاء، وبحيث لا يعترى النساء فيها ما يعتريهن هنا من حيض أو نفاس، وبحيث لا يحس الإنسان بملل أو قلقٍ أو خوف أو حزن أو أى نوع من أنواع الألم والوجع. . . ؟ فما الوجه فى أن ينكر بعض الناس يا ترى توفر تلك اللذات فى الجنة؟

على أن هذا لا يلغى وجود السلام فى تلك الجنة أو القرب من الله سبحانه والتنعم برضاه عنا ورضانا عنه. باختصار سوف يتوفر فى الجنة كل ما من شأنه أن يجعل الإقامة فيها منبعا للسعادة الدائمة الصافية. فهل هناك من يكره هذا من البشر الطبيعيين؟ ويا د . ودود، انتظرى حتى تدخلى الجنة، وعندئذ قولى إنك لا تريدين هذا أو ذاك من نعيمها، وتفضلين ألوانا أخرى من ذلك النعيم. ولا أظن أنهم سوف يقولون لك: لا مجال هنا للاختيار، بل عليك أن تتصاعى لما يقدَّم إليك دون أن تفتحى

---

[١] لا أدرى ما دخل النزعة الذكورية هنا . هل إذا كان الشخص غير ذى نزعة ذكورية فإنه لا يحب النساء؟ من قال هذا؟ إن الميل إلى النساء فطرة غرزها الله فينا، مثلما غرز الميل إلى الرجال فى فِطَر النساء . والرجال كل الرجال يحبون النساء سواء كانوا ذكوريين أو نسويين، وسواء كان الواحد منهم حوذيا عاميا أو مفكرا راقيا، وسواء كان شابا أو عجوزا، وسواء كان عربيا أو أمريكيا، وسواء كان فقيرا أو غنيا . لكن د . ودود تهرف بهذا الكلام المتهافت دون أن يطرف لها جفن. عجائب!

فمك بكلمة. ذلك أن الوضع فى الجنة لن يكون هكذا، فنحن لسنا فى دولة شيوعية تصادَر فيها الحريات، ويلبس الإنسان ويأكل لا على هواه بل على هوى مسؤولى الحزب برغم أنفه! أغاثنا الله من الشيوعية والشيوعيين.

وإذا كنتِ أنتِ، بوصفكِ واحدةً من مواطنى الولايات المتحدة ناهبةِ ثرواتِ الشعوب المستضعفة وموفِّرةِ طيباتِ الحياة لمواطنيها على حسابنا، وإن لم تكونى من البيض السادة رغم ذلك، إذا كنت أنت قد بَشِمْتِ من أكل اللحم وقَضْم الشيكولاتة وجَرْع العصائر المختلفة وسُكْنَى الفِلَل الأنيقة الفخمة المحوطة بالحدائق المنسقة الزاهية التى تردّ الروح لا التى تطوّقها الزُّبالة والنتانة والقبح من كل جانب، ولم تعد هذه الأشياء تثير شهيتك، وهو ما أشك فيه تمام الشك، أقول: إذا كنت أنت كذلك فنحن المسلمين المحرومين من كل ذلك والمنغصةَ حياتُنا بفعل خنوعنا من جهة، واستبداد حكامنا العملاء لدولتك ولصوصيتهم وإجرامهم من جهة أخرى، تشتهى أن تكون الجنة مملوءة بهذه الطيبات حتى تعوضنا عما قاسيناه من الدنيا من شظف وقشف. فدعينا ننعم هناك بما حُرِمْنا منه هنا، ولا تتكدى على الغلابَى من أمثالنا، وانبذى عنك هذه الأفكار المزعجة، فقد شبعنا إزعاجا فى الدنيا، ونريد أن نشم نَفَسَنا قليلا. أم تريدين أن تحولى حياتنا، دنيا وأخرى، إلى كوابيس متصلة؟ فأل الله ولا فألك يا شيخة! أتراك تظنين أن الجنة اختراع أمريكى، فأنت تريدين أن تسيّريها على هواكم فى أمريكا؟ لكن هل تظنين أن أمريكا، بعد كل الذى فعلته فى الدنيا من جرائم وحشية ومصائب متلتلة، سوف ترِيح رائحة الجنة ولو على بعد سبعين خريفا؟

ولقد فكرتُ فى هذا الموقف الغريب الذى يصادم نصوص القرآن والحديث من أمينة ودود والمتمثل فى نفورها من فكرة الحور العين واللذائذ الطعامية والشرابية، فقلت فى نفسى: ربما لا تزال، رغم اعتناقها الإسلام، متأثرة بما كتبه مؤلفو العهد الجديد عن هذا الموضوع، إذ كانت، كما قلنا، نصرانية ثم أسلمت. ومنذ نحو عشر سنوات أثار ملفقو "الفرقان الحق" تلك القضية فأبدأوا وأعادوا فى الإزراء على الجنة ونعيمها كما صورها القرآن الكريم، مدَّعين أنها جنة مادية شهوانية، وهو ما يشبه ما تقوله أمينة ودود، ولكن بطريقتها هى. ولكن ماذا فى الجنة المادية؟ ألا يحب هؤلاء المنافقون الأكل؟ ألا يحبون الشرب؟ ألا يحبون الجنس؟ ألا يحبون التمتع بالظلال والجمال والهدوء؟ إن من يقول: "لا" لأى من هذه الأسئلة لهو ثُعْلُبَانٌ عريقٌ فى النفاق والدجل! فما الحال إذا عرفنا أن هذه المتع الفردوسية ستكون متعا صافية مبرَّأة من كل ما كان يتلبَّس بها على الأرض من نقصان ونفاد وملل أو كِظَّة وغثيان أو قلق وآلام وأوجاع وإفرازات وعلل وتعب وكدح وصراع وخوف، وكذلك من كل ما كان يعقبها من

إخراج وتجشؤ وفتور وإرهاق ونوم ومرض. . . إلخ؟ لقد ذكر القرآن المجيد أنه فى العالم الآخر سوف "تُبَدَّل الأرضُ غَيْرَ الأرض والسماواتُ" (إبراهيم/ ٤٨)، وأن أهل الجنة "لا يَمَسّهم فيها نَصَبٌ، وما هم منها بمُخْرَجين" (الحجر/ ٤٨)، وأنهم سيَبْقَوْن "خالدين فيها لا يَبْغُون عنها حِوَلا" (الكهف/ ١٠٨)، وزاد الرسول الكريم فى أحاديثه الأمر بيانا فأوضح أن هذه المتع ستكون متعا خالصة تماما لا يكدّرها مكدّر عضوىّ أو نفسىّ. فما وجه التنطع والاشمئزاز الكاذب إذن؟ لقد لاحظتُ أن الذين يُزْرُون على جنة القرآن هم من أشد الناس طلبا للدنيا وتطلعا إليها وانخراطا فيها وسعارا محموما خلف لذائذها، ومنهم هؤلاء المبشرون الذين كانوا ولا يزالون يمثلون طلائع الاستعمار والاحتلال الغربى لبلادنا وبلاد كل الشعوب المستضعفة، ذلك الاستعمار الذى يريد أن يستمتع بطيبات الحياة دوننا ويترك لنا الجوع والفقر والجهل والمرض والقذارة والذلة والتخلف والشقاء! أليس مضحكا أن يأتى هؤلاء بالذات ليُظْهِروا النفور من تلك اللذائذ؟ فمن هم إذن يا تُرَى الذين سُعِروا بحب الجنس بكل ألوانه وشذوذاته على النحو الذى نعرفه فى بلاد الغرب واقعًا مَعِيشًا وأدبا مكتوبا ولوحاتٍ مصوَّرَةً وأفلاما عارية ومسرحياتٍ عاهرة؟ أفإن جاء الرسول الكريم وقال لنا إنكم ستستمتعون بهذه الطيبات فى الجنة، لكنْ مصفّاةً مما يحفّها هنا على الأرض من أكدار وشوائب، ومصحوبةً بانتشار المحبة بين أهل الجنة وبمشاهدتهم وجه ربهم العظيم ذى الجلال والإكرام وتمتعهم بالرضا الإلهى السامى عنهم وانتشائهم بالتسبيحات الملائكية حولهم، نَلْوِى عنه عِطْفنا ونشمخ بأنوفنا ونُبْدِى التأفف والتنطس؟ إن هذا، وَايمِ الحق، لَنِفاقٌ أثيم!

سنسمع المنافقين المنغمسين فى شهوات الجسد يتحدثون بتأفف عن هذه اللذائذ التى لا تليق فى نظرهم ببنى الإنسان، وهم الذين يمارسون اللّواط والسّحاق مما ينزل بهذا الجسد وصاحبه أسفل سافلين. وعلى أية حال ما وجه النفور من الجسد وإشباع غرائزه فى اعتدال؟ أليس هذا الجسد هو أحد الوجهين اللذين تتكون منهما الشخصية الإنسانية؟ فما الذى يمكن أن يكون فى ذلك من عيب؟ ترى أمن الممكن أن تقوم الحياة البشرية بعيدا عن الجسد؟ كنت أستطيع أن أفهم وجه الاعتراض لو كنا نقول إن المتع الجسدية هى وحدها المتع التى نريدها، لأن هذا من شأنه أن يُلْغِيَ الجانب الروحى من الإنسان أو على الأقل يتجاهله بما يسىء إلى هذا الإنسان نفسه. أمّا، ونحن لا نقول بهذا، فلست أجد أىّ مسوّغٍ للاعتراض إلا العناد الأحمق والنفاق البغيض! وعلى كل حال فالقرآن والأحاديث يلحّان صراحة على أن أطايب جنة النعيم هى مما لم تره عين أو تسمع به أذن أو خطر على قلب بشر. ومن ثم فلا معنى للدخول فى التفاصيل والجزم بأن الأمور سوف تجرى على النحو الفلانى أو العلانى. كما وضح القرآن والحديث أن أوضاع الحياة الأخرى سوف تكون مختلفة عما عهدناه هنا على الأرض.

وهذا سبب آخر من شأنه أن يدفعنا إلى التروى وعدم الاندفاع فى الإنكار والاستنكار. قد يقال إن الطعام والشراب والزواج هى أمور دنيوية تساعدنا على الاستمرار فى الحياة، على حين أننا فى الآخرة خالدون، وحياتنا مستمرة تلقائيا، فلا نحتاج من ثم إلى طعام وشراب وزواج. ولكن ينبغى أن نعرف أنه إذا كان لهذه الأشياء فى الدنيا جانبان: جانب اللذة والسعادة، وجانب المنفعة، فإنها فى الجنة لا يراد بها إلا توفير اللذة والسعادة فحسب على اعتبار أن الآخرة ليست دار تكليف، وليست معبرا لحياة أخرى تليها كما كان الحال فى الدنيا. الآخرة دار سعادة فقط، وعلى هذا فإن هذه الأشياء تتخلص من جانبها النفعى، ولا يبقى لها إلا جانب اللذة والسعادة الخالصتين.

وقد استند أولئك الثعالب فى إنكارهم هذا إلى ما نُسِب للسيد المسيح من رده على اليهود الذين أرادوا أن يضيّعوا وقته فى الأسئلة السخيفة، فقال لهم إن الناس "فى القيامة لا يزوّجون ولا يتزوجون" (متى/ ٢٢/ ٢٣ – ٣٠)، إذ كان سؤالهم عن امرأة مات عنها زوجها فتزوجها من بعده إخوته الستة كل واحد منهم بعد موت الآخر، فلِمَنْ مِنْ هؤلاء السبعة ستكون زوجةً فى القيامة؟ والسؤال، كما هو جَلِىٌّ بَيّنٌ، سؤال سخيف لا يراد به إلا التعنت والرغبة فى أن يمسكوا شيئا يتعللون به للتشكيك فى القيامة التى لم يكونوا، كما جاء فى القصة، يؤمنون بها لأنهم من طائفة الصَّدُوقِيّين المنكرين للبعث. وهو أسلوب يبرع فيه أحلاس المجالس والمجامع الذين يعشقون الظهور والرواج عند العامة، فأراد المسيح أن يقطع عليهم الطريق ولا يعطيهم الفرصة للمضى مع هذا الجدال العقيم! وبطبيعة الحال لن يكون هناك زواج ولا تزويج، فنحن لسنا فى الدنيا، ومن ثم لن نحتاج إلى مأذون أو مسجّل مدنى وشهادات رسمية وما إلى ذلك مما هو معروف هنا فى هذه الحياة الأرضية. وهذا مثل قولنا مثلا إنه لن تكون هناك مطاعم ولا مطابخ فى الآخرة. فهذا شىء، والخروج من ذلك القول بأنه لن يكون هناك طعام وشراب شىء آخر. وعلى نفس القاعدة فإن قول المسيح إنه لن يكون زواجٌ أو تزويجٌ يوم القيامة لا يعنى أنه لن يكون هناك متع مما يحصّله الإنسان من الاتصال بالجنس الآخر، فهذه المتع قد تتم من خلال الزواج، وقد تتم دون زواج. ومتع الجَنة، كما أشرنا آنفا، لن يكون فيها شىء من وجع الدماغ الذى شبعنا منه فى الدنيا، ومن ثم فلا خِطْبة ولا مهر ولا زواج بما يعنيه كل هذا من استعدادات وتكاليف، فضلا عن أن تكون هناك صراعات بين عدة رجال مثلا على الفوز بامرأةٍ كُلٌّ منهم واقعٌ فى حبها ولا يهنأ له عيش إلا بالزواج منها، أو بين عدة نساء على الفوز برجلٍ كُلُّهن مدلَّهاتٌ فى هواه فلا تروق لهن الدنيا إلا بالاقتران به.

ومما يؤيد كلامى أن المسيح نفسه فى الفقرات التى سبقت جوابه على سؤال اليهود، حين أراد أن يوضح ملكوت السماوات، وهو ما يقابل الجنة عندنا، ضرب لمستمعيه مثلا من عُرْس أقامه أحد الملوك لابنه أَوْلَمَ فيه وليمةً قُدِّمَتْ فيها الذبائح والمسمَّنات، وحضرها المدعوُّون وقد لبسوا الحلل التى تليق بهذه المناسبة السعيدة. فعلام يدل هذا؟ وهل يختلف يا ترى عما نقوله نحن عن الجنة؟ أَوَلَمْ يقل المسيح (مرقس/ ١٤/ ٢٥، ولوقا/ ٢٢/ ١٨) إنه سيشرب عصير الكرمة فى ملكوت الله جديدا، أى على نحو آخر غير ما كان عليه فى الدنيا، وهو ما يقوله الإسلام؟ أولم يقل لتلاميذه إنهم سيأكلون ويشربون معه على مائدته فى الملكوت (لوقا/ ٢٢/ ٢٩– ٣٠)؟ فما الفرق بين الشراب والطعام وبين الجنس؟ ثم أين كان آدم وحواء فى بدء أمرهما؟ ألم يكونا فى الجنة؟ فماذا كانا يفعلان هناك؟ يقول الكتاب المقدس إن هذه الجنة كان فيها أشجار حسنة المنظر طيبة المأكل، وإن الرجل يترك أباه وأمه ويلزم امرأته فيصيران جسدا واحدا، وإن آدم وزوجه كانا عريانين لا يشعران بخجل، وإن الله قد ضمن لهما الخلود فيها . . . إلخ (تكوين/ ٢/ ٨– ٩، ٢٤). فما معنى كل هذا؟ وماذا كان أبوانا الأوَّلان يعملان آنئذ؟ أكانا يكتفيان بتمضية وقتهما فى التأملات الروحانية واضعَيْن أيديهما على خدودهما ليلا ونهارا؟ كذلك يتحدث بولس فى رسالته الأولى لأهل كورنثس (١٥/ ٣٥ فصاعدا) عن "الأجساد الأخروية" التى لا تعرف الفساد ولا التحلل والتى يسميها أيضا بـ"الأجساد السماوية" و"الأجساد الروحانية". وفى "رؤيا يوحنا اللاهوتى وَصْفٌ مفصَّلٌ لكثير من متع الفردوس وعذابات الجحيم، وكلها مادية كالمتع والعذابات التى نعرفها فى دنيانا هذه، مع التنبيه بين الحين والحين إلى أن كل شىء من هذه الأشياء سيكون جديدا ولا يجرى عليه ما كان يجرى على نظيره فى الأرض من فساد ونقصان، وهو ما لا يختلف عما قلناه. فلم التعنت إذن؟

وعن تفضيل الرجل فى القرآن على المرأة درجة تؤكد د. ودود (ص٦٨) أن هذه الدرجة ليست حقا مطلقا لكل الرجال فى كل العصور وفى كل الظروف، بل هى فى الطلاق فقط، بمعنى أن الرجل من حقه تطليق زوجته دون حَكَم أو مساعدة، على حين لا يحق للمرأة الحصول على الطلاق إلا من خلال قاض. هذا ما قالته دكتورتنا، لكن فاتها أن الرجل لا يطلق امرأته إلا بعد أن يعظها ويهجرها فى المضجع ويوسط حكما من أهله وحكما من أهلها. علاوة على أن من حق المرأة أن تخلع نفسها، وهو ما يساوى الطلاق، دون شرط الرجوع إلى القاضى. ثم إن الكلام فى الآية مطلق وغير مقيد بالطلاق لا لفظا ولا سياقا. ثم ماذا نصنع بقوله تعالى: "الرجال قوامون على النساء بما فضل الله به

بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم"؟ كذلك هناك الأحاديث التى تتحدث عن فضل الرجل على المرأة والتشديد على طاعتها له وما إلى ذلك مما أوردنا بعضه فى هذا الفصل.

وفى الصفحة التى تلى ذلك (ص٦٩) تضيف الكاتبة أن هناك تفضيلات مختلفة فى القرآن منها تفضيل البشر على جميع المخلوقات[١]، وبعض الجماعات على بعض، وبعض الأفراد على بعض، ومنها تفضيل بعض الرسل على بعض، ولكن ليس بإطلاق، إذ لا بد من عدم التفريق مع ذلك بينهم[٢]. وهى ترى (ص٧٠) أن هناك شرطين لتفضيل الرجال على النساء: أن يكون الرجل فعلا أفضل من المرأة فى الواقع، وأن ينفق عليها. فإذا انخرم أحد الشرطين أو كلاهما لم تعد هناك أفضلية. كما تشرح التفضيل بأن الله قد أعطى الذكر فى الميراث ضعف ميراث الأنثى فى الأسرة الواحدة، وهو تفضيل مادى، وإن لم يكن كل الرجال يحصلون على ضعف النساء. ومعنى هذا أن ذلك التفضيل المادى ليس مطلقا. وعندها (ص٧١) أن الرجل إنما يحصل على ميراث مضاعف لينفق على الزوجة. فإذا لم ينفق فلا فضل ولا تفضيل. وبالمثل تنفى أن يكون الرجل مفضلا بالفطرة على المرأة من ناحية القوة أو العقل لأنه ليس فى النص ما يدل على تفوقه جسديا أو ذهنيا. لكن ألا يكفى التاريخ والواقع المشاهد الذى يقول بأجلى بيان وأفصح لسان إن الرجال أقوى جسديا من النساء؟ أتُرَى فى هذا شك أو جدال؟ ألا يكفى التاريخ والواقع الحى شاهدا على أن الرجل متفوق عقليا على المرأة؟ وإلا فأين عدد المفكرات أو الفيلسوفات أو الشاعرات أو المخترعات المساوى لعدد نظرائهن من الرجال؟ بل أين عدد مصممات الأزياء والطباخات وشاعرات المراثى المساوى لعدد نظرائهن من الرجال؟ ثم تمضى الكاتبة قائلة إن الآية لا تقول بأفضلية الرجال على النساء بل بأفضلية بعض الرجال على بعض النساء. تقصد أن القرآن يقول: "بما فضّل الله بعضهم على بعض"، وهو تفسير غريب يدل على جهلها باللغة العربية بل باللغة

---

[١] هذا غير صحيح، إذ القرآن يقول: "ولقد كرّمنا بنى آدم، وحملناهم فى البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا". فالقرآن، كما هو واضح، لا يفضل البشر على جميع من خلق الله ولا حتى على أكثريتهم، بل على كثير منهم فقط. ومع هذا تخطئ ودود هذا الخطأ الفاحش فى مسألة بسيطة شديدة الوضوح كهذه، وهو ما يعطينا فكرة عن ضعف تفكيرها وعدم إحكامه.

[٢] عدم التفريق ليس معناه إلغاء التفضيل كما يوحى كلامها البهلوانى، بل معناه أنه، رغم تفضيل بعضهم على بعض، لا بد من الإيمان بهم جميعا رسلا وأنبياء: الفاضل والمفضول على السواء. ترى هل تريد ودود أن تقول إن تفضيل القرآن للرجل ليس على الإطلاق وإنه لا ينبغى التمييز بينه وبين المرأة رغم ذلك؟ وإذا كانت تقول إن التفضيل، على عكس الدرجة، لا يستند إلى إنجازات الشخص بل إلى هبة من الله فمعنى هذا أن تفضيل الرجال على النساء كما تقول سورة "النساء" هو تفضيل من لدن الله، أى فى أصل الخلقة، وليس راجعا إلى وضع اجتماعى معين.

عموما أو على تدليسها وانحيازها، إذ إن هذا التركيب يدل على أفضلية الرجال على النساء، وإلا فلماذا جعل الله القوامة للرجال على النساء بإطلاق ما دام الفضل منحصرا فى بعضهم فقط بما يدل على أن بعض النساء بالتالى أفضل من بعض الرجال[١]، مما كان يستلزم أن يقول القرآن مثلا: "والنساء أيضا قوامات على الرجال بما فضل الله به بعضهن على بعض"؟ ولقد ترجمتِ الآية بناء على هذا الفهم الجاهل أو العابث للقرآن. ثم لماذا خاطب الله الرجال محددا لهم الخطوات التى ينبغى لهم اتباعها عند نشوز المرأة وقبل اللجوء إلى الطلاق بما فيها الضرب، ولم يصنع ذلك مع الجنس اللطيف، إلا أن يكون السبب هو أن الرجال قوامون على النساء وأن الله قد فضلهم عليهن؟

وهى ترفض أن يكون معنى قوله عز شأنه: "الرجال قوامون على النساء" هو أنهم مكلفون بهن، إذ المرأة، كما تقول، لا تفقد حريتها وتصرفها فى نفسها إلا فى حالة الجنون فقط. كما تؤكد أن الآية لا تدل على تفوق الرجل المطلق على المرأة، بل على أن دوره هو الإرشاد والرعاية الأخلاقية. لكن إذا كان الأمر كذلك أليس معناه أن الرجل متفوق على المرأة بحيث يوكل له هذا الإشراف وتلك الرعاية؟ ثم تتساءل (ص٧٢): هل كل الرجال قوامون على كل النساء؟ وجوابها أن الرجل قوام على زوجته فقط، وترفض أن يكون الرجال فى المجتمع كله قوامين على النساء جميعا بعكس ما يقوله بعض العلماء حسب كلامها. ثم تمضى فتقول (ص٧٢) إن إنفاق الرجل على زوجته هو للتخفيف عنها كى تنهض بمهمة الحمل والولادة والرضاعة والرعاية، تلك المسؤولية العظيمة التى تحتاج إلى ذكاء وقدرة على التحمل، فإنفاق الرجل على المرأة مسؤولية فى مقابل مسؤولية أخرى شديدة الأهمية، مسؤولية لا يستطيع أحد أن يقوم بها سوى المرأة. وعلى هذا فهل، إذا كانت المرأة عاقرا، تستحق أن يظل الرجل قواما عليها؟ وماذا لو كان دخل الرجل وحده لا يكفى للقيام بحاجات الأسرة كما فى كثير من المجتمعات المعاصرة؟ وماذا لو كان الرجل عاجزا عن إعالة الأسرة كما فى أمريكا فى عصر العبودية حينما كانت المرأة الأَمَة هى التى تعمل وتعول سائر الأسرة؟ كل هذه المشاكل غير قابلة للحل كما تقول إذا نظرنا إلى آية "النساء" من زاوية ضيقة. ومن هنا تؤكد أنه لا بد من مراجعة فهمنا للقرآن فى ضوء المتغيرات المستجدة. لكن فات ودود أنه كان هناك نساء يعملن فى عصر الرسول، فضلا عن أن كل امرأة كانت تقوم بأعمال البيت، وقد تشترك فى تمريض جرحى الحروب وسقى الجنود، ومع ذلك لم يقل الرسول ولا أحد منهن بما تقول به ودود.

---

[١] وهذا ما قالته هى نفسها فى ذات الصفحة.

وبالنسبة إلى النشوز تؤكد كاتبتنا أن آية سورة "النساء" التى نحن بصددها، وهى الآية الرابعة والثلاثون، ونصها: "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا"، لا تطلب من المرأة أن تطيع زوجها، إذ إن كلمة "قانتات" لا تدل على ذلك، بل تستعمل للذكر والأنثى على السواء، وتشير إلى سمة من سمات المسلم والمسلمة فيما يخص علاقتهما بالله، ومنها أن يتعاونا معا وأن يخضعا لله سبحانه، أما الطاعة بين البشر فلها كلمة أخرى. وعلى هذا فما دام النشوز يقع من الطرفين فلا معنى أن نفسره بأنه عصيان الزوجة كما تقول (ص٧٥). وهى ترى أن الحل الأول حسبما تقترحه، وهو التفاهم بين الزوجين وحدهما أو بمساعدة حكمين، هو الأفضل لأن النشوز مذكور فى الحالين: حالة الرجل وحالة المرأة. لكن قد فاتها أنه لا يوجد وعظ من المرأة للرجل فى آية "النساء" التى تتحدث عن خوف المرأة من نشوز زوجها عليها أو هجرانه لها فى المضجع. بل إن الرسول ليدين المرأة التى تلجأ إلى الاستعصاء على زوجها فى الفراش. كذلك فالقرآن، كما تقول، يهدف إلى التفاهم والسلام والإصلاح، وليس إلى العنف وفرض الطاعة بالقوة. وهذا صحيح، ولكن ما العمل إزاء الزوجة المتمردة المتنمردة؟ الواقع أن ثمة طريقين بالنسبة لها: فإما أن تقلع عن التمرد وتطيع زوجها وتحسن عشرته، وإما أن تخلع نفسها أو تطلب الطلاق ما دامت لا تريد الكف عن التمرد ولا ترضى أن يؤدبها زوجها. وإلا فماذا يفعل الزوج فى هذه الحالة بعد استنفاده الحلول السلمية؟ هل يسارع الرجل، كلما تمردت زوجته، إلى تطليقها وهدم البيت والأسرة؟ إذن فمعظم البيوت سوف تنهدم على رؤوس أصحابها ورؤوس الأطفال أيضا.

ولَخَيْرٌ عندى أن تستمر مؤسسة الزواج ولو بشىء من التنازل من أن تنهدم وتنهدم معها حيوات الأبناء والبنات. ولا يعنى هذا أن تغض الزوجة وحدها النظر عن بعض حقوقها، فقد يكون غض الطرف من نصيب الزوج أيضا أو من نصيبه وحده كما يحدث فى الواقع كثيرا. أما ودود فإن هدم الأسرة فيما يبدو هو عندها قيمة من القيم التى تحرص عليها وتناضل فى سبيلها. إن الإصرار على تحقيق المثال الأعلى جميل، لكن حكم الواقع أقوى فى كثير من الحالات. والدنيا ليست جنة وارفة الظلال، وإن حاولنا أن نجعلها كذلك. وإن التمسك الحرفى بالمثالية لهو لون من التنطع أو النفاق من أجل تيئيس الناس ودفعهم إلى الانصراف عن بذل الجهد وهدم ما بَنَوْه ما داموا لا يستطيعون بلوغ الغاية التى تصر ودود على أن يبلغوها، وإلا فلا زواج ولا أسرة.

كذلك نراها (ص٧٧) تزعم أن القرآن لم يأمر المرأة قط بطاعة زوجها فبالله ماذا تقول فى قوله تعالى مخاطبا الرجال: "فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا"؟ أليس معناه أن النساء ينبغى أن يطعن أزواجهن، طبعا فيما لا معصية فيه كما لا نحتاج إلى أن نقول؟ ثم إن هناك أحاديث متعددة فى طاعة الزوجة لزوجها، مثلما هناك أحاديث بوجوب إكرام الرجل لزوجته وعدم إهانتها دون سبب. ولنفترض أنه لا القرآن ولا الحديث أمر المرأة بطاعة زوجها، فهل معنى هذا أن تعصيه أو أن تتمرد عليه؟ أية حياة هذه فى تلك الحالة؟ إن الطاعة واجبة لكل رئيس، والرجل رئيس البيت وقوّامه، فطاعته واجبة إلا أن يأمر بمحرم أو بما يسىء إلى الكرامة. لكن الكاتبة تتحدث وكأن طاعة المراة لزوجها سُبَّة ينبغى أن تتحرز منها فلا تقارفها ولا تقاربها.

وهاهى ذى بعض الأحاديث المشرفة التى تبرز وجوب طاعة المرأة لزوجها ما دام لا يأمرها بمحرم أو يطلب منها ما يسىء إلى كرامتها أو يريد أن يأكل حقا من حقوقها: "لا تصوم المرأة وزوجها شاهد يوما من غير شهر رمضان إلا بإذنه"، "لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه، وما أنفقتْ من نفقة عن غير أمره فإنه يؤدى إليه شطره"، "أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راضٍ دخلت الجنة"، "ثلاثة لا تجاوز صلاتهم آذانهم: العبد الآبق حتى يرجع، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وإمام قومٍ وهم له كارهون"، وسئل (عليه السلام) عن خير النساء، فقال: "التي تطيع زوجها إذا أمر، وتسره إذا نظر، وتحفظه في نفسها وماله"، "لو كنتُ آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها"، "لا ينظر الله إلى امرأة لا تشكر لزوجها وهي لا تستغني عنه"، "جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، إني وافدة النساء إليك. هذا الجهاد كتبه الله على الرجال: فإن نَصِبوا أُجروا، وإن قُتِلوا كانوا أحياء عند ربهم يُرْزَقون. ونحن معاشرَ النساء نقوم عليهم، فما لنا من ذلك؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أبلغي من لَقِيتِ من النساء أن طاعة الزوج واعترافا بحقه يعدل ذلك. وقليل منكن من يفعله". وفى حديث آخر يؤكد الرسول عليه الصلاة والسلام أن "جهاد المرأة حسن التبعل لزوجها". فماذا تريد ودود أكثر من ذلك؟

والعجيب الغريب أن نجدها تقول (ص٧٧) إن الاعتقاد بأن القرآن يأمر الزوجة بطاعة زوجها إنما هو بقايا زيجات الاستعباد، التى لم تكن مقصورة على تاريخ الإسلام، والتى يتجاهل أصحابها أن الزواج ينبغى أن يقوم على الشراكة والتعاون الاقتصادى والثقافى والعاطفى لا الطاعة. إلا أنها قد نسيت أن تقول لنا: ما الحل إذا وقع خلاف، ونشزت الزوجة على زوجها؟ هل نتجاهل ما أرشدنا إليه القرآن وما وجهنا إليه الرسول؟ نعم نحن معها فى أن الزواج ينبغى أن يكون قائما على الاحترام

والشرف، ولكن ماذا لو تعذر هذا ؟ هل نسارع إلى الخلع أو الطلاق دون وعظ أو هجران أو ضرب كى ترضى ودود ؟ إنها تريد أن توهمنا أن الحياة الزوجية هى شراكة قائمة بين ملاكين. وهو أمر غير صحيح. لقد تكرر استشهادها بسيد قطب، لكنها امتلخت بعض كلامه، ونبذت بعضه الآخر الذى لا يتمشى مع ما تريده، عامدة متعمدة فيما هو واضح. وهل هناك مؤسسة بدون رئاسة؟ ومعروف أن رئاسة المؤسسة الزوجية فى الإسلام هى للرجل. ليس للرجل أن يعمل على إهانة امرأته، لكنها ينبغى أن تحترمه ولا تتمرد عليه أو تحاول الخروج على طاعته لا لشىء إلا من أجل إبهاج أمثال ودود: أمينة ودود مطلقة، وأسما بارلس مطلقة، وإسراء النعمانى لها طفل من الحرام تفتخر به، ولالا باختيار مطلقة وحياتها مرتبكة، وإرشاد مانجى سحاقية. وعندنا فى مصر كثير من أمثالهن فاشلات زواجيا، وكأنهن يردن تعميم هذا الفشل والانهيار نقمةً وحقدًا.

وتقول ودود أيضا (ص٧٧– ٧٨) إنه إذا كان القرآن لا يعرف إلا الزواج الاستعبادى[١] فلسوف يفشل[٢] فى تحقيق مطالب البشر فى الحضارات المختلفة. ومن هنا ترى أن القرآن إنما يتحدث عن الزواج الذى كان معروفا فى وقت الدعوة، ويعمل على وضع القيود على الزوج تجاه زوجته. والحق أن ودود بهذا الكلام إنما تقلب الوضع رأسا على عقب، وتجعل الكلام ضد الرجال وليس تقويما لمن تنشز على زوجها. إن الآية ٣٤ من سورة "النساء" إنما تتحدث عن نشوز الزوجة المتمردة وعلاجه لا عن القيود التى ينبغى أن توضع فى يدى الرجل حتى تشل حركته وفى نفس الوقت تُطْلِق الزوجة كى تمطيه وتذله كما تريد أمينة ودود. والآية واضحة الدلالة والمقصد وضوح الشمس، ولا يمكن أن تفلح ألاعيب الكاتبة فى طمس الحقائق وإحلال الأوهام محلها.

والآن بعد انتهائنا من مناقشة ما كتبته أمينة ودود فى موضوع الحل الأول لنشوز الزوجة يأتى الحل الثانى، وهو يتحقق عندها بإبعاد كل من الزوجين إلى سرير منفصل طبقا لترجمتها الآية ترجمة حرفية كما تقول (ص٧٥)، مع أن القرآن لم يتحدث عن إبعادٍ يفهم منه أن المسألة مسألة قرار يتخذه غيرهما فيلتزمان به، بل تحدَّث عن هجران الزوج لزوجته فى المضجع، وهو ما يتخذه الزوج بنفسه لا بقرار شخص آخر. كما أن الهجران فى المضجع قد يتحقق بمجرد إدارة الرجل ظهره لزوجته فى

---

[١] متى بالله شرع الإسلامُ الزواجَ الاستعباديَّ أو رضى به أو سكت عنه مجرد سكوت؟ هذا الكلام من أمينة ودود غاية فى الغرابة.

[٢] كلمة "الفشل" كلمة مسيئة جدا فى حق القرآن لا يقولها مسلم، فضلا عن أنها قائمة على أوهام لا حقيقة لها كما وَضَحْتُ.

السرير لأن الهجران واقع فى الآية على الزوجة لا على الفراش نفسه بحيث لا يكون من الضرورى أن يترك الزوج الفِرَاش ذاته. كما أن الهجران يمكن أن يستمر، فى رأيها، إلى ما لا نهاية مادام لا يؤتى ثمرته، ودون أن يضرب الزوج زوجته، حتى لو كان الهجران أبديا عن طريق الطلاق. وأحب أن أنبه إلى أن هذا هو ما قلتُه قبل قليل إذا لم ترد الزوجة، أو لم تستطع، الإقلاع عن التمرد والعصيان ولم تقبل فى ذات الوقت التأديب الذى شرعه القرآن والذى لا يعنى العنف الذى نراه فى كثير من الحالات فى بلاد المسلمين وبلاد الغرب على السواء، بل ربما كان فى بلاد الغرب أعنف رغم كل الطنطنات.

وكعادة المتحذلقين الذين لا يفهمون، أو لا يريدون أن يفهموا، مرامى اللغة العربية ولا القرآن، نراها تميّع معنى الضرب فتقول إنه قد يعنى ضَرْب المثل أو الضرب فى الأرض. وهى تفسره بهذه الطريقة كى تصل إلى القول بأنه لا يجوز للرجل أن يضرب زوجته مهما كانت الأحوال بينهما، وهو ما يذكرنا بالدكتورة لالا باختيار فى ترجمتها الإنجليزية للقرآن الكريم التى أصدرتها منذ سنوات لحساب بعض جهات النشر الغربية. وهذه الطريقة لا تصل بنا فى أى كلمة إلى شىء صحيح لأنه ما من كلمة إلا ولها عدة معان يحدد السياقُ المعنى المراد منها فى كل حالة. ولا يمكن أن يكون معنى الكلمة فى سياق الآية الحالية هو ضرب المثل أو الضرب فى الأرض. ثم تمضى د. ودود فتشير إلى أن القرآن إنما يستخدم صيغة: "ضَرَب" لا "ضَرَّب"، التى تفيد التكرار أو العنف، وهو ما كان يمارسه بعض الصحابة نزولا على العرف السائد أوانذاك حسب كلامها. لكننى لا أذكر أنى قابلت فى قراءاتى الكثيرة التى تغطى كل عصور الأدب العربى الفعل "ضرَّب" قط، على الأقل بهذا المعنى، اللهم إلا فى بيت المتنبى المشهور:

وتضـــــــــــــريب أعناق الملوك وأن ترَى	لك الهبـــواتُ السوُّدُ والعسكـرُ المَجْـــرُ

فهل نقول على طريقتها إن "ضَرَّب" بالتشديد يعنى تطيير الرقاب، ومن ثم فإن اعتراضها بأن الصيغة المستخدمة فى الآية هى صيغة "الضرْب" لا "التضريب" هو اعتراض مرفوض؟ على أية حال تعالَوْا نقرأ ما كتبه صاحب معجم "تاج العروس": "وضَرَّبْتُ بَيْنَهُم فِي الشَّرِّ: خَلَطْتُ كَضَرَّبَه تَضْرِيبًا. والتَّضْرِيبُ بين القَوْم: الإغْرَاءُ. والتَّضْرِيبُ أَيْضًا: تَحْرِيضُ الشُّجَاعِ فِي الحَرْب. يُقَال: ضَرَّبَه وحَرَّضَهُ... وضَرَّبَ الشُّجَاعَ فِي الحَرْب تَضْرِيبًا: حَرَّضَهُ وأَغْرَاهُ. وضَرَّب النَّجَّادُ الـمُضَرَّبَة تَضْرِيبًا: إذَا خَاطَهَا. وبِسَاطٌ مَضَرَّبٌ إذَا كَان مَخِيطًا. وضَرَّبَ إذَا تَعَرَّضَ للثَّلْج، وهو الضَّرِيبُ. ضَرَّب أَيْضًا: إذَا شَرِبَ الضَّرِيبَ، وهو الشَّهْد... ضَرَّبَتْ عَيْنُهُ: إذا غَارَت".

وهى معان بعيدة عما تقوله د. ودود، التى تقفز بعد ذلك إلى القول بأن الآية لا تجيز الضرب بل تضع قيودا عنيفة على تلك العادة المنتشرة آنذاك. أما كيف عرفت أنها كانت منتشرة بين الصحابة

آنذاك فلم توضح لنا، ونحن من جهتنا نعرف أن ما تقوله فى هذا الموضوع غير صحيح. بيد أن الأمر يحتاج إلى مزيد توضيح، إذ لا ينبغى أن يفهم القارئ من كلامنا هنا أننا نحب إهانة النساء. لقد شرع الله تأديب الرجل لزوجته، ولكن أية زوجة تلك التى نزل من أجلها هذا التشريع؟ لا أظن أن ودود ولا غير ودود تستطيع أن تنكر أن هناك زوجات عنيدات ينزعن نحو التمرد والمخالفة لما يقوله الزوج دون أن يكون قد وقع منه ما يدفعها إلى هذا، لكن هذا هو الملاحظ فى بعض النساء على الأقل. فماذا يفعل الزوج فى هذه الحالة؟ إن الأمر أولا بيد الزوجة: فإما أن تقلع عن هذا العناد والتمرد وإما أن تطلب من زوجها أن يسرحها بإحسان. أما أن تظل ترهقه بالعصيان والتشامخ ثم لا تريد هى ولا تريد سيداتنا النسويات أن يقوّمها زوجها فهو أمر لا يمكن فهمه ولا بلعه. كما أن التأديب يمثل الخطوة الثالثة السابقة على الأخيرة فى سلسلة العلاجات التى يستطيع اللجوء إليها قبل الطلاق لا قدر الله، وليست الخطوة الأولى على ما يظن الناس، وبخاصة غير المسلمين، الذين يضربون زوجاتهم، إلا أن أحدا لا يتناول هذا الموضوع إلا للتشنيع على الإسلام فقط.

وفوق هذا فقد حذر النبى أتباعه من المسارعة إلى ضرب الزوجات أو تجاوز الحد فى ذلك، موضحا أن هذا بوجه عام أمر لا يليق، بمعنى أنه علاج لا ينبغى اللجوء إليه إلا عند الضرورة القصوى حين تنسد كل الأبواب، ولا يعود هناك مفر من ولوجه. وهو فى هذا يجرى على سنة الإسلام فى كل أمر، ألا وهى أنه لا يعطى أحدا صكا على بياض، بل لا بد لكل شىء من ضوابط تحكمه وتنظمه وتُعَادَل فيه الحقوق بالواجبات، والقانونيات بالإنسانيات... وهكذا. وقد شدد الرسول فى ذلك فقال: "لا يَجْلِدْ أحدُكم امرأته جَلْدَ العبد، ثم يجامعها في آخر اليوم". وقال: "استوصوا بالنساء خيرا، فإنما هن عَوَانٍ[١] عندكم ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة. فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح. فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا"، "أيها الناس، إن النساء عندكم عَوَانٍ أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله". وأوصى بالصبر عليهن وتحمل نزقهن بقدر الإمكان: "إن المرأة خلقت من ضلع. فإن ذهبتَ تقوّمها كسرتَها، وإن تدَعْها ففيها أود وبلغة"، "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي. ما أكرم النساءَ إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم"، "اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم. اتقوا الله في الضعيفين: المرأة الأرملة، والصبي اليتيم". ولم يحدث أنْ ضرب صلى الله عليه وسلم أيا من زوجاته.

---

[١] أسيرات.

والملاحظ أن د. أمينة ودود تكثر من الحديث عن عنف الأزواج المسلمين تجاه زوجاتهم (ص٧٦ مثلا)، ولا تذكر أبدا ما هو منتشر فى المجتمعات الأوربية من عنف عنيف تجاه النساء، وكأن الضرب سمة إسلامية لا يعرفها الغربيون أبدا .كذلك تقول إن كلمة "الطاعة" فى الآية المذكورة تحتاج إلى أخذ سياقها فى الاعتبار. ذلك أنها تقول: "فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا". فهى، كما تقول، جملة شرطية لا أمر. وفى الزواج الإكراهى الذى كان يمارسه المسلمون وغير المسلمين فى عصر المبعث كانت النساء مطيعات لأزواجهن. فالآية إنما تبرز وجوب المعاملة الطيبة من جانب الذكور للإناث. تقول د. أمينة هذا متجاهلة أن الآية قد اشترطت أن تطيع الزوجة زوجها. ومعنى ذلك أنها إن لم تطع فللزوج عليها سبيل.

ثم متى كان زواج المسلمين فى عصر المبعث إكراهيا ؟ لقد حرَّم الإسلام الزواج الإكراهى وجرّمه تجريما، وكلنا يعرف حديث الفتاة التى اعترضت على تزويج أبيها إياها لابن عمها، وكيف أوجب الرسول أخذ رأى الفتاة والمرأة فى من يتقدم لخِطْبَتها دون أى إكراه. كما يشترط الفقهاءُ الإيجابَ والقبولَ فى الزواج. بل جعل الإسلام للمرأة الحق فى أن تفك نفسها من الزواج الذى لا يحقق لها ما تصبو إليه عن طريق الخُلْع: "عن حبيبة بنت سهل أنها كانت تحت ثابت بن قيس بن شمّاس، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الصبح فوجد حبيبة بنت سهل عند بابه في الغَلَس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من هذه؟ فقالت: أنا حبيبة ابنة سهل يا رسول الله. قال: ما شأنك؟ قالت: لا أنا ولا ثابت بن قيس. فلما جاء زوجها ثابت بن قيس قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذه حبيبة قد ذكرت ما شاء الله أن تذكر. فقالت حبيبة: يا رسول الله، كُلُّ ما أعطاني عندي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت: خذ منها. فأخذ منها، وجلستْ في أهلها". وفى رواية أخرى: "جاءت امرأة ثابت بن قيس إلى رسول الله وقالت: يا رسول الله، ثابت بن قيس ما أعيب عليه في خلق و لا دين، ولكني لا أطيقه بغضا. فسألها عما أخذت منه، فقالت: حديقة. فقال لها: أتردين عليه حديقته؟ قالت: نعم. فقال النبي لثابت: اقبل الحديقة، وطَلِّقْها تطليقة".

حتى الأَمَة لم يحاول الرسول ذاته أن يجبرها على الاستمرار مع زوجها السابق. عن ابن عباس أنه "لما خُيِّرَتْ بريرة[١] رأيتُ زوجها يتبعها في سكك المدينة ودموعه تسيل على لحيته، فكلم له العباس النبيَ صلى الله عليه وسلم أن يطلب إليها، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: زوجك وأبو ولدك! فقالت: أتأمرني به يا رسول الله؟ قال: إنما أنا شافع. فقالت: فإن كنتَ شافعا فلا حاجة لي

---

[١] بعد أن حصلت على حريتها، وبقى زوجها عبدا كما كان.

فيه. واختارت نفسها . وكان يقال له: "المغيث"، وكان عبدا لآل المغيرة من بني مخزوم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس: ألا تعجب من شدة بغض بريرة لزوجها، ومن شدة حب زوجها لها؟" .

بل إن الرسول نفسه لم يحاول إكراه امرأة على الزواج به كان قد خطبها وأُتِيَ بها ليدخل عليها، لكنه لما سمعها تقول له عند الاقتراب منها: "أعوذ بالله منك" ردها إلى أهلها معززة مكرمة، ولم يحاول إجبارها على شيء أبدت نِفَارها منه حتى لو كان ما قالته دليلا على عدم فطنتها . فعن عائشة رضى الله عنها "أن ابنة الجون لما أُدْخِلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودنا منها قالت: أعوذ بالله منك. فقال لها: لقد عُذْتِ بعظيم. الحقي بأهلك" . وفى الرواية التالية، وهى لأبى أُسَيْد الأنصارى مالك بن رَبِيعة، توضيحٌ لملابسات تلك الكلمة: "تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أسماء بنت النعمان الجونية فأرسلني، فجئت بها، فقالت حفصة لعائشة : اخضبيها أنت، وأنا أمشطها . ففعلنا، ثم قالت لها إحداهما إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه من المرأة إذا دخلت عليه أن تقول: أعوذ بالله منك. فقال[1] بكمه على وجهه فاستتر به، وقال: عُذْتِ بمعاذ، ثم خرج عليَّ فقال: يا أبا أسيد، أَلحِقْها بأهلها، ومَتِّعها برازقيين[2] . فكانت تقول: ادعوني: الشَّقِيَّة" . فأى إكراه إذن تتحدث عنه د. ودود؟ ثم من قال إن النساء كن مطيعات لأزواجهن دائما؟ فلمن يا ترى إذن نزلت آية "النساء" فى النشوز؟ وما مغزى قول الرسول عليه السلام ما معناه أن أكثر أهل النار من النساء اللاتى يكفرن العشير ويُحِلْن حياته أهوالا؟

وفى الصفحة الثامنة والسبعين تعود ودود مرة أخرى إلى القول بأن الدرجة التى منحها الله للرجل على المرأة هى أن الطلاق فى يده، متناسية أن للزوجة شيئا موازيا لذلك هو الخلع، مما يدل ضمن أشياء أخرى على أن فهمها للدرجة فهم خاطئ. ورغم هذا نراها (ص٨٠) تنادى بألا يستمر حكم انفراد الرجل بالطلاق، ولْتُشَارِكْه الزوجة فى هذا . وعلى كل حال فالقرآن لا يترك الرجل يمارس حق التطليق دون أن يفرض عليه تبعات وشروطا . ثم تمضى فتقول إن القرآن، إذا كان لم ينص على أن من حق المرأة التطليق، فإنه لم ينص فى ذات الوقت على منعها من ذلك حسبما فهم المسلمون رغم أن المرأة فى الجاهلية كانت تغير اتجاه باب خيمتها حين تريد تطليق زوجها . أى أنها كان بمستطاعها الطلاق. لكن ينبغى أن تفهم د. ودود أن القرآن، يتحدث عن التطليق من منطلق أنه فعل رجالى، فماذا تريد أكثر من هذا؟ إنه يقول: "وإذا طلقتم النساء . . ."، ولم يقل معها: "وإذا طلقتن الرجال . . ." . ثم ألم

---

[1] "قال" هنا بمعنى: غَطَّى.

[2] ثوبين أبيضين من الكتّان.

تقل إن القرآن كان يراعى الأوضاع فى المجتمع العربى آنذاك ويأخذها فى الاعتبار؟ فكيف تنسى هذا هنا أمام النصوص المتنوعة التى تتحدث عن الطلاق بوصفه فعلا من أفعال الرجال لا النساء؟ واضح أنها تردد كلاما لا يثبت على محك التمحيص.

ولو كان هناك مجال لذلك الفهم الذى تصر عليه ودود لكان النساء فى عصر الرسول أول من يفتح الموضوع ويطالب بالمعاملة بالمثل كما فعلن فى موضوعات مشابهة. كذلك لا يصح أن ننسى أن الرجل هو المبادر بطلب يد المرأة للزواج، ولم يعط الإسلام للمرأة هذا الحق. وهو الذى يدفع المهر وينفق على البيت لا هى. فكيف تظن ودود أنها قادرة على خلط الأوراق بهذا النحو الغريب؟ ثم إنها دائما ما تتجاهل السُّنَّة، وفى السنة تفسير كثير لما جاء فى القرآن وتطبيق له. وإذا كانت المرأة لم تفعل هذا أيام الرسول ولم يأخذه القرآن فى الاعتبار، بل تعامل مع المسألة بوصفها حقا رجاليا، فماذا تريد ودود أكثر من هذا؟ ومعروف أنه، حين أتت الرسولَ امرأةٌ راغبةٌ فى الانفصال عن زوجها، لم يقل لها إن من حقها تطليقه، وإنما أمرها أن ترد عليه حديقته، وعندئذ فَلْيُطَلِّقْها: "خذ الحديقة، وطَلِّقها تطليقة". أى أن الطلاق حق رجالى. لكن الكاتبة عامدةً متعمدةً تتجاهل السنة دائما لأن فيها تفنيدا لآرائها ومواقفها المضطربة الخارجة على أحكام الإسلام. وكل تلك الحقوق الرجالية طبعا يقابلها حقوق للمرأة فلا ينبغى أن يظلمها زوجها بأية حال كما بينتْ آيات القرآن وأحاديث الرسول.

وعلى نفس المنوال من تعمد قلب الأوضاع تَعُدّ أمينة ودود (ص٨٢– ٨٣) الزواجَ المتعددَ لونا من الزواج الاستعبادى، مع أن الزوجة الثانية عادةً ما تتزوج بملء مشيئتها لا يجبرها أحد على ذلك. بل إن هناك نساء كثيرات يخرجن على مشيئة أهليهن ويتزوجن رجلا متزوجا. وعلى أية حال فالعبرة بإكراه المرأة على التزوج بمن تكره، وليس لهذا علاقة بتعدد الزوجات حصريا. ثم إنى لا أفهم كيف فاتها أن تعدد الزوجات لا يمثل مشكلة على النحو الذى توهم به قراءها. كيف؟ إن نسبة النساء فى المجتمع تزيد عن نسبة الرجال دائما، وإن لم تكن الزيادة هائلة. وتزداد هذه النسبة فى أوقات الحروب. فماذا نصنع مع النساء الزائدات اللاتى لا يجدن رجالا يتزوجونهن؟ هل نتركهن يقاسين الحرمان؟ لكن هل هذا تصرف إنسانى؟ أم نقول لهن: اذهبن فازْنِينَ وأشبعن شهواتكن فى الحرام؟ ولكن هل يقول هذا مسلم أو مسلمة؟ والآن بعدما تتزوج النساء الزائدات من بعض الرجال الذين لا يشكلون بين نظرائهم سوى نسبة جد ضئيلة، فإنه لن يتبقى بعد هذا نساء يلبين حاجة الرجال المتطلعين إلى زوجة ثانية أو ثالثة أو رابعة، ومن ثم لن تكون هناك مشكلة تعدد زوجات. أليس هذا ما تقوله الأرقام والحسابات؟ فلِمَ تخلق ودود مشكلة من لامشكلة؟ كما أن أحدا لن يجبر امرأة على أن تكون زوجة ثانية أو ثالثة،

وهى لا تريد . ومَنْ تُؤْثِر العيش عَزَبَةً دون رجل على أن تكون الزوجة الثانية فهى حرة، وإن كنت أظن أن مثل تلك المرأة المستغنية عن الرجال "أندر من الكبريت الأحمر" كما يقول أسلافنا .

ولكى يدرك القارئ مرمى حديثى هذا للدكتورة أمينة ودود أود أن أشير إلى أن إحدى البلاد الإسلامية كانت تجرّم تعدد الزوجات وتعاقب من يفعله، وفى ذات الوقت لا ترى فى الزنى ما يمكن أن يؤاخَذ الشخص عليه. فكان من نتيجة ذلك أن من يضبط متلبسا بالتزوج من امرأة أخرى يلجأ إلى القول بأنها خليلته لا حليلته، وحينذاك يتركونه دون التعرض له بشىء بخلاف ما لو أقر بأنها زوجته، إذ يحال ساعتئذ إلى المحاكمة ويُحْكَم عليه حكما مشددا . فهل تريد ودود أن تتحول البلاد المسلمة إلى تحليل الزنا وتجريم التعدد كما كان الحال فى تلك الدولة المسلمة التى قامت فيها أول ثورة من ثورات الربيع العربى المبارك، وكما هو الأمر فى الدول الغربية، التى كانت تلك الدولة العربية تتخذها مثلا أعلى لها ؟ كذلك ذكر المستشرق الفرنسى المسلم أتيين دينيه أنه، عند منع القانون الجزائرى للتعدد والطلاق فى عهد الاحتلال الفرنسى لبلد المليون شهيد، نجمت ثلاث ظواهر لم يكن لها وجود قبل ذلك: كثرة العوانس، وكثرة اللقطاء، وكثرة الأمراض السرية[١] .

وكأن عناد د . ودود الذى مضى لم يكن كافيا ها هى ذى تؤكد أنه من الخطإ إغفال العدل العاطفى بين الزوجات. طيب، على الرجل قسمة الأيام والليالى والنفقة بين زوجاته بالسَّوِيَّة، وهو مطلب مفهوم، ونادى به الشرع، لكن كيف يسيطر الرجل على قلبه وعواطفه؟ المهم العدل فى الاحترام وفى النفقة وفى الاهتمام، أما العدل فى الحب القلبى فشأن خارج القدرة. بل إن الإنسان لا يستطيع أن يتحكم فى مشاعره تجاه زوجته الوحيدة، فهل نقول له بتطليقها متى ما شعر بنقصان حبه لها جريا على ما تريده ودود من منع التعدد بناء على نفس السبب؟ ثم إن تعدد الزوجات كان ولا يزال وسيظل، كما قلنا، محدود النطاق جدا بحكم أن عدد النساء لا يزيد على عدد الرجال فى أى مجتمع زيادة كبيرة. فلم كل هذه الضجة المصمة على لاشىء؟ وعلى أية حال أين يا ترى تذهب النساء اللاتى لا يجدن زوجا لهن وحدهن؟ ثم هل المجتمع الأمريكى مثلا يحترم الزوجة الواحدة؟ لقد سألتنى مسز أدامك المدرسة الأمريكية التى كانت تعلمنى اللغة الإنجليزية أول وصولى إلى أوكسفورد للدراسة فى جامعتها سنة ١٩٧٦م عن تعدد الزوجات فقلت لها إن المسلمين يعددون فى العلن وبأسلوب نظيف، أما الغربيون فيعددون فى السر بالزنا الدنس، فأَمَّنَتْ على كلامى. وأنا، بعد، من الناحية الشخصية لا أحب التعدد، إلا أن الأمر لا يرجع إلى رغبتى الشخصية بل هو تشريع إلهى لمن يريد الاستفادة به بشرط أن

---

[١] انظر د . عبد الحليم محمود/ فتاوى الإمام عبد الحليم محمود/ ط٥/ دار المعارف/ ١٩٩٨م/ ١/ ٣٥٥– ٣٥٦.

يفى بمستلزماته. أما التنطع والمطالبة بالعدل العاطفى بين الزوجات فليس له من معنى إلا أن ودود تَدِين الرسول وترى أن من الرجال من يستطيع ما لم يستطعه عليه الصلاة والسلام. لقد "كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: "اللهم هذا قَسْمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك". يعنى القلب". ومن كلامه فى صعوبة تحكم الرجل فى عاطفته: "قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الله عز وجل". وطبعا ليس قلب المؤمن وحده الذى بين أصبعين من أصابع الرحمن، بل قلوب العباد جميعا مؤمنين وغير مؤمنين. لكن السياق اقتضى من الرسول التركيز على المؤمن.

وفى الصفحة الثالثة والثمانين وما بعدها تشير ودود إلى أن الآية رقم ١٢٩ من "النساء"، وهى قوله تعالى: "ولن تستطيعوا أن تَعْدِلوا بين النساء ولو حَرَصْتم"، تقول بصعوبة العدل، مؤكدة أن الإسلام يفضل الزوجة الواحدة. ثم تقول إن هناك ثلاث اعتبارات إذا قرأنا القرآن فى ضوئها تبين لنا أنه لا يوجد فيه مسوغ مباشر للتعدد: فمناصرو التعدد يقولون إنه فى الظروف الاقتصادية الصعبة يتعين على الرجل أن ينفق على أكثر من أسرة حتى تستقيم الأمور. وهذا يفترض، فى رأيها، أن المرأة من الناحية الاقتصادية تمثل عبئا ولا تنتج شيئا سوى الأطفال. لكن المرأة فى العصر الحديث، كما تؤكد ودود، لا تحتاج فى الغالب إلى من ينفق عليها، إذ لا أحد ينبغى أن يبقى دون عمل. تقول ودود هذا وكأن العمل فى البيت بتربية الأطفال ورعايتهم وتعليمهم والقيام بشؤون المنزل ليس عملا، بل وعملا منتجا. والعجيب أن يراد للمرأة أن تقوم بهذه الأعمال لناس آخرين: معلمةً فى مدرسة، أو ممرضةً أو طبيبة أو سكرتيرةً أو كواءةً أو طباخة أو جليسة أطفال... إلخ، فى الوقت الذى يُرْفَض فيه قيامها بمثل تلك الأعمال لأفراد أسرتها. أما بالنسبة للاعتبار الثانى، وهو المرأة التى لا تحمل، فتقول إنه لا يوجد فى القرآن شىء عن ذلك. وعلى أى حال فإنه، فى المجتمع المسلم الذى يكثر فيه الأطفال اليتامى، يمكن الزوجين اللذين لا ينجبان أن يقوما برعاية بعض أولئك الأطفال حسبما تقترح. بل إنها لتمد هذا الحل ليشمل كل الأطفال اليتامى فى العالم. أما الاعتبار الثالث، وهو أن الرجل قد لا تُرْضِى نزعتَه نحو النساء امرأةٌ واحدةٌ، فهو غير موجود فى القرآن بل غير قرآنى بالمرة طبقا لكلامها، إذ معناه فى نظرها أن الإسلام يريد من المرأة وحدها أن تتحكم فى مشاعرها وشهواتها بينما يترك الرجل مطلق السراح يفعل ما يريد ولا يزيد عن الحيوان فى شىء. والحق أن ودود، بكلامها هذا، تتناسى، كما وضحنا آنفا، أن نسبة النساء فى المجتمعات أكبر من نسبة الرجال، وأن هذه النسبة تزيد فى أوقات الحروب زيادة ملحوظة. فكيف نواجهها؟ فأما فى أوربا فقد واجهوها بالزنا والدعارة، وأما فى الإسلام فبالتعدد. كما أنها أيضا تنسى أنه فى مجتمع إسلامى سليم لا يمكن أن تتزوج المرأة من رجل متزوج (أو

غير متزوج) دون رغبتها . ثم إن القرآن لم يحرم التعدد بل أباحه ومارسه الصحابة والرسول. ومن الطبيعى فى الظروف العادية أن تكون معظم الأسر قائمة على الزوجة الواحدة لأن تفوق نسبة النساء على الرجال فى تلك الظروف ليست بالكبيرة. أما فى أزمنة الحروب ووفاة كثير من الرجال بسبب اشتراكهم فيها فلا بد أن تُسْتَوْعَب النساء اللاتى لا أزواج لهن. وليس التعدد فى الإسلام بدعا، فالمورمون مثلا يعددون دون حدود، وفى التوراة يوجد تعدد، وليس فى الإنجيل مانع من التعدد . وكان فى أوربا النصرانية من يعدد قبيل العصر الحديث. وما دام الرجل يستطيع أن ينفق ويرعى أكثر من زوجة وأطفالها فلماذا إغلاق الباب نهائيا ؟ بيد أنى على المستوى الشخصى لا أميل إلى التعديد، ولا أستطيع أن أقوم بأعبائه، وهو ما أشار إليه القرآن فى الآية المذكورة التى لا تعنى أنه يغلق الباب تماما، بل تعنى أنه لا ينبغى أن يقدم على التعدد من لا يستطيع القيام بمسؤولياته.

وفى ضوء ما قلته أرى أن المشكلة سوف تحل نفسها بنفسها: فزيادة النساء متحققة، وبعض الرجال يحبون التعدد ويستطيعونه ماديا ونفسيا، والمرأة لا تُجْبَر على الزواج بمن لا تريد . فما المشكلة إذن، وبخاصة أن المرأة التى تتزوج رجلا متزوجا ترغب لسبب أو لآخر فى ذلك؟ طبعا سوف تكون هناك ثغرات فى الأمر، لكن المنع المطلق ليس هو الحل، وإلا فما من نظام إلا وبه ثغرات، فهل نهدم كل نظام بهذه الطريقة؟ إذن لن يكون هناك أى نظام مطلقا . والملاحظ أن د . أمينة ودود تنظر إلى الحضارة الغربية على أنها المقياس الذى ينبغى للمسلمين استلهامه، بما يعنى أن تلك الحضارة تمثل قمة التقدم الأخلاقى والتشريعى، وأن الإسلام مجرد حلقة من حلقات التقدم تجاوزها الزمن، وعلى المسلمين الانصياع لما يراه الغرب، وأمريكا بالذات.

وودود يسارية وبعدحداثية. ومن آرائها الغريبة المريبة، حسبما تقول ترجمتها فى"الويكبيديا" الفرنسية، أن الحجاب ليس بالشىء المهم، بل المهم هو الحشمة، وهذه تتحقق بالحجاب وبغيره. ومن هنا فإنها، وإن لبسته، يمكن أن تخلعه متى شاءت دون أدنى حرج. وهى تبدى ترحيبها بوجود حركات إلحادية إسلامية، وتراها شيئًا طيبا . كما تزعم أن الجهاد ليس أكثر من مسألة تاريخية لم يعد لها مكان فى العصر الحديث. طبعا كى يمرح الأمريكان على راحتهم أربعة وعشرين قيراطا فى بلاد المسلمين ويهدموا بيوتنا ويغتصبوا نساءنا ويقتلوا أطفالنا، فضلا عن وقوفهم دائما إلى جانب إسرائيل بعد أن خلقوها مع الإنجليز خلقا، كل ذلك دون أن يتعرض لهم أحد بكفاح، إذ لم يعد هناك جهاد ولا يحزنون، ولم يبق أمام المسلمين والمسلمات إلا أن يوجهوا كل جهودهم وفكرهم واهتمامهم نحو إمامة المرأة للرجال فى صلاة الجمعة. فإذا تم لهم هذا المراد من رب العباد فقد بلغوا غايتهم من الوجود وصاروا

فى مقدمة الركب العالمى. وهذه الدعوة المريبة إلى نبذ الجهاد تذكرنا بما قاله فى القرن التاسع عشر الميرزا غلام أحمد النبى القاديانى المزيف لصالح الإنجليز، الذين كانوا يحتلون الهند يومئذ، وكان المسلمون يجاهدونهم لإخراجهم من بلادهم. كما يُنْسَب إليها، حسبما جاء فى ترجمتها بالنسخة الفرنسية من "الويكيبيديا"، مناصرتها للزواج المثلى بين المسلمين والمسلمات[1]. وواضح أن لها آراء لا تتفق وتشريعات الإسلام. وإن إمامتها للرجال والنساء اللاتى لا يغطى بعضهن شعورهن ويلبسن بنطلونات محزقة ويصلين إلى جانب الرجال وأمامهم لهى مثال فاقع على هذا التمرد والاضطراب. وواضح أيضا أن وضعها الاجتماعى ملخبط كبقية زميلاتها. وفى كتاب جلال أمين: "ماذا علمتنى الحياة؟ سيرة ذاتية" نراه يتعجب "من أن كل امرأة تقريبا تقابلها هنا (أى فى أمريكا) مطلَّقة. إن الجميع يحاول أن يجد شيئا يعطى لحياته معنى. فإذا لم يجده فى امرأة جديدة أو لم يسمح له دخله بذلك لجأ إلى السُّكْر أو المخدرات"[2].

ولا يتوقف تلاعب ودود بالنصوص القرآنية عند هذا الحد، بل تمضى (ص٨٥) فى التلاعب بالآية ٢٨٢ من سورة "البقرة"، وهى الآية الخاصة بالشهادة على الديون، زاعمة أن القرآن، بالنسبة للمرأتين اللتّين ستحلان محل الرجل الثانى حين لا يتوفر رجل ثان، لا يسميهما "شاهدتين" بل يقول إن إحداهما سوف تذكّر الأخرى. . . إلى آخر العبث الذى تعتمده فى تفسير الآيات واستخلاص الأحكام. ذلك أن القرآن يقول: "واستشهدوا شهيدين من رجالكم. فإن لم يكونا رجلين فرَجُلٌ وامرأتان". ومعنى الكلام بالعربى الفصيح أنه إن لم يكن هناك شاهدان من الرجال فليكن هناك شاهد من الرجال وشاهدتان من النساء. وإلا فعلى نفس منوالها نستطيع أن نقول إن الرجل الذى ستكون معه امرأتان ليس "شاهدا" لأن القرآن لم يقل عنه إنه شاهد كما قال عن الرجلين قبله. لكن هذا عبث نُعِيذ أنفسَنا أن نمضى فيه. أم تريد ودود أن يكلم القرآن العرب كما لو كان يخاطب أمريكانا مبتدئين فى تعلم اللغة العربية، فيكرر كل كلمة على نحو ركيك مضحك؟ إن أمينة ودود تظن أن العرب أعاجم يتعلمون العربية تعلما ولا يتحدثونها بالسليقة، ولا يفقهون النص القرآنى إلا إذا كُتِب بطريقة الترجمة التفسيرية. ولو سايرْنا ودود فى هذا فإننا نتساءل: وفى أى شىء سوف تُذَكّر إحدى المرأتين زميلتها؟

---

[1] "Elle… se dit même en faveur de l'autorisation du mariage homosexuel entre musulman-e-s".

[2] انظر د. جلال أمين/ ماذا علمتنى الحياة؟ سيرة ذاتية/ ط٢/ دار الشروق/ أغسطس ٢٠٠٧م/ ٢٧١، وأيضا ٣٧٠ وما بعدها.

ثم تمضى دكتورتنا فى عبثها زاعمة (ص٨٦) أن المقصود بالاستعانة بامرأتين تحلان محل الرجل الغائب هو تجنب وقوع المرأة ضحية فى مجتمع ذكورى يقهرها ويضغط عليها كى تشهد بالزور، فتأتى الأخرى لتذكّرها . طيب، وكيف ستنجو الأخرى من ضغط ذلك المجتمع الذكورى؟ ثم لماذا لم يقل القرآن: "خشية أن تقع تحت ضغط الرجال"، وقال بدلا من ذلك: "أن تَضِلّ[١]، فتُذَكِّر إحداهما الأخرى"؟ وإذا كان الرجال قليلى الذمة إلى هذا الحد فلم جعل القرآن، فى أمر الديون، شهادة الواحد منهم، وهم المجرمون القراريون حسبما يفهم من كلامها، بشهادة اثنتين من الجنس اللطيف المسكين الذى لا يشهد بالزور لولا الوحوش المُسَمَّوْن: "رجالا"؟ بل لماذا لم يستبعد شهادةَ النساء بالكلية ويريح ويستريح؟ ولماذا لم يجعل شهادة المرأة دائما نصف الرجل، وقصر ذلك على المعاملات المالية مع أن هناك أمورا أخطر من الأموال يُخْشَى فى هذه الحالة أن تقع فيها تحت ضغط ذكورى أعنف وأشنع كما فى أمور النسب والقتل والاغتصاب والمواريث والسرقة وما إلى ذلك؟

واستمرارا منها فى العبث ترى د. ودود (ص٨٧) أن إعادة النظر فى أحكام المواريث ستؤدى إلى إعادة توزيعها بطريقة مختلفة، ضاربة المثل بالأم التى مات عنها زوجها ولها ابن وبنتان، إذ تتساءل: كيف تطالَب البنتان أن تتوليا هما رعاية أمهما، فى الوقت الذى يُعْطَى الابن نصيبا مضاعفا؟ وبدورنا نسألها نحن: ومن أين لك بأن البنتين هما التى تتوليان رعاية أمهما والإنفاق عليها، وعندها ابنها؟ كما تشير إلى أن نصيب الأنثى ليس دائما نصف نصيب الذكر، وذلك من واقع الآيات التالية للآية المشهورة. وهذا ما لا نجد مسوغا لمخالفتها فيه لأنه صحيح.

وبالنسبة للقيادة تقول ودود (ص٨٨– ٨٩) إنها فى القرآن تقوم على أن يتولاها من هو أصلح لها أيا كان نوعها بما فى ذلك قيادة الأسرة، مضيفة أن الذكور فى المجتمع الجاهلى كانوا أكثر خبرة بالحياة العامة من النساء آنذاك، ومن ثم كانت القيادة لهم فى أمور السياسة والاقتصاد . إلا أنه من الخطإ الظن بأن الرجال ينبغى أن تكون لهم القيادة دائما وفى كل الظروف، إذ القرآن لا يقصر القيادة عليهم. وعلى هذا فإذا كانت المرأة أفضل كان لا بد أن تُسْنَد إليها تلك القيادة، وهو ما تحقق لها عبر الأربعة عشر قرنا الماضية. بل إنه لا يوجد فى القرآن ما يوحى بأن القيادة قد خُلِقَتْ للرجال حصريا، إذ صُوِّرَتْ بلقيس فيه تصويرا جيدا للغاية، بل كانت الحاكمة الوحيدة التى صورت فيه من خارج الأنبياء تصويرا يدل على أنها تستحق الاعتبار. ويكفى فى تفنيد ما قالته عن قوامة الأسرة ما أكده القرآن المجيد حين

---

[١] تقرأ ودود هذه الكلمة مضمومة التاء: "تُضِلّ". وقد لاحظت أكثر من مرة أنها لا تفهم العربية جيدا.

أعلن بكل قوة: "الرجال قوامون على النساء" . فهل بعد قول الله قول؟ وهل هذا النص القرآنى يمكن أن يقبل مثل تلك المماحكات؟

ثم هل ما قالته ودود عن حكم ملكة سبإ صحيح؟ فأين نجد ذلك فى القرآن يا ترى؟ فأما بالنسبة إلى سلوكها الدينى فقد نص القرآن على أنها وثنية تعبد الشمس ولا تسجد لله، ولم تهتد إلى الإيمان به سبحانه إلا بعد اللَّتَيَّا والتى، وعلى يد رجل هو سليمان عليه السلام، وبعدما عاينت من قوته ومقدرته ما عاينت، وتبين لها أنه لا محيص لها عن ذلك. وأما سلوكها السياسى فكان يساعدها مجلس من الرجال يسمى: "الملأ" . وماذا نفعل فى أحاديث الرسول وفى تصرفاته السياسة، وهو لم يختر امرأة لحكم ولاية، فضلا عن دولة؟ ثم إن ودود قد تجاهلت حكم الملكة على نفسها ضمن حكمها على الملوك بوجه عام حين قالت: "إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة، وكذلك يفعلون"، مما يشير إلى فهمها للملكية، وهو ما يضرب فى الصميم ما قالته الكاتبة عن الملكة واستقامة حكمها .

وتنطلق د . ودود مثل قطار لا كابح له يكتسح فى طريقه كل شىء، مؤكدةً أنْ ليس فى القرآن ما يمنع المرأة من السيادة على الرجال أو النساء جميعا ، بل ليس فيه إلا أن يُسْنَد كل عمل إلى من هو أهل له رجلا كان أو امرأة. وعلى هذا تقول إن الرجل قد يكون أصبر على التعامل مع الأطفال. كما ترى أن تأهُّل أىٍّ من الذكر أو الأنثى لتأدية وظيفة معينة ليس أمرا ثابتا بل متغيرا على الدوام من مجتمع إلى آخر، ومن ظَرف إلى آخر. بل إنها لترى فى قيام المرأة برعاية الأطفال وضعا مفروضا من الرجال رغم أن القرآن ينهى أن تضارَّ المرأة بسبب مولودها . وإذا كان القرآن يقول إنها هى التى ترضع مولودها فإن ذلك لا يكون إلا بملء حريتها حتى إنها لو رأت، وحدها أو مع زوجها ، أن تسلمه إلى مرضعةٍ غيرها فلها ذلك. ماش، لكن المرضعة ستكون امرأة أيضا ، وهذا هو المهم. والحمد لله أن د . ودود لم توجب على الرجل القيامٍ بمهمة الحمل والولادة والرضاعة إذا كانت زوجته مشغولة بما هو أهم من الحمل والرضاعة. وعندها أن قيام المرأة بأعمال المنزل، التى تقوم بها تقليديا ، هو أمر اتفاقى لا وجوبى. فإذا كان الرجل هو الذى ينفق على الأسرة ولا تعمل المرأة خارج البيت فهذا مقبول، أما إذا كانت تعمل مثله خارج البيت فمن الطبيعى أن يشارك فى أعمال المنزل. ثم تستشهد هنا بآية قرآنية لا علاقة لها بالموضوع، إذ الحديث فيها عن الأعمال الصالحة وأن الله لا يضيع أجر من يقوم بها على وجه حسن، لا عن تقسيم التخصصات فى البيت بين الرجل والمرأة. ومن رأيها أن المرأة إذا كانت هى التى تتولى الإنفاق على الأسرة فى غياب الزوج فالقوامة تنتقل إليها تلقائيا . وهى تنظر إلى عمل المرأة المنزلى على

أنه مهمة الخدم، وتنظر إلى الحمل والولادة على أنهما وظيفة من وظائف الحيوان. أإلى هذا الحد يبلغ عناد ودود حتى لتشبه المرأة فى حملها ووضعها وإرضاعها بالحيوان؟ ترى أهذا هو السبب فيما يقال من أنها تناصر زواج المثليين بوصفه لا حمل فيه ولا وضع ولا رضاعة ولا عناية بأطفال؟

وفى الفصل الأخير من الكتاب تفرق ودود (ص٩٤) بين مستويين من تفسير القرآن: مستوى القراءة، وفيه تتدخل مواقف الشخص وتجاربه ووجهات نظره فى عملية القراءة وتشكلها تشكيلا كما تقول. وفى هذا المستوى يظهر أيضا تأثير بعض المفاهيم المتعلقة بالذكورة والأنوثة. أما فى المستوى الثانى، وهو مستوى التفسير، فإن الشخص يبذل جهده كى يكون أكثر موضوعية، مستعينا بعلوم القرآن والتأويل (الهرمنيوطيقا)، وإن كان معروفا أنه ما من مفسر يستطيع التخلص من كل تأثيرات القراءة الأولى ا لتى تخضع للاعتبارات الشخصية. وتعليقنا على هذا الكلام أن ما تقوله عن الموضوعية والحيادية هو الأمر المفترض، إلا أن الواقع ليس بهذه البساطة، إذ ها هى ذى ودود نفسها تستعين بما تقول، لكنها للأسف تستعين به لإثبات وجهة نظرها المسبقة. أى أن علوم القرآن والهرمنيوطيقا كانت فى خدمة موقفها الأَوَّلِىّ الذى دخلت به بحثها، علاوة على ضعفها فى العربية الواضح من قراءتها الخاطئة للكلمات البسيطة التى لا تشكل أية صعوبة فى النطق. ثم هل تظن سيادتها أن المفسرين الذين يخالفونها فى الرأى والموقف لم يستعينوا بعلوم القرآن، ويعرفون القرآن ويلمون بعلومه أفضل منها بما لا يقاس؟ ثم إن كل طائفة منهم لها فى بعض القضايا آراء مختلفة عن آراء الطوائف الأخرى. ومن هنا كان عندنا تفاسير السنة، وتفاسير الفقهاء، وتفاسير الصوفية، وتفاسير المعتزلة، وتفاسير الشيعة، وتفاسير الخوارج، وتفاسير الباطنية. . . بل لقد رأيتُ تفسيرا نصرانيا للقرآن على المشباك. فكيف تفسر ذلك؟ أوتظن دكتورتنا أن كل طائفة من هذه الفرق لا تعرف كيف تستعين بعلوم القرآن؟ من ثم كان المهم عندى هو الرغبة الحقيقية فى توخى الموضوعية قبل كل شىء. وهذه نقطة نفسية وأخلاقية لا علاقة لها بعلوم القرآن ولا بالهرمنيوطيقا، وهى ماتفتقر إليه ودود بكل وضوح.

وفى رأي أمينة ودود (ص٩٥) أن عملية التفسير لن تتوقف ما استمرت الحياة، وأنه لا يوجد تفسير نهائى وحاسم. ولكنها سرعان ما تضيف أن ما قدمتْه هى من تفسير يخص وضع المرأة يعلو فوق الاعتبارات المحدودة التى وقعت فيها التفاسير السابقة. وهو ما يعنى أن تفسيرها تفسير نهائى وحاسم، ويضرب ما قالته قبل قليل فى الصميم، وإن أضافت أن النص القرآنى ذاته يتضمن بعض المحدودية لأنه كان يخاطب المجتمع المكى المعاصر لنزوله، إلى جانب المحدودية التى يتسم بها عقل كل مفسر، والتى انعكست فى تفسيره فلم يراع عالمية الإسلام وشموليته. ومؤدى هذا أنها هى الوحيدة

التى نجحت فى ذلك، وهو غرور متهافت يذكرنا بما ادعاه بعض المفكرين الأمريكان من أن الحضارة الأمريكية تمثل نهاية التاريخ.

وانطلاقا من هذا الموقف ترى ودود (ص٩٥) أن من السهل تأقلم القرآن مع وضع المرأة فى العصر الحديث بسلاسةٍ مثلما تأقلم بنفس السلاسة مع أوضاع عصر نزوله، فهو نص عالمى، وأى تضييق لمعانيه بحيث تعكس مفهوم المحدودية لا الشمولية هو فشل فى التفسير، وأنه ما من أمة تشبه فى أوضاعها أمة أخرى. ومعنى ذلك أن القرآن ينبغى تطويعه تبعا لكل بيئة. فما فائدته إذن؟ فلتقل بصريح العبارة هى ومن يَلفُفْنَ لفَّها إنهم لا يحتاجون القرآن فى شىء لأنهم يستطيعون التصرف بدون هدايته ما داموا هم الذين سوف يوجهونه لا هو. وهنا تؤكد د. ودود أنْ ليس فى القرآن ما يدل على أن ما شرعه ليواجه به أوضاع عصره هو الغاية النهائية، التى تقتصر على بعض المبادئ العامة كالعدالة والانسجام والمساواة والمسؤولية الأخلاقية. ولكن أين خصوصية الإسلام إذن إن غَيَّرْنا تشريعات الميراث والقوامة والشهادة وما إلى ذلك مما تريده ودود، مكتفين بهذه الخطوط العامة التى سوف تدعى كل حضارة وكل أمة أنها تتوخاها فى تشريعاتها وتصرفاتها؟

وتدعى ودود أيضا (ص٩٥- ٩٦) أن جميع التفسيرات الماضية قام بها الرجال وعكست فهمهم وتحيزهم، وأن النساء إذا كُنَّ سَكَتْن على تلك التفسيرات فعَنْ كَرْهٍ وعجزٍ عن الدفاع عن حقوقهن لا عن رضا. وهو كلام غير صحيح، وإلا فهل كانت النساء فى عهد النبى والصحابة ليسكتن عما يقوله الرجال فى تفسير القرآن لو وجدن أنهم يجحفون بحقوقهن؟ إن ودود تتجاهل مطالبة النساء للنبى أن يخصص لهن يوما مستقلا لا يشاركهن فيه الرجال، كما تتجاهل ملاحظتهن الخاصة باستعمال القرآن ضمير المذكر فى مخاطبة المؤمنين وكأنهن غير موجودات رغم أن ضمير المذكر فى هذه الحالة يعنى الرجال والنساء جميعا. "قال مقاتل بن حيان: بلغني أن أسماء بنت عُمَيْس، لما رجعت من الحبشة معها زوجها جعفر بن أبي طالب، دخلت على نساء النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: هل نزل فينا شيء من القرآن؟ قلن: لا. فأتت رسول الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، إن النساء لفي خيبة وخسار. قال: ومم ذلك؟ قالت: لأنهن لا يُذْكَرْن بالخير كما يُذْكَر الرجال. فأنزل الله تعالى: "إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَاتِ"... إلى آخرها". كذلك كيف فاتها مطالبة النساء للنبى أن يساويهن بالرجال فى مسألة الجهاد، مما كانت نتيجته أنْ بيَّن لهن أن حسن تبعُّل المرأة لزوجها يعدل عند الله جهاد الرجال فى سبيل الله، أو اعتراض امرأة على عمر حين تدخَّل فى أمر المهور وطالب بضرورة تخفيضها حسب فهمه للقرآن، ونزوله رضى الله عنه على اعتراض المرأة وسحبه ما قاله وتصريحه الذى ما زال يدوى من

يومها فى جنبات التاريخ: أصابت امرأة، وأخطأ عمر. وبالمثل تتجاهل ودود اعتراض عائشة على القول بأن مرور المرأة أمام المصلى يفسد صلاته. ثم لقد كان للمرأة اعتراضاتها فى كل شىء طوال التاريخ الإسلامى، فما الذى منعها أن تقول رأيها بخصوص تفسير القرآن لو كانت قد رأت أنه تفسير ذكورى يظلمها ويفتئت عليها ؟

وتحصر ودود (ص٩٦) تفوق الرجل على المرأة فى التفوق العضلى لا غير، قائلة إن الرجال انتهزوا هذا التفوق وظلموا النساء ظلما بشعا وحشيا رغم أن هذا التفوق العضلى لا يعطيهم الحق فى الادعاء بأنهم أذكى منهن وأحكم. ثم تضيف قائلة إن من يرون الرجل أفضل من المرأة وأذكى وأن من حقه القِوَامة على الأسرة وأن واجبه هو الإنفاق على الاسرة، وليس واجب المرأة. . . إلخ سوف يفسرون القرآن فى ضوء هذه الأفكار. ويساعدهم فى هذا أن القرآن لا يحدد المبادئ والقيم التى يدعو إليها، بل يتركها مفتوحة.

كما تقول (ص٩٧) إنها درست القرآن بالتفصيل دراسة جزئية (كلمات وعبارات) وكلية (مبادئ ومفاهيم وقيما). والمفروض، حسب رأيها، أن تُدْرَس الألفاظ والعبارات دائما فى ضوء المعنى الكلى لا العكس. ثم تضيف أن هناك مفسرين يضيّقون واسعا فيظلمون المرأة، وبدلا من الارتفاع إلى مستوى النص القرآنى يهبطون بالنص إلى مستواهم، وهو ما تقول إنها أخذتْ على عاتقها أن تحاربه. ومثالا على هذا نراها (ص٩٨– ٩٩) تتهم العقاد بالتحيز ضد المرأة ونسبة رأيه الشخصى فيها إلى القرآن كما فى قوله، فى كتاب "المرأة فى القرآن"، إن الكيد فى كتاب الله مقصور عليها رغم أن الكيد فيه منسوب أيضا إلى الرجال بل إلى الله نفسه كما قالت. ثم تمضى فتشكو أن هذه الآراء التى تصدر عن مفكرين كبار كالعقاد تكون نتيجتها ترديد القراء لها دون تفكير، وتحميل المرأة تبعة كل شر بوصفه فطرة لها رغم أن القرآن يدعو إلى احترامها لأنها هى التى تحمل وتُرْضِع وتعتنى بالأطفال، ويسويها بالرجل من ناحية الاستعداد للهداية واستحقاق الجنة بما تأتيه من عمل. والواقع أن ما قالته عن العقاد بشأن الكيد غير صحيح، فقد قال رحمه الله قبل ودود بزمن طويل إن الكيد فى كتاب الله منسوب أيضا إلى الله وإلى الرجال، وإن كان يفرق بين كيد الرجال وكيد النساء، وهو أمر طبيعى، إذ لا يعقل أن يكون الكيد الذى يصدر عن أحد النوعين مشبها تمام الشبه للكيد الذى يصدر عن النوع الآخر.

ومع ذلك فإنى أوافقها على أنه لم يكن فى القديم، فى حدود علمى، مفسرات للقرآن من النساء كالمفسرين الرجال. إلا أن هذا لا يعنى أن كل ما قاله الرجال فى حق المرأة كان ظلما لها وإجحافا بها وطمسا لحقوقها. ترى من حفظ لنا القرآن الكريم وروى الأحاديث الشريفة بما فيه وفيها من دفاع عن

المرأة ضد الظلم الذى كان واقعا عليها فى الجاهلية وفى الحضارات السابقة على الدعوة المحمدية، وإثبات لحقوقها التى جاء بها الإسلام؟ أليسوا هم الرجال فى المقام الأول؟ ترى من قال بجواز إمامة المرأة للرجل بغض النظر عن موافقتنا أو مخالفتنا لهم؟ أليسوا بعضا من نوع الرجال؟ ترى من نادى فى العصر الحديث بتحرير المرأة من الخرافات والاضطهادات وإعطائها فرصة متساوية مع الرجل وإعمال نصوص القرآن والحديث التى أعطتها تلك الفرصة منذ زمن بعيد؟ أليسوا هم رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده وقاسم أمين وعبد المتعال الصعيدى ومحمود شلتوت ومحمد الغزالى مثلا، إلى جانب جيش جرار من الكتّاب والشعراء الرجال الذين يتحمسون للمرأة ويرددون آراء هؤلاء العلماء فى ضرورة إنصافها؟ ولقد اقتصرتُ هنا على مصر لأنها هى البلد الذى أنتمى إليه وأعرفه أفضل مما أعرف غيره من بلاد المسلمين. ترى من الذى وقف عند الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تنصف المرأة وأبرزها وركز الضوء عليها ووقف ضد تيار الجهل الظالم للمرأة؟ أليسوا هم الرجال؟ ومن يا ترى الذين استجابوا لتلك الدعوة فعلموا بناتهم وقدموا لهن نفس الفرصة التى يقدمونها لأبنائهم؟ أليسوا هم الآباء؟ أليس الآباء ينتمون إلى جنس الرجال؟ ثم إلى أى جنس من الجنسين ينتمى الحكام والوزراء والمسؤولون الذين طبقوا هذه الدعوة وسهلوا للمرأة الطريق إلى تبوإ مكانتها اللائقة؟ أليسوا ينتمون إلى جنس الرجال؟

فما بال أمينة ودود إذن تزعم أن المفسرين الرجال قد ظلموا المرأة لأن الرجل بطبيعته ينطلق مما يؤمن به من ذكورية تحتقرها ولا ترى لها حقا فى المجتمع؟ إننا بنفس الطريقة نستطيع أن نرد عليها بأنها هى أيضا لن تصيب الحق والحقيقة لأنها امرأة، والمرأة لا بد أن تنطلق مما تؤمن به من نسوية تحقر الرجل وتتهمه زورا وبهتانا بظلمه للمرأة وتردّد أنه لا فرق على الإطلاق بينها وبينه رغم ما يقوله الواقع من أنهما نوعان متباينان بما يترتب على ذلك من أن لكل نوع خصائصه التى يتميز بها عن نظيره، وإن اشتركا فى ذات الوقت فى بعض الصفات العامة؟ أم ترى النساء ملائكة مطهرات لا يعرفن التحيز ولا الظلم ولا الخطأ؟ وإذا كان الشىء بالشىء يُذْكَر فقد قلت هذا الكلام، ولكن بإيجاز شديد، للدكتورة أسما بارلس فى إيميل أرسلته إليها لما طلبتْ منى أن ألخص لها ما سجلتُه فى كتابى: "النساء فى الإسلام- نسخ التفسير البطرياركى للقرآن لأسما بارلس: النص الإنجليزى مع دراسة موازية"، الذى تناولتُ فيه كتابها: "Believing Women in Islam"، والذى بعثت لها بنسخة منه فى البريد

الألكترونى بغية التواصل العلمى بين أساتذة الجامعات، فغضبتْ وقالت إننى لم أفهم ما تقوله فى الكتاب لأنى ضعيف فى الإنجليزية[١] أو كلاما بهذا المعنى. وانتهى التراسل بيننا عند هذا الحد .

ومما قالته أيضا أمينة ودود (ص١٠٠– ١٠١) ولا يمكن قبوله أن صياغة القرآن فى موضوع المرأة قد تأثرت بأوضاع المجتمع العربى وقت البعثة، إلا أن هذا لا يعنى عندها أن هذا هو موقف القرآن من المرأة فى كل الأحوال. وهذا الكلام معناه أن الأوضاع العربية هى التى أثرت فى القرآن لا العكس. فهل هذا مما يمكن أن يعتقده مسلم؟ ودعونا من الواقع التاريخى، الذى يقول بملء فيه إن النبى لم يتقاعس يوما عن مواجهة الأوضاع المنحرفة مواجهة حاسمة أو متدرجة تأخذ وقتا فى معالجتها ومحوها . وفى هذا الصدد تقول الكاتبة (ص١٠١) إنها درست القرآن دراسة تاريخية كى تبين ما يعتمده من تطور تدريجى لمعالجة أوضاع راسخة فى المجتمع العربى لا يمكن اقتلاعها مرة واحدة. تقصد موضوع المرأة وحقوقها . لكن لو كان الأمر كذلك فى هذه القضية لوجدنا القرآن يفعل ما فعله فى شأن الخمر، إذ تدرج فى فطم المسلمين عنها على ثلاث مراحل انتهت بتحريمها تحريما تاما استجاب له المسلمون فى الحال، أو ما فعله فى شأن تحديد النسبة العددية التى يحتاجها المسلمون لإحراز النصر على الكافرين فى القتال، فقد طلب منهم فى البداية أن يواجه الواحد منهم عشرة من الكفار وينتصر عليهم، ثم خفف عنهم ذلك وجعل النسبة اثنين إلى واحد، أو لقال الرسول شيئًا شبيها بالحديث التالى عن بنيان الكعبة، إذ صارح أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بقوله: "لولا أن قومك حديثو عهد بالجاهلية لهدمتُ الكعبة وجعلتُ لها بابين" أو بما رد به على عائشة حين سألته: "يا رسول الله، إن قوما حديثي عهد بالجاهلية يأتون بلُحْمَان لا ندري أذكروا اسم الله عليها أم لم يذكروا . أفنأكل منها؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سَمُّوا الله وكُلُوا" . وهذه بضعة أمثلة ليس إلا .

وبنفس الطريقة تقول د . ودود (ص١٠١) إن الوحى قد انتهى وفارق الرسول الدنيا قبل أن يضع حدا لنظام العبودية، وإن القرآن لم يقصد قط أن تكون العبودية نظاما دائما . وتعقيبنا على هذا أنه ليس فى القرآن تقنين للعبودية، بل فيه كلام عن الأسرى، الذين يتوجب على المسلمين بعد انتهاء الحرب أن

---

[١] لما طلبت منى د. بارلس، وهى أستاذة جامعية فى الولايات المتحدة من أصل باكستانى، أن أعطيها فكرة عما فى الكتاب تأكدت مما كان يتردد فى خاطرى بعد قراءتى لكتابها المذكور من أنها لا تعرف العربية، فأومأت برفق إلى أنها، فيما يبدو، لم تدرس لغة الضاد. ولم أقل سوى هذا. فكان أن غضبت وقالت ما قالت رغم أنى لم أقصد قط التقليل من شأنها. وقد كانت هذه المسألة تشغلنى أثناء قراءتى لكتابها، إذ لاحظت أنها تعتمد على الكتب الإنجليزية دون العربية، مما أتصور أنه مسؤول، ضمن أشياء أخرى، عن آرائها غير السديدة فى موضوع المرأة، تلك الآراء التى ينبغى أن تُسْتَقَى من القرآن والحديث، وهما عربيا اللغة.

يمنوا عليهم بتركهم يعودون إلى أهليهم دون مقابل أو يطلقوا سراحهم لقاء فدية، فضلا عن أن الإسلام ينتهز كل سانحة لتحرير الرقيق مهما كانت تافهة. ألا يكفى هذا للقول بأن القرآن قد وضع حدا للعبودية؟ ثم إن الاسلام ليس هو الذى أوجد الرق، بل وُجد قبله بأحقاب وأحقاب عند مختلف أمم الارض. وكان الرقيق فى الأعم الأغلب من أسرى الحروب، فأتت الآية الرابعة من سورة "محمد" وضربت هذا النظام ضربة مصمية، إذ جعلت مصير أسرى الكفار الأعداء الذين يقعون فى أيدى المسلمين بعد انتهاء الحرب إطلاق سراحهم إما بفداء أو بدون فداء كما سلف القول، ولم تأمر بقتلهم أو استرقاقهم. قال تعالى: "حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا". وهنا لا بد من التنبيه إلى أنه ليس هناك أى نص قرانى أو نبوى يجيز أو يوافق على أَسْر المسالمين أو المحايدين أو المعاهَدين من غير المسلمين فضلا عن استرقاقهم. وليس من الجائز فى الإسلام أن يسترقّ المسلمون إخوانهم فى الدين عند وقوع قتال بينهم. أما الفرص التى يهتبلها الإسلام لفك الرقاب فمنها أن لهم سهما فى مصارف الزكاة يساعدهم فى التحرر من العبودية. كما أن للرقيق الحق فى افتداء أنفسهم بمال يدفعونه لمالكهم. كذلك جعل الإسلام عتق الرقاب كفارة عن عدد من الأخطاء التى لا يستطيع الإنسان أن يتجنبها. وفوق هذا جعل الإسلام من تحرير الرقيق حسنة يتقرب بها المسلم إلى ربه.

نخرج من الكتاب بأن ودود لا تريد، فيما هو واضح، شريعة الإسلام بل شريعة الغرب، إذ أتت إلى التشريعات الخاصة بالنساء فقلبتها رأسا على عقب بالسفسطة والتنطع، ثم هى فوق ذلك تريد أن تقنعنا بأنها قد أحسنت صنعا. كذلك ألفيناها تتجاهل السنة وتركز على القرآن. ومعروف كيف خرج أحمد صبحى منصور عن كثير من شريعات الإسلام من خلال تجاهل السنة والزعم بأن القرآن فيه كل شىء. كما رأيناها بأم أعيننا فى صلاة الجمعة تتقدم الرجال وتؤمهم، والنساء قائمات لصقهم أو ساجدات أمامهم وقد لبس بعضهن البنطلونات الضيقة وكشفن عن شعورهن وصدورهن وأذرعهن، مما لا يقبله الإسلام أبدا، مدعيةً أنها تريد أن يكون للمرأة دور فى دُور العبادة وشعائرها، آتيةً بأمر إدٍّ لا يرضاه الإسلام ولم يفعله الرسول ولا الصحابة ولا أحد من المسلمين طوال تلك القرون المتطاولة التى مرت من لدن سطوع الإسلام حتى الآن.

نبذة عن المؤلف

- إبراهيم عوض
- من مواليد قرية كتامة الغابة- غربية فى ٦/ ١/ ١٩٤٨م
- تخرج من آداب القاهرة عام ١٩٧٠م
- حصل على الدكتورية من جامعة أوكسفورد عام ١٩٨٢م
- أستاذ النقد الأدبى بجامعة عين شمس
- البريد الضوئى: Ibrahim_awad9@yahoo.com
- المؤلفات:

معركة الشعر الجاهلي بين الرافعى وطه حسين
المتنبي- دراسة جديدة لحياته وشخصيته
لغة المتنبي- دراسة تحليلية
المتنبي بإزاء القرن الإسماعيلي في تاريخ الإسلام (مترجم عن الفرنسية مع تعليقات ودراسة)
المستشرقون والقرآن
ماذا بعد إعلان سلمان رشدي توبته؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية
الترجمة من الإنجليزية- منهج جديد
عنترة بن شداد- قضايا إنسانية وفنية
النابغة الجعدي وشعره
من ذخائر المكتبة العربية
السجع في القرآن (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)
جمال الدين الأفغاني- مراسلات ووثائق لم تنشر من قبل (مترجم عن الفرنسية)
فصول من النقد القصصي
سورة طه- دراسة لغوية وأسلوبية مقارنة
أصول الشعر العربي (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)
افتراءات الكاتبة البنجلادشية تسليمة نسرين على الإسلام والمسلمين — دراسة نقدية لرواية "العار"
مصدر القرآن- دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحي المحمدي
نقد القصة في مصر من بداياته حتى ١٩٨٠م
د .محمد حسين هيكل أديبا وناقدا ومفكرا إسلاميا
ثورة الإسلام- أستاذ جامعي يزعم أن محمدا لم يكن إلا تاجرا (ترجمة وتفنيد)
مع الجاحظ في رسالة "الرد على النصارى"
كاتب من جيل العمالقة: محمد لطفي جمعة- قراءة في فكره الإسلامي
إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية- خطاب مفتوح إلى الدكتور محمود على مراد في الدفاع عن سيرة ابن إسحاق
سورة يوسف- دراسة أسلوبية فنية مقارنة
سورة المائدة- دراسة أسلوبية فقهية مقارنة
المرايا المشوّهة- دراسة حول الشعر العربي في ضوء الاتجاهات النقدية الجديدة
القصاص محمود طاهر لاشين- حياته وفنه

في الشعر الجاهلي- تحليل وتذوق
في الشعر الإسلامي والأموي- تحليل وتذوق
في الشعر العباسي- تحليل وتذوق
في الشعر العربي الحديث- تحليل وتذوق
موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم
أدباء سعوديون
شعر عبد الله الفيصل- دراسة فنية تحليلية
دراسات في المسرح
دراسات دينية مترجمة عن الإنجليزية
د .محمد مندور بين أوهام الادعاء العريضة وحقائق الواقع الصلبة
دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية- أضاليل وأباطيل
شعراء عباسيون
من الطبري إلى سيد قطب- دراسات في مناهج التفسير ومذاهبه
القرآن والحديث- مقارنة أسلوبية
اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة
محمد لطفي جمعة وجيمس جويس
"وليمة لأعشاب البحر" بين قيم الإسلام وحرية الإبداع- قراءة نقدية
لكن محمدا لا بواكي له- الرسول يهان في مصر ونحن نائمون
مناهج النقد العربي الحديث
دفاع عن النحو والفصحى- الدعوة إلى العامية تطل برأسها من جديد
عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين
الفرقان الحق: فضيحة العصر
لتحيا اللغة العربية يعيش سيبويه
التذوق الأدبي
الروض البهيج في دراسة "لامية الخليج"
سهل بن هارون وقصة النمر والثعلب- فصول مترجمة ومؤلفة
في الأدب المقارن- مباحث واجتهادات
مختارات إنجليزية استشراقية عن الإسلام
نظرة على فن الكتابة عند العرب في القرن الثالث الهجري (مترجم عن الفرنسية)
فصول في ثقافة العرب قبل الإسلام
بعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١- ماذا يقولون عن الإسلام؟ (نصوص وردود)
دراسات في النثر العربي الحديث
"مدخل إلى الأدب العربي" لهاملتون جب- قراءة نقدية (مع النص الإنجليزي)
مسير التفسير- الضوابط والمناهج والاتجاهات
"الأدب العربي- نظرة عامة" لبيير كاكيا: عرض ومناقشة (مع النص الإنجليزي)

بشار بن بُرْد– الشخصية والفن

الحضارة الإسلامية– نصوص من القرآن والحديث ولمحات من التاريخ

في التصوف وأدب المتصوفة

النساء في الإسلام– نَسْخ التفسير البطرياركي للقرآن (النص الإنجليزي مع دراسة موازية)

الإسلام الديمقراطي المدني– الشركاء والموارد والإستراتيجيات (ترجمة تقرير مؤسسة راند الأمريكية لعام ٢٠٠٣م عن الإسلام والمسلمين في أرجاء العالم)

من قضايا الدراسة الأدبية المقارنة

ست روايات مصرية مثيرة للجدل

هوامش على "تاريخ العرب" لفيليب حتي

أفكار مارقة: قراءة في كتابات بعض العلمانيين العرب

موسم الهجوم على الإسلام والمسلمين– مع "قسمة الغرماء" ليوسف القعيد و"تيس عزازيل في مكة" ليوتا

"القرآن والمرأة" لأمينة ودود– النص الإنجليزى مع ست دراسات عن النسوية الإسلامية

علاوة على مثل هذا العدد من الدراسات والكتب المنشورة في المواقع المشباكية المختلفة، وعلى رأسها موقعه الشخصي.

الفهرست